ظروف استثنائية

اسم الكتاب: ظروف استثنائية
اسم المؤلف: عبد الباقي يوسف
تدقيق لغوي: راما الخطيب
تنسيق داخلي: أسماء أبو المجد
تصميم الغلاف: أحمد وهبة
رقم الإيـــــداع: 2024/13460
الترقيم الدولي: 978-977-8976-40-3
اسم الناشـــــر: رنة للنشر والتوزيع والطباعة

+201022157156

rannapublishing@gmail.com

رنة للنشر والتوزيع والطباعة

حقوق الطبع والنشر محفوظة للناشر ©
لا يحق لأي جهة طبع أو نسخ أو بيع هذه المادة بأي شكل من الأشكال
ومن يفعل ذلك يعرض نفسه للمساءلة القانونية

ظروف استثنائية

روايـــــــــة

تأليف

عبد الباقي يوسف

مؤسسة
للنشر والتوزيع
والطباعـــة

الفصل الأول

كثير الصمت.. كثير الشرود

تحوَّلتُ إلى شخصٍ كثير الصمت، كثير الشرود، عندما يتحدَّث أحدٌ معي، بغتةً أطلب منه أن يُعيد ما قاله رغم أنّني أنظر إلى فمه وهو يتحدَّث.

أسهو في حالةِ شرودٍ أينما كنت وحيثما اتَّجهت، حتى عندما آوي إلى فراشي كي أنام، أغمض عينَي وأستسلم للشرود ولا أعلم متى يغلبني النوم.

دأبتُ الشرود العميق هذا بعد تخرّجي مِن كليَّة الهندسة وتعييني في معمل الغزل والنسيج بسنةٍ ونصف، عندما أطلق (حسام) ابن عمّي الرصاص في عرس صديقٍ له، وأصابت رصاصة عن طريق الخطأ أحد الحاضرين وأردته قتيلاً.

بعد دخول حسام إلى السجن، تسرَّبَ إلينا بأن أهل القتيل يحاولون الثأر له، ولذلك رفضوا مُبادراتنا من خلال الوسطاء الذين أرسلناهم إليهم من أجل التصالح. ولأن عمّي لم يكن له غير ابنه الوحيد حسام، وأنَّني أيضاً ابن عمّه الوحيد، فكانت الأنظار تتّجه إليّ.

يومها طلب منّي أبي أن أتوارى عَن الأنظار، وأذهب إلى مدينةٍ أُخرى، لكنَّني تأنيتُ في اتِّخاذ هذا القرار ولم أكن أتخيَّل أن أعيش خارج المدينة التي ولدتُ فيها بعيداً عن أهلي وأقربائي.

لبثتُ حبيساً في البيت لا أرى وجه الشارع وأنا أعاني إرهاصات الفَزَع من أيّ نأمةٍ تتناهى إلى سمعي، خاصَّةً في أوقاتٍ متأخّرةٍ من الليل، فأتخيَّل بأن شخصاً منهم استطاع أن يتسلَّل إلى البيت خلسةً، وسوف يقتحم غرفتي ويجهز عليَّ بعيارات نارية انتقاماً لقريبه. ولم تقتصر هذه المُعاناة عليَّ فحسب، بل على أبوَي أيضاً، فكنتُ أرى الذعر بادياً على وجهَيهما عندما يُطرَق الباب سواء في الليل أو النهار، فنلتزم الصمت ولا نفتحه مهما استمرَّ الطرق. وكان أبي يحرص أن يوصد الأبواب والنوافذ بشكل جيِّد بعد أن غيَّر بعض الأقفال، واستبدَل الباب الداخلي الذي كان مصنوعاً من الخشب، ببابٍ مِن الحديد المقوّى، كما أنّه ابتاع مُسدّساً تحسّباً لأي هجومٍ طارئ علينا، وعلّمني كيف أستخدمه، وكانت المرة الأولى التي رأيتُ فيها مسدَّساً في بيتنا.

كان أبي يُكرّر على مسمعي كل يوم مئة مرَّة: اخرج من البيت يا بُنَي اخرج، دماؤهم ما تزال حارّة وفي أي لحظة يمكن أن يقتحم فوجٌ من رجالهم علينا البيت.

وكان هو الآخر قد أغلق مختبره الطبّي الذي يملكه وسط المدينة، وكانت أمّي هي التي تخرج من البيت وتتولّى جلب احتياجاتنا الضروريّة بسرعةٍ وتعود.

بعد أسبوعٍ من القلق المتواصل ليلاً نهاراً تذكَّرتُ صديقي (عصام) الذي يعمل مسؤولاً عَن مكتبة الإعارة في المركز الثقافي، حملتُ هاتفي الجوّال واتَّصلتُ به، شرحتُ له باقتضابٍ ما حصل معي، فلم يُعقّب بشيء، فقط قال: أمهلني بعض الوقت، وسوف أتَّصل بك.

في اليوم التالي هاتفني عصام وقال بأنَّه تحدَّث لمدير المركز عَن وضعي، وطلب أن يسمح له بجلبي إلى المكتبة كي أقيم فيها ريثما تهدأ الأمور. وقال بأنّني سوف أساعده من الغرفة الداخلية للمكتبة في تنظيم الإعارة، وإدخال عناوين الكتب الجديدة إلى الحاسوب، وبيان الكتب التي أعارها البعض وتأخَّروا في إعادتها. وإلى جانب ذلك، فإنَّني سوف أنشئ حِساباً على الإنترنت لتغطية الأنشطة الثقافية التي تُقام في المركز وبيان الخدمات التي يُقدّمها.

فوافق المدير وأصدر كِتاباً بتخصيص راتبٍ لي طوال فترة تعاوني معهم.

عند ذاك اتصلتُ بمديري في المعمل وقلتُ بأنَّني مضطرٌّ للتواري عَن الأنظار لفترةٍ قد تطول أكثر من تلك الأيّام التي انقطعتُ فيها عَن العمل حِفاظاً على حياتي، فأصدر قراراً بمنحي إجازة بلا راتب ريثما أعود إلى العمل.

اتفقنا على الخروج من البيت بسرّيةٍ تامّة، في الساعة الثانية والنصف ليلاً، هاتفني عصام وقال بأنّه استعار سيارة أحد أقاربه وعليَّ بالخروج حالاً لأنّه دخل شارع بيتنا. احتضنت أبوَي بحرارةٍ والدموع تترقرق في عيوننا، ودَّعتهما وأنا أهُمُّ بالخروج، فوجئتُ بأبي يقول: ابقَ هُنا مع أمّك للحظات يا بُني، لا تتحرّك حتى أعود.

ومضى بسرعةٍ إلى الخارج، وبعد قليلٍ عاد وطلب منّي أن أخرج بسرعةٍ. خرجتُ لأرى عصام يقف بالسيارة بمحاذاة الباب. صعدتُ على الفور، لكن بقي السؤال في مخيّلتي: تُرى ما الذي فعله أبي عندما خرج

وعاد بسرعة؟! انطلقنا في طريق المركز. كانت السماء مرصَّعة بالنجوم في ذاك الوقت المتأخّر من دجى الليل، وكانت الشوارع خالية كما لو أنّنا نمضي في مدينةٍ هجرها سكّانها. بوصولنا إلى المركز، فتح عصام الباب الرئيسي بالمفتاح الذي كان بحوزته، ومضينا إلى المكتبة التي سبق لي أن زرته فيها مرَّة واحدة. كان الصمتُ يطبق على الممرّات التي مشينا فيها حتى أدخلني إلى المكتبة، ثم إلى الغرفة الداخلية لها قائلاً: هذه هي غرفتك يا صديقي، لا أحد يراك فيها. ولم يلبث أن ودَّعني وخرج عائداً إلى البيت.

كانت مساحة المكتبة كبيرة مقسَّمة إلى عدَّة أقسام ومكتظَّة بالكتب المصفوفة بشكلٍ متناسقٍ على رفوفٍ مصنوعةٍ من خشب الزان.

مضيتُ بجانب الرفوف أتأمَّل الكُتب، أسحب كتاباً، أتصفَّحه ثم أعيده إلى مكانه. وأنا أمضي بين الكتب انتابني شعورٌ غريبٌ وهو أنَّني أمضي في مدينةٍ مزدحمةٍ بالناس، أستمع إلى الأصوات، إلى أبواق السيارات. ولذلك لم أستطع النوم، فمددتُ يدي إلى رواية حملت عنوان: (مرتفعات وذرنغ) وشرعتُ في قراءتها، كانت أوّل رواية أقرأها في حياتي. جذبتني إليها منذ الصفحات الأولى، دخلتُ إلى عالم شخصيّاتها، إلى الأوصاف البديعة والدقيقة للشخصيات والأماكن، وكانت تلك الأوصاف تُدخلني إلى أجواء الرواية أكثر، وتشدُّني إلى الاستمرار في القراءة.

قرأتُ نحو نصف الرواية، وفي اليوم التالي أتممتُ قراءتها. رأيتني أنفتح على عالَم الكتب، غدتْ قراءة الروايات تبهرني وتكشف لي عَن عالمٍ كان مخفيّاً عنِّي. كل يوم كنتُ أقرأ رواية، وأحياناً روايتَين. كنتُ

أباشر في القراءة عند انتهاء الدوام في الثانية والنصف ظهراً، أستمرّ حتى الفجر وأنا أقرأ وأدخّن وأحتسي الشاي والقهوة. ثم أنام وأستيقظ في العاشرة صباحاً، أنجز بعض أعمال المكتبة، وأجلس على الكرسي خلف طاولتي الصغيرة، أشرد بالرواية التي قرأتها، أستمر في الشرود حتى ينتهي الدوام وأبدأ بقراءة رواية جديدة.

تعاقدتُ مع مطعمٍ يجلب لي كل يوم وجبَتَي الغداء والعشاء، وفي الصباح كنتُ أتناول ما بقي من الوجبتَين، كنتُ أضعه في برّادٍ صغيرٍ كان في المكتبة، وكنتُ أصنع الشاي والقهوة بواسطة ركوة كهربائيَّة.

كان راتبي يكفيني ويزيد وعندما كان يأتي أبي لزيارتي خلسةً، وأحياناً كان يجلب معه أمّي؛ كنتُ أدخلهما إلى غرفتي الداخليّة، وكانت أمي أحياناً تحمل معها الجبن البلدي وعلبة عسل. وعندما كان أبي يريد أن يعطيني نقوداً، أقول له بأن الراتب يكفي نفقاتي ولا أحتاج شيئاً، وأعطيه ما زاد معي من الراتب.

كنتُ كلَّما أنتبذ رواية جديدة وأبدأ بقراءتها، ينتابني شعورٌ بأنني سوف أسافر إلى دولة جديدة، أتعرَّف على مجتمع جديد، لغة جديدة، عادات وتقاليد جديدة، أتعرَّف بأصدقاء جدد، أقارن صفاتهم بصفات أناس أعرفهم، من أقرباء، أصدقاء، جوار، معارف.

❁❁❁

في الليل كان الصمتُ يخيّم على المكتبة، أقف وسطها، أرمق الرفوف المُكدَّسة بالكُتب، ينتابني شعور بأنّني أقف وسط الكُرة الأرضية، أرى

العالَم بكل مدنه وشوارعه ومجتمعاته مِن حَولي. كلّ رفّ كان يتحوَّل إلى دولة، وكل ركن من الرفّ يتحوَّل إلى مدينة.

كنتُ مع ذلك أتعرَّف على شخصيّات الروائيين الذين كتبوها، استطعتُ أن أميِّز بين أفكار وأساليب ومفردات كلّ منهم.

كنتُ أرى كيف أن كل روائي له عالمه الخاص الحافِل في كيفية تقديم شخصيّاته الروائية: شخصيّات دوستويفسكي تمتاز بعمقها التحليلي عَن شخصيّات تولستوي التي تمتاز بالحِكمة، شخصيّات فرانز كافكا القَلِقة، تمتاز بقلقها وسوداويتها عَن شخصيّات ماركيز التي تنفتح على الحياة وتلتقط اللحظات الممتعة منها. شخصيّات يون فوسه الباردة التي تُكرّر عباراتها ببرود حتى في المواقف الساخِنة، تتميَّز عن شخصيّات يوكيو ميشيما المُضطرِبة.

شخصيَّات ترسَّخَت في ذهني لا يمكن لي نسيانها. وكيف لي أن أنسى (ميرسو) في (الغريب). كنتُ أرى إصرار همنغواي في (الشيخ والبحر) بأن خطيئة الصياد العجوز كمنت في ابتعاده كثيراً بواسطة زورقه في البحر واصطياده سمكةً لا يستطيع أن يحميها، الأمر الذي جعل عودته إلى البيت مع صيده الثمين لا تكون بالأمر السهل، لأنَّها نظير ذلك ستستغرق وقتاً طويلاً. فكلّما نبتعد كثيراً عن المكان، يكون ذلك على حِساب الفترة الطويلة التي سوف تستغرقها عودتنا إليه. لقد أمضى الصياد العجوز (سنتياغو) أربعةً وثمانين يوماً دون أن يصطاد سمكة واحدة، ويعود إلى البيت خائِباً، حتى أن الصبي الذي كان يُرافِقه في الذهاب إلى الصيد، توقَّف عن العمل معه، فاضطرَّ العجوز أن يذهب

بمفرده، وفوجئ ذات يوم -بعد كل تلك الخيبة- باصطياد سمكةٍ ضخمة.

لكن هذا الصيد الثمين جعله عرضةً لهجمات أسماك القرش التي تجاوزت مقدرته في الدفاع عن السمكة الكبيرة التي اصطادها، لأن المسافة التي سيقطعها للعودة كانت بعيدة. فلا هو قادر على التخلي عن السمكة، ولا هو قادر على الدفاع عنها والاحتفاظ بها كعلامة تاريخية في مهنته كصيّاد.

بدا العجوز سنتياغو في هول دوامة لا يعرف فيها استقراراً، وقد غدا في قلب واقع من الصراع بين الاحتفاظ بالصيد الثمين، وبين مجابهة أسماك القرش. لبث على تلك الحال وأسماك القرش تتكاثر وتنهش السمكة الكبيرة حتى أحالتها إلى هيكلٍ عظميٍّ عند وصوله إلى الشاطئ. وحينها ترك الهيكل على الشاطئ وعاد إلى بيته خالي الوفاض كما لو أنَّه لم يصطد شيئاً. ولبث الهيكل مرمياً على الشاطئ يُذكّره ويُذكّر الآخرين بخيبته.

كانت كل رواية تُرسّخ في أعماقي الإيمان بجدوى القراءة، وأنَّني مهما تفوَّقتُ في حياتي فإنَّني سأبقى ناقِصاً إن لم أقرأ.

كانت القراءة تقدم لي علاج الروح، تشرح الصدر، تنعش القلب، تمتلك مقدرة نافذة كي تجدد كل خلية فيّ. كانت كالمياه التي تهطل على تربة مخيّلتي فتجعلها خصبة مزدهرة بأشجار الورود.

كان اكتشاف رواية جديدة: كاكتشاف امرأة جميلة، مدينة سحرية، صديق عذب. كاكتشاف حياةٍ جديدة لم يكن لي عهد بدهشتها من قبل.

ازددتُ يقيناً أن من أهم المكرمات التي حظي بها الإنسان هي مكرمة القراءة. وكم أن الإنسان يظلم عينَيه عندما لا يقرأ بهما، كم يظلم يدَيه عندما لا يحمل بهما كتاباً ويقرأ.

كانت متعة مدّ اليد إلى الكتاب، لا تضاهيها متعة، حيث اقتطاف لآلئ وجواهر ثمار الفكر البشري النفيسة.

أمضيتُ أجمل أيام حياتي في تلك المكتبة وأنا أستمتع بتقليب الكتب، ومراجعة العبارات المُلفتة التي وضعتُ تحتها سطوراً بالقلم الرصاص.

كل كتاب ممّا قرأت مِن تلك الكُتب، يعبق بذكرى معينة، يحمل جزءاً من العمر.

تحوَّلت القراءة بالنسبة لي إلى قيمة حقيقية إلى جانب قيم الخير، والحق، والجمال، والحب. جعلَتني أكثر تذوّقاً وممارسة لهذه القيم ورأيت بأن الإنسان الذي تنعدم حياته من إشراقات القراءة، يكون ميتاً مهما تحرَّكَت أعضاؤه.

اكتشفتُ بأن القراءة في ضفتها المشرقة الأخرى تمتلك مقدرة هائلة على روح التجدّد، كل كتاب جديد ضخ روح التجدّد إلى خلاياي، أيقظ خلايا كانت نائمة.

كانَت تهبّ عليَّ أنسامٌ جديدة وأنا أعيش لحظات نورانية مبهرة من ألق التجدّد في حديقة الكتاب الجديد.

ترسَّخ في أعماقي يقينٌ بأن القراءة هي مستقبل الإنسان، ولا مستقبل له سواها، لا حياة له دون قراءة.

مذ ذاك لا أذكر أنه فاتني يومٌ لم أقرأ فيه شيئاً جديداً وحتى لوكنت في الطرقات، فإن رغبة القراءة الجامحة تلبث تطاردني فأقرأ الإعلانات، أو أي شيء تقع عليه عيناي، أتقدم لأقرب مكتبة لأقرأ عناوين المجلات، أبتاع شيئاً بحسب ما في جيبي، حتى لو كانت جريدة يومية فقط، ما يهم أن أبتاع شيئاً جديداً يمكن قراءته، لأن مشاهدة الإنترنت وقراءة عشرات الصفحات التي تكون بشكل يومي منه لا تروي ظمئي للقراءة المباشرة من الورق الذي أمسكه بيدي واستمتع بتقليب صفحاته، أشمّ منه رائحة الطِباعة.

كانت الشهور تمضي عليَّ ولا أفعل شيئاً سوى القراءة، وإنجاز العمل الذي كان قليلاً ولا يستهلك أكثر من ساعتَين فقط في اليوم. كنت أنتهي مِن رواية وأنتقل إلى رواية أُخرى في مكتبة المركز الضخمة: (مرتفعات ويذرينج)، (مزرعة الحيوانات)، (الخيميائي)، (ذهب مع الريح)، (الحارس في حقل الشوفان)، (الرجل الخفي).

كنتُ أتذكر امرأة متمرّدة عرفتها تشبه نادجا بطلة رواية أندريه بريتون، أو مدام بوفاري بطلة جوستاف فلوبير، أو رجلاً يُذكّرني بـ "وينستون سميث" في رواية 1984، أودولوريس في رواية لوليتا.

يا إلهي، وكيف لي أن أنسى فضل رجل كبيرٍ عليّ مثل جوزيه ساراماغو، كيف لذاكرتي أن تنسى رائعته (العمى) التي أذهلتني وجعلتني أعيد قراءتها.

جذبتني الرواية منذ بدايتها عندما توقَّف شخصٌ بسيارته أمام الإشارة المروريّة الحمراء بانتظار أن تنطفئ وتشتعل الخضراء، ولكنه في تلك اللحظات أُصيب بالعمى.

بعد أن أتممتُ قراءة الرواية، عرفتُ بأنّها رسالة وجَّهها ساراماغو إلى العالَم. ولذلك لم يطلق الأسماء على شخصيّاته، بل فقط يُعرّفهم بأعمالهم أو صفاتِهم، مثل: الطبيب، زوجة الطبيب، الصبي الأحول، العجوز، الفتاة ذات النظارة السوداء، لص السيارة، الأعمى الأول. كما أنه لم يذكر اسماً جغرافياً في الرواية،

كنتُ أشرد بأنّها رسالة تحذيريَّة مِن ساراماغو إلى المجتمع البشري مفادها بأن ما تراه الآن ربما بعد نصف دقيقة فقط لن تراه كما حصل بغتةً لهذا الشخص وهو واقف أمام الإشارة المروريَّة بسيّارته، ولم يعد قادِراً على مجرَّد العودة إلى بيته.

كانت مخيّلتي تزدهر وتزداد خصوبةً من روايةٍ إلى أخرى.

مضت عليَّ سنة كاملة قرأتُ فيها أربعمائة وعشرين رواية بِنهَم، أحسستُ معها بأنّني عشتُ أربعمائة وعشرين سنة مِن المُتعة. كتبتُ في سجلٍّ اسم كل رواية قرأتها وتاريخ القراءة، وأسماء بعض شخصيّاتها التي لفتت انتباهي.

ذات يومٍ جاء أبي بوجه تفتَّحَت أساريره، قال: مبروك يا بهاء.. تصالحنا مع الجماعة مقابل ديَّةٍ.. أسقطوا حقَّهم، وغداً أو بعد غد سيخرج ابن عمّك من السجن.

لم أكن أصدّق بأنَّني سأترك المكان الذي أمضيتُ فيه سنة من حياتي دون أن أخرج منه ولو لساعةٍ واحدةٍ، دون أن أرى وجه الشارع. كل حاجاتي كنتُ أقضيها في هذا المكان الذي لا يمكن لي نسيانه، وأشعر بأنّه أصبح جزءاً منّي.

بكيتُ بحرقةٍ وأنا أنظر إلى كل رفٍّ مِن رفوف المكتبة، إلى كل كتاب، وتقدَّمتُ مِن عصام الذي ترقرقَتْ الدموع في عينَيه، ضممته إلى حضني بقوَّةٍ. قلت: سأبقى مَديناً لك ما حييت يا عصام.

قال: أنا سعيدٌ لأنَّ الأمر انتهى على صلح، وتعيسٌ لأنَّك ستتركني.

ذهبنا معاً إلى مدير المركز، ودَّعته وقدمتُ له شكري الجزيل على وقفته معي. عند خروجنا من باب المركز، سألتُ أبي عَن تلك الليلة التي غاب فيها للحظات ثم عاد وطلب منّي أن أخرج. ذاك السؤال الذي لبث عالِقاً في مخيّلتي ولم أنسه. نظر إليّ وقال: وضعتُ احتمالاً بأن أحدهم يراقب البيت مِن مكانٍ ما، ولدى فتح الباب وخروجك، سيطلق عليكَ النار. لففتُ محرمة على رأسي ووجهي بسرعة وخرجت، وقَفتُ على الرصيف للحظات، تقدَّمتُ إلى سيارة صديقك، وعدت مطمئناً بعدم وجود أحد. ثم بكى وقال: لو أصابتني الرصاصة، كنتُ سأشعر بأنّني ما أزال في الحياة لأنّني تركتكَ فيها، أمّا إذا كانت أصابتك، كنتُ سأموتُ في اليوم ألف مرة.

❁❁❁

في الليلة الأولى وبعد أن ذهب الضيوف الذين جاؤوا لزيارتي بهذه المُناسبة، ذهبتُ إلى الفراش، أحسستُ بشيءٍ ما يتحرّك في عروقي وأن

دمي يُطالبني بشيءٍ ما، تقلَّبتُ في الفراش، بعد قليلٍ شعرتُ بأرضةٍ تنخر أنفي، وبغتة علَت غصَّة ثقيلة إلى حنجرتي، أدركتُ بأن كل ذرَّة فيَّ تُطالبني أن أمسك كتاباً بيدي وأقرأ. نهضتُ مِن الفراش وأنا أدرك بأن لا كُتب في بيتِنا لأن أبواي لا يُجيدان القراءة، ولم يسبق لي أن جلبتُ كِتاباً إلى البيت. ألقيتُ نظرةً إلى ساعة هاتفي الجوّال، كانت قد بلغت الثانية عشرة والنصف ليلاً. غمغمتُ في نفسي: من المؤكَّد لن أجد مكتبةً مفتوحة حتى لو جبتُ شوارع المدينة شارِعاً شارعاً. رمقتُ كل شيءٍ في الغرفة، رأيتُ أصابعي تتحرّك وتحتكّ بالرسغَين وكأنّها تُناديني: نُريد كِتاباً. قالَت عيناي: نريد كِتاباً، قال أنفي: أريد كتاباً، كل شيء فيَّ صار يلحّ ويقول: أريدُ كِتاباً.

فتحتُ هاتفي الجوال، بحثت في الإنترنت عَن كتابٍ بصيغة pdf كانت أول رواية رأيتها: (كافكا على الشاطئ). بدأتُ ألتهم الكلمات كمدمن وجد ضالّته، لكنَّني بعد خمس دقائِق أصبتُ بفتور، ولم أعد قادِراً على استئناف القراءة، كنتُ كمن يُحرِّك فمه ويتخيَّل بأنَّه يمضغ طعاماً لذيذاً، فازدادت حواسي هَيجاناً بحثاً عن كتابٍ ورقيٍّ، أفتحه وأشمُّه قبل كل شيءٍ، ثم أضعه بين يدَي، وتتذوَّق عيناي لذّة القراءة الورقيَّة، وكل ذرّةٍ فيَّ تشعر بنشوةٍ في حضرة بهاء الكلمات وهي تسطع على الورق. ثم أرى الشخصيّات تتجسَّد على الصفحات، أقرأ نظراتها، حركاتها، تُحدّثني، أحدّثها، وعندما أنام تأتيني في الحلم.

أجل هي ذاتها تأتي وأتحاور معها وتجيب على أسئلتي، وليس هذا فحسب، بل أرى الروائيين أيضاً وأتحاور معهم. عندما قرأتُ أعمال يوكيو ميشيما، جاءني في الحلم، وتحدّثنا عن اللحظات التي قرَّر فيها

الانتحار بتلك الطريقة المريعة (السيبوكو). وبعد قراءة (العمى) رأيتُ العجوز جوزيه ساراماغو، وسألته عن سبب عدم تسمية شخصيات الرواية، وعدم ذكر اسم المدينة التي أصيب أهلها بهذا الشكل الغريب من العمى. كنتُ أقرأ الرواية كما لو أنّني أتناول شوكولاتة رغم أنّها كانت طويلة نوعاً ما، ولكن قراءتها كانت لذيذة، بعكس الروايات التي تتطلَّب جهداً لفهما، بل حتى لقراءتها المُتعبة مثل (سيد الخواتم). ولكن في النهاية أشعر بأنها كانت تستحق كل ذاك الصبر على قراءتها. مِن جهةٍ أُخرى كنتُ أشعر بأن تلك الروايات الطويلة والمُتعِبة، كانت تُدرّبني على الصبر. وتجعل إمكانية الحوار بيني وبين نفسي مُتاحة، وأدركتُ عند ذاك بأنّني لن أبلغ اليأس في أيّ معضلة تواجهني مادام الحوار بيني وبين نفسي قائِماً.

لبثتُ يقظاً حتى الصباح، خرجتُ مِن البيت كالمدمن، رأيتُ الناس يخرجون من بيوتِهم كي يجلبوا الخبز الساخن. كان المنظر مبهراً بالنسبة لي كما لو أنّني خرجتُ للتوّ من السجن. لم أشأ أن أركب سيّارةً، شعرتُ أنّني بحاجة إلى المشي في الطرقات، المشي بطلاقة وأنا أنظر إلى وجوه الناس، أسمع أبواق السيارات، أصوات الباعة وهم يتجوَّلون بسياراتهم وعرباتِهم في الأزقّة. أن أعيش مشاعر أنّني تحرَّرتُ مِن الخوف بعد سنةٍ من الرعب والفزع، كنتُ أشعر فيها كل يوم وكل ساعة بأن ثمّة مَن يترصَّدني ليطلق رصاصة الموت عليّ، رصاصة حرماني من كل هذه الحياة الجميلة التي اكتشفتها وأنا أتخيَّل بأنّني سأعيشها مع امرأةٍ تكون حبّ العُمر، تُحبّ القراءة مثلي، ننجب أطفالاً، نعلّمهم حب القراءة قبل أي شيءٍ آخر، نجعلهم يعشقون القراءة ويُقدّسونها. أجل كنتُ أتحرَّق شوقاً

إلى النساء اللواتي كنَّ يستعرن الروايات وكنتُ أدوِّن أسماءهن دون أن أتمكَّن من رؤيتهن، كنتُ أتحرَّق شوقاً كي أنظر إلى امرأةٍ وهي جالسة تقرأ رواية وتستمع إلى موسيقى خافتة، كنتُ أتخيَّلها جالِسة في قاعة القراءة في المركز، أو أخذت الرواية إلى بيتها كي تقرأ.

كنتُ أتتبَّع الذين يستعيرون الكتب باستمرار، ومن بينهم لفت اسم امرأة نظري لأنّها كانت تستعير كل أسبوع روايةً، ومع تكرار اسمها صرتُ أتتبَّع الروايات التي تقرأها. كانت تقرأ روايات فرنسواز ساغان، وإيزابيل الليندي، وشارلوت برونتي، وتوني موريسون. ثم استعارَت رواية أحدب نوتردام، وفي الأسبوع الذي يليه، البؤساء. توصّل بي الأمر أن صرتُ أقرأ الكتب التي كانت تستعيرها. كانت تبدو قارئة ماهِرة تعرف كيف تختار الكتب التي تقرأها، كنتُ أقرأ تلك الكتب التي تستعيرها وأتخيَّل بأنها تقرأ تلك الجُمَل المُبهرة التي كنتُ أتوقَّف عندها وأضع خطوطاً بقلم الرصاص تحتها. وعندما كانت تُعيد الكِتاب، كنتُ أتفاجأ بأنَّها تضع السطور تحتَ ذات الجُمل التي وضعتُ تحتها السطور في النسخة الثانية من الكِتاب، فأقلّب الصفحات في النسختين لأتحقّق أكثر.

تشكَّلَت صورة لها في مُخيّلتي، صرتُ أنظر إلى اسمها: (ريناد زاهي). أتلفَّظ حروف الاسم حرفاً حرفاً، يتحوَّل كل حرف إلى كلمة، وكل كلمة إلى جملة، صرتُ أرى ملامحها في حروف الاسم، رسمتُ تلك الملامح على صفحة بيضاء. وضعتُ خدّي على الصورة وأنا جالس على الكرسي وغفوت بنشوة. أحسستُ بأصابع تنقر على كتفي، فتحتُ عينَي

المُثقلتَين بالنوم، وقفتُ على قدمَي. كانت ذات الفتاة التي رسمتها على الصفحة تقف بجانبي وتقول: لو سمحت أريد أن أستعير كِتاباً.

ثم نظرتْ إلى الصورة وقالَت: هذه صورتي، مَن الذي رسمها؟

ارتبكتُ وقلت: كيف دخلتِ إلى هُنا؟!

قالت: جئتُ متأخّرة كي أستعير كتاباً، ويبدو بأن الدوام قد انتهى، فقلت لعلّي أرى أحداً في المكتبة يعيرني الكتاب. كان باب المكتبة مفتوحاً فدخلت. ثم أردفت تقول: اعذرني لم أكن أعرف بأنك كنتَ نائِماً.

قلت: أي كتابٍ تريدين؟

قالَت: رواية (تحت أنظارٍ غريبة).

مضيتُ إلى قسم الروايات العالمية، سحبتُ الرواية. تمتمتُ: ما اسمكِ؟

قالت: ريناد زاهي.

ارتبكتُ مرةً أخرى عند سماعي الاسم، مددتُ إليها الرواية ولكنّها سقطت من يدي على الأرض. ولم أعد أرى الفتاة. قلت: ريناد..

ولم يردّ أحد. ظننتها راحت تتجوَّل بين الكتب، فمضيت بين الرفوف وأنا أقول: ريناد..

خرجتُ من المكتبة، مشيتُ في ممرّات المبنى وأنا أوزّع نظراتي على كل الاتّجاهات، عدتُ إلى غرفتي. رمقتُ الساعة، كانت الواحدة ليلاً. حملتُ الرواية من الأرض، وضعتها على الطاولة بجانب الصورة. استلقيتُ على السرير وأنا أشرد حتى تناهى إلى سمعي صرير الباب

ورأيتُ عصام يدخل وهو يقول: صباح الخير يا صديقي، لقد استفقتَ اليوم مبكّراً على غير عادتك.

وصلتُ إلى قلب المدينة، دخلتُ أوَّل مكتبة رأيتها مفتوحة، ابتعتُ روايتَين ساخِنتَين وعدتُ أتهادى بالمشي إلى البيت.

الفصل الثاني
مفارقات

فوجئتُ باسم صديقي القديم (نيار) يتلألأ على شاشة هاتفي عندما رن. دُهِشتُ وأنا أحدِّق في الاسم ملياً، ونغمة الرنين تتالى، تتالى، وأنا أنظر.. أنظر في حروف الاسم بدهشةٍ.

كان نيار صديق دراستي في المرحلة الابتدائية، وجاري في البيت، ولدنا معاً في الحارة وكبرنا فيها معاً، لكن افترقنا في الصف الخامس الابتدائي عندما باع أبي بيتنا في تلك الحارة، وابتاعَ بيتاً في حارةٍ أخرى ممّا أدّى إلى فراقنا في الحارة وفي المدرسة معاً. كانت ثمة مشاعر غريبة تجذبني إليه، وكنتُ أرى في نظراتِه وفي ملامحه بأنَّه يُبادلني ذات المشاعر. لم نكن نفترق لا في المدرسة ولا في البيت، في الصباح كنّا نذهب معاً إلى المدرسة ونرجع معاً، كنّا نتجنَّب الآخرين سواء في المدرسة أو في الحارة حتى نمضي الوقت كلّه ونحن نتحدَّث.

كان يروي لي ما يحصل معه، أو يحصل في البيت، وكنتُ أُخبره أيضاً بذلك.

عندما كانت أمّي ترسلني بعض الأوقات إلى دكّان (دانيال الآشوري) الذي كان في الحارة لأبتاعَ حاجةً للبيت، كنتُ قبل ذلك أتَّجه إلى بيت نيار، أطرق الباب وأصحبه معي، وكان بالمقابل عندما يخرج من البيت يأتي إليّ.

كان دانيال الآشوري في الخمسينيات من عمره دون أن يتزوَّج، كان مُقيماً لوحده في البيت، وخصَّصَ جزءاً من البيت لهذا الدكان الذي هو مصدر معيشته. كان باب الدكّان مُلاصِقاً لباب بيته، وكان إلى جانب السمانة يملأ بوابير الغاز الصغيرة للجيران. كنّا نراه أحياناً أمام الدكّان يقلب أسطوانة الغاز على فمها ويجعل أسفلها إلى الأعلى، يضع الأنبوب في فتحة الأسطوانة ويمدُّه إلى فتحة البابور الصغير، نقف وننظر إليه، فيمازحنا وهو يذكر أسماءنا، كان يحفظ أسماء جميع أطفال الحارة، وأحياناً يسألنا عَن أحدهم ويقول بأنَّه لم يره منذ عدَّة أيّام.

كان يرتدي ثياباً رثَّة متَّسخة على الدوام يبدو بأنَّه لا يخلعها ليلاً نهاراً، يحرّك فمه دوماً كما لو أنَّه يمضغ شيئاً. أحياناً كنّا ندخل الدكّان ونراه نائِماً وقد أرخى جسده على الكرسي بشكلٍ غريب، وفمه يتحرَّك كالعادة حتى وهو نائم، وعندما يسمع ضحكاتنا يهزُّ رأسه عدَّة هزّات وينهض.

في الشتاء كان يوقد مدفأته القديمة التي تعمل على المازوت وتبقى في موضعها صيفاً شتاءً. أحياناً كان يجلس معه طفلٌ أو طفلان حول المدفأة، وكنتُ أحياناً مع نيار نجلس معه نتدفّأ ونأكل ما ابتعناه من الدكّان.

❁❁❁

بعد كل هذه السنوات الطويلة وبينما كنتُ أمدُّ خطواتي إلى محلٍّ لشراء ثُريّا كي أهديها إلى ابنة خالي (رحاب) بمناسبة زواجها، تناهى إلى سَمعي صوتٌ كسيرٌ ينادي باسمي. أفزعَني الصوت وظننتُ بأنَّه ذاك الشخص الذي فوجئتُ به منذ قليلٍ في المحل الذي دخلته كي أشتري

ثُريّا. أحسستُ برعب مباغت بمجرَّد أن وقعتْ نظراتي عليه، وهو كذلك صوَّب نظراته إليّ عندما رآني ألج المحل.

أدرتُ ظهري على الفور وسارعتُ الخُطى نحو الخارج دون أن أنظر خلفي حتى لا أراه في حال خروجه من المحل، أو ربما يتتبّعني.

هكذا أشعر أحياناً بفزعٍ شديد، وأجفل من مجرَّد رؤية أشخاص سواء أكنتُ أعرفهم، أو لا أعرفهم، أو حتى أراهم للمرة الأولى.

لكن لحسن حظي إنَّهم قلَّة، لا أرى أحدهم إلّا نادراً، أمّا الذين أعرفهم، فأتحاشى الاقتراب منهم، لأنَّني لا أحتمل بقاء خمس دقائق في مكان يكونون فيه.

هذا الشخص الذي رأيته قبل قليلٍ، هو مِن سكّان المدينة، ذات يومٍ سمعتُ شخصاً يناديه: (نادر). أصادفه أحياناً في إحدى الأماكن، نحيل الجسد، طويل القامة، حنطي الوجه، لا أدري ما الذي يصيبني عندما أراه ينظر إليّ، أشعر بأنَّه يوجّه إليَّ بعينَيه الرماديتَين نظرات شعاعيَّة تبثّ الفَزَع إلى روعي. وقد حفظتُ شكله، في الصيف يرتدي بدلة زرقاء نصف كم، وفي الشتاء يرتدي بدلة رسميَّة وفوقها معطف رصاصي اللّون، يصل إلى ركبتَيه، مزرَّر بأزرار كبيرة الحجم من مساحة صدره إلى أسفل ركبتَيه، وكالعادة يمشي وبين حينٍ وآخر يلتفت وينظر خلفه. يدسّ يدَيه في جيبَي المعطف، وحتى إذا صادف شخصاً على معرفةٍ بِه وألقى عليه السلام، فإنّه يجيب بعدّة هزّات من رأسه دون أن يخرج يداً من جيب.

صدف أن رأيته عدَّة مرّات عندما كان المطر يهطل بغزارة، كان يحمل شمسيَّة سوداء بكف يقي بها نفسه من المطر ويدس الكفّ الأخرى في

جيب معطفه، ويلف حول عنقه وشاحاً تتدلّى من طرفَيه خيوط رفيعة. يمشي الهوينا وكل عدّة خطوات يلتفت خلفه.

ينتابني شعورٌ بأن هذا الشخص بغتة سينقضّ عليّ ويلتهمني. ولا أحتمل وأنا أتخيَّل بأنَّه يصوّب نظراته إليّ.

كل شيءٍ فيَّ يغدو في حالة استنفار، تتسارع أنفاسي، يهبط قلبي، أشعر بدمي يغلي في عروقي، وأغادر المكان على عَجَل.

مع تكرار لقائي به في مرّات عديدة، أدركتُ بأنَّه يحدس حجم الرهبة التي تنتابني عندما أراه.

بعد لحظاتٍ من وقوفي، عاد الصوتُ مرة أخرى يهتف باسمي، التفتتُ مرتبكاً، وقعتْ عيناي على شخصٍ يخطو نحوي، ولحظة وصوله إليّ قال وهو يلهث: أما عرفتني؟

حدَّقتُ في ملامحه بإمعانٍ، ولا أدري لماذا انتابتني نشوة مع نظراتي إليه، بعد هنيهةٍ قلت: نيار؟

قال: إي نيار.

ولم أجد نفسي إلّا في حضنه، تباوسنا، ترقرقَت دموعٌ في عيوننا، أمسكَ بيدي، وأمسكتُ بيده كما لو أننا لا نُريد أن نفترق ثانيةً، وأنا أشبك يدي بيده؛ وثَبتْ إلى ذاكرتي أيّام الطفولة بكل زخمها، ذكرياتنا عندما كنتُ أشبك يده بيدي ونمضي معاً إلى المدرسة، ومنها نعود إلى البيت، إلى دكّان دانيال، إلى بداية الشارع والعودة، بل حتى ونحن نجلس معاً في المساءات تحت قنديل العمود الكهربائي بمحاذاة بيتنا نتحدَّث عمّا رأينا وسمعنا طوال اليوم. وعندما كان أبي يجلب حلوى إلى البيت، كنتُ

أجلب له قطعةً، وكان هو أيضاً يجلب لي، أحياناً لم يكن أحدنا يجلب معه نقوداً إلى المدرسة فكان الآخَر يُقاسِمه ما عنده.

تلك الملامح التي تنغرس في مخيّلاتنا منذ الصِغَر، يبدو أنَّها تبقى مهما غيَّرت السنوات من هيئات الناس الذين عرفناهم في سنوات الطفولة.

ياه.. كم طرأ عليه تغيير.. كانت المُقارَنة مروعة بالنسبة لي بين صورة نيار الطفل المحفورة في ذاكرتي والتي لا يمكن لي نسيانها ما حييت، وبين نيار الرجل الأربعيني مثلي، أجل مثلي وكم من مرَّةٍ سمعتُ أمّي تقول عندما كانت أمّه تزورنا في البيت: ابني بهاء ولد بعد ابنكِ نيار بعشرة أيّام يا (صباح). تقول أمّه: صحيح يا (دارين) ابني ولد في الأوَّل من حزيران، سجلتُ هذا التاريخ على دفتر وأحتفظ به.

وكان حديثها خير دليلٍ لنا بأنّنا ننتمي إلى برج الجوزاء.

رغم كل ذاك الاكتئاب الذي كان يطفح على وجهه، كانت بعض ملامح جماليّات الطفولة ما تزال صامدة على سحنته. قلت وأنا أحدّق بعمقٍ في مساحات الاكتئاب على مظهره بشكل عام: هل أنتَ بخير يا نيار؟

قال وقد بدا لي كوردةٍ ذابلةٍ في الربيع: لا لستُ بخير، أنا في أسوأ مراحل حياتي يا بهاء.

تمتمتُ في سرّي وأنا أنظر إليه: قبل الآن كنتُ أعتقد بأن الإنسان لا يبكي إلاَّ مِن خلال عَينَيه، الآن اكتشفتُ بأن الإنسان يمكن أن يكون غارِقاً في البُكاء بكل أعضائِه إلّا بعَينَيه.

قلت: الحياة ليست ثابتة يا نيار، هي عبارة عن مجموعة تحوّلات، وأفضل شيء هو أن نستوعب هذه التحولات.

تذكَّرتُ كم أنّه شخصٌ نقي وحسّاس، وأنا أنظر إليه نظرات احتفائية؛ قفزَت واقعة إلى ذاكِرتي عندما كنّا في الصف الرابع الابتدائي، وكنّا في وقت الفرصة أحياناً نذهب إلى ندوة المدرسة ونشتري بعض الحلوى أو السندويش، يومها قال لي وهو ينظر إلى أحد الطلاب: هذا الطالب اسمه (توفيق) وهو يتيم، أرى من عينَيه بأنه جائع، لكن لا يملك ما يشتري به.

ثم راح واشترى سندويشة مرتديلا، وأعطاها له، انحرَج الصبي كثيراً وقهقرَتْ به خطواتُه إلى الوراء وهو يعتذر عن أخذها.

فقال له نيار: هذه هدية من أخ لأخيه يا توفيق، أرجو ألّا تردّني.

هذا الموقف هزَّني ولفتَ نظري بقوَّة، يومها أردتُ فيما لو كنتُ أنا مَن قام بذلك تجاه زميلنا في المدرسة.

تركتُ شأن الثُريّا، أو لأقل نسيتُها وأنا أدعوه للمسير نحو أحد المطاعم الجميلة في المدينة لأن زوجتي مع ابني في بيت أهلِها وكان الاتّفاق أن أشتري الثُريّا وأذهب هناك، نتغدَّى ثم في المساء نأخذ الثُريّا ونذهب للتبريك. لكن الأمر اختلف، وأنا أتخيَّل جلوسي مع نيار نتناول الطعام معاً.

عندما وصلنا باب المطعم، قلت وأنا أدعوه للدخول بأنني أريد أن أحتفي به ونجلس ساعةً من الوقت في هذا المكان الجميل، نتناول طعاماً.

قال: أشكرك يا صديقي.

ألححتُ عليه بالدخول، بدا أنَّه قَد حَسَمَ أمره واستدار قائلاً: تأكل بالعافية يا صديقي، ربما نلتقي في وقتٍ آخر.

لحقتُ به وقد سبقني صوتي إليه: انتظر.

عدنا نمشي معاً حتى وصلنا ذات المحل الذي التقينا بجانبه، بقي معي حتى ابتعتُ الثُريّا، حينذاك أخذتُ منه رقم هاتفه، وأعطَيته رقم هاتفي كي نبقى على تواصلٍ.

أشرتُ إلى إحدى التكاسي التي كانت تمضي في الشارع، فعرج السائق ووقف بجانبنا. كان في ستينيّات العُمر، ممتلئ الوجه، يضع على رأسه قبَّعة سوداء ذات منقار طويل.

فتح نيار الباب الخلفي، وضعتُ الثريّا برفقٍ على المقعد الطويل، وجلستُ في المقعد الأمامي بمحاذاة السائق، لوَّحتُ بكفّي لنيار ولوَّح بيده، ابتعدت السيارة واستَدرتُ إليه، كان لا يزال واقِفاً على الرصيف ينظر إلى السيارة.

❁❁❁

بعد نحو خمس دقائق من المسير، عدّل السائق منقار قبَّعته، قال وهو يُدير المقود وينظر أمامه بحذر: كثر الظلم بيننا يا أستاذ، لا أعرف ما حلَّ بالناس، صرنا نشعر بأننا نجلس على قنابل موقوتة يمكن لها أن تنفجر في أي لحظة، يا رب سترك. وبعد قليلٍ من الصمت أردف يقول: في الشهر الماضي راح ابني إلى الدكان ليشتري كرتونة بيض، وعندما تناول صاحب الدكان منه الورقة النقديّة، فحصها وتبيِّن بأنَّها مزوَّرة، اتَّصل

بالشرطة فجاءَت وألقت القبض عليه، بقي عندهم أسبوعاً وهم يُحقّقون معه ويطلبون منه الاعتراف بأنَّه كان على علمٍ بأنَّها مزوَّرة، وأن يرشدهم إلى أسماء الذين يتعامل معهم، أو إلى المكان الذي أخذ منه هذه الورقة النقدية. وكيف لي أن أتذكَّر من أيّ راكبٍ أخذتُ تلك الورقة يا أستاذ، وفي أي يوم. بعد ذلك أحالوه إلى القضاء ولم أستطع أن أعيده إلى البيت إلّا بكفالة بعد أن أوكلتُ له محامياً.

بغتة فرمل بقوَّة وارتفع صوتُه: يا ساتر.. يا ساتر. واستطاع أن يتجنّبَ دهس شخصٍ كان يقطع الطريق إلى الجهة الأخرى دون أن ينظر حوله. ارتطمت جبهتي على إثر ذلك بمقدِّمة السيّارة وسمعت خشخشةً قويَّةً صدرت من الثريا.

انعطفَ بعجالةٍ إلى يمين الطريق وتوقَّف، نظرتُ إلى جبهَتي في مرآة السيارة ورأيتُ خدشاً بسيطاً. سبقني السائق بفتح الباب الخلفي ونظرنا إلى الثريا كانَت قد أصبحت بين حافَّة الكرسي الخلفي وخلفية الكرسي الأمامي، سحبناها إلى الخارج وكان قد تحطَّم فيها مصباحان صغيران.

قال السائق بشهامةٍ: لنرجع وأشتري لك واحدة جديدة، وآخذك للطبيب كي يفحص جبهتك.

طبطبتُ على كتفه وقلت: أكمل إلى البيت يا رجل.. ولا يهمك.

قال: أنتَ متأكّد بأنَّكَ سليم، ألا تشعر بدوخةٍ نتيجة الصدمة؟

قلت: أنا سليم ولا أشعر بشيء.

كان ذاك الشخص الذي تسبَّب في الحادث واقِفاً ينظر إلينا وهو يبتسم ابتسامة عريضة.

كان شخصاً في نحو الخامسة والثلاثين من عمره، متوسّط القامة، منكوش الشعر، كثّ اللحية بشكل عشوائي، حافي القدمَين، يرتدي بيجامة فضفاضة وعليها جاكيت بدلة رسميّة.

نظر إليه السائق بشيءٍ من الأسف وحوقَل، ثم أطلق تنهيدة عميقة، أشار لي بالصعود، وراح يفتح الباب ويصعد خلف المقود.

أدار مُحرّك السيّارة مِن جديدٍ، بعد لحظاتٍ من المسير قال بأنَّ هذا الشخص اسمه (فتحي) يعرفه معرفة جيدة، كان مُدرِّساً لمادَّة اللغة العربيَّة اعتاد أن يذهب بين حينٍ وآخر مع أحد أصدقائه إلى النهر يصطادان السمك بواسطة الصنارة من المساء وحتى الفجر.

في العام الماضي عندما كانا يصطادان على النهر، تلقَّى صديقه اتّصالاً من زوجته تقول بأن ابنهما الصغير ارتفعت حرارتُه كثيراً، وعليه أن يأتي كي يسعفه إلى المُستشفى، اضطرَّ الأستاذ فتحي أن يرجع مع صديقه. عندما وصل البيت كانت الساعة تجاوزَت الواحدة بعد منتصف الليل، لم يطرق الباب حتى لا يزعج زوجته، قفز إلى الحائط ودخل الحوش. وهو يتقدَّم نحو الداخل، فوجئ بحذاء رجالي على عتبة الباب، توقَّف ينظر إلى الحذاء بذهولٍ، أدار القبضة بسرعةٍ ودخل ليرى زوجته مع مختار الحي عاريَين على السرير. أقفل الباب عليهما واتَّصل بالشرطة.

بعد أن طلَّقها أرسل لها طفلَيه بسبب الشكوك التي بدأت تتسرَّب إليه بشأن أبوَّته لهما وأصيبَ بحالةٍ من الهستيريا. عَرَضه أهلُه على كثيرٍ

من الأطبّاء النفسيين هُنا، ثم أخذوه إلى الأردن للعلاج لكن دون جدوى. منذ ذاك اليوم يخرج من البيت إلى السوق، يُغنّي ويُصدر حركات بهلوانية في الشوارع. فقد أهله الأمل في علاجه، ولا يستطيعون أن يمنعوه الخروج من البيت، لأنَّه يُصبح شرساً ويُحطّم الأشياء، ويصرخ. أحياناً يخرج فقط بالثياب الداخلية، وعندما يراه بعض طلّابه يأخذونه إلى المطعم، ويتحدَّثون معه ويبعدون عنه المستهزئين.

صمتَ قليلاً، ثم جاء صوته وهو يقود وينظر أمامه بحذر: هذه السيارة ليست مصدر رزقي فقط يا أستاذ، هي مدرستي أيضاً، لا تحصل حادثة في هذه المدينة دون أن أسمع بِها، هُناك أشياء غريبة تحصل يرويها لي الناس، أو أسمعها من الركّاب وهم يتحدَّثون مع بعضهم.

صرتُ أخاف يا أستاذ، أخاف كثيراً. توصَّلتُ إلى قناعةٍ بأن أخطر ما يمكن أن يخطر لي، أن يخطر لي بأنَّني أصبحتُ في مأمنٍ من الخطر.

بعض الناس لديهم غريزة الافتراس، عندما يجدونك بلا أشواك، يفتكون بك كل الفتك، لا يتركون فيك موضِعاً إلا وينهشونه. لا يكتفون بنهب مالك، وعرضك، وأولادك، ومقتنياتك فحسب، بل لو تمكَّنوا سيخلعون حتى سنَّك إذا كان به ذهب.

بعد صمتٍ لم يطل به أردف يقول وفمه يزبد: أوف.. أوف.. بِلادنا جميلة يا أستاذ، لكنَّها مريضة بالفاسِدين بالمبتزّين. لا أدري ما الذي أصابنا، كل شيء يبدو غامِضاً أمامي، ليتنا عدنا إلى الوراء الذي كان أفضل بكثير، كل سنة تكون أسوأ مِن سابقتها.

هذا هو ابني الوحيد الذي بقي هنا، كل أولادي وبناتي صاروا لاجئين في بلاد العالَم. قال لي: يا أبي إما أن تسافر معي، أو أبقى معك، لن أتركك وحدك هنا، لا أستطيع أن أعيش بدونك.

قلتُ له بأنَّني أيضاً لا أستطيع أن أعيش بعيداً عن بلدي، لقد اعتدتُ أن أرى هذه الشوارع وأدور فيها بسيّارتي.

قال بمرارة: المفارقة الغريبة التي أراها أن معاناة الناس بدأت تتفاقم يوماً أكثر من يوم وسنة أكثر من سنة اعتباراً من اليوم الأول لاستقلال بلادنا، الأبطال الذين ضحّوا بأنفسهم في سبيل استقلال البلاد، أصبح أحفادهم يُضحون بأنفسهم هرباً من بلادهم المستقلة كي يلوذوا بِمُحتليهم السابقين. أسوأ ما يُمكن أن يفتكَ ببنية المُجتمع يا أستاذ، عندما يكون المال في اليد الخطأ، والسياسة في اليد الخطأ، والقضاء في اليد الخطأ، والدِين في اليد الخطأ. كل شخصٍ عند الآخرين يكون بطلاً في وظيفته، يحقّق بطولاتٍ إنسانيّة مشعّة من خلال فرصة بقائِه في تلك الوظيفة وعندما يخرج منها، يخرج مُكللاً بمواقف بطولية زاهية. وعندنا كل شخصٍ يكون وباءً على وظيفته، يلحق من خلالها الويلات بحقّ الذين يتمكَّن مِنهم، وعندما يخرج منها، يخرج وقد تكّلل بتاريخٍ مِن الخزي.

لكن رغم كل هذا فإنني مقتنع بأن كل شيء قابل للإصلاح، وعدم اليأس هو الخطوة الأولى في الإصلاح حتى لو تحولت بلادنا- وهذا ما لا أستبعده- بعد سنوات إلى صحراء قاحلة بسبب هجرة الناس منها. ثم رفع صوته بقوّة كما لو أنّه يتشاجَر مع نفسه: لا نحتاج إلى أسلحة، لا

نحتاج إلى أموال. ضمَّ أنامله إلى بعضها وخبَّط بِها على صدغه وقال: نحتاج إلى الوعي.

المجتمعات المتقدمة الآن، كانت في أوضاع أكثر سوءاً ودماراً منا، لكنها انتصرت بالوعي والحكمة، وليس بالسلاح والأموال.

الذين آثروا البقاء في البلاد يا أستاذ، يُعانون من سطوة تداعيات التنظيمات الموبوءة، والذين هاجروا إلى الغرب، يُعانون من سطوة تداعيات أوبئة مشاعر الاغتراب، وإحداهما أكثر وباءً من الأخرى.

مسح الزبد عَن طرَفَي فمه واستأنف يقول: أبناء الشرق هذه الفترة يعيشون أسوأ مرحلة شهدها التاريخ البشري، وأبناء الغرب يعيشون أزهى مرحلة شهدها التاريخ البشري، السبب ببساطة شديدة يكمن في ارتفاع نسبة الوعي عندهم، وتدني نسبته عندنا.

الفصل الثالث
بسمة شاحبة

هاهو نيار يتصل بي بصوته المُتهدّج الذي يخرج من حَنجرته بالكاد، يخرج بأحاسيسه المُرهفة.

قال بأنَّه يريد أن نلتقي في ذات المكان الذي التقينا فيه قبل أسبوعَين في المرة الماضية إذا كان لدي مجال.

كنتُ على رأس عملي، وكانت الساعة تقترب من الواحدة والنصف ظهراً، قلتُ: تمام يا نيار، سأجيء.

استأذنتُ مدير المعمل، خرجت بلهفةٍ كي أرى الشخص النادر الذي أشعر براحةٍ عندما أراه، أشعر بأنّه يحمل جزءاً منّي، وأحمل جزءاً منه. انتابَتني ذات المشاعر التي كنتُ أشعر بها نحوه عندما كنا أطفالاً في الحي الذي نقطنه، ذات المشاعر التي لم يطرأ عليها أي تغيير، شخصٌ له معزَّة محفورة في قلبي.

خرجتُ مِن باب المعمل وفي اللحظة التي رفعتُ يدي كي أشير لسيّارة أجرة حتى تأخذني إلى السوق، وقعتْ أنظاري على باص النقل الداخلي الذي كان قادِماً إلى السوق، أشرتُ له وصعدتُ على عَجَل، اقتعدتُ الكرسي الأمامي المُفرَد الذي كان فارِغاً. صرتُ أنظر إلى الطرقات، إلى قامات الناس والباص يمضي ويقف في المواقِف، يُنزل أناساً ويُصعد آخرين.

في تلكَ اللحظات خطر لي بأنّنا في أواخر الشهر السادس، وأنّنا ولدنا معاً في هذا الشهر، منذ أسبوعَين التقينا فيه بعد كل ذاك الفراق الطويل، وها نحن سنلتقي فيه للمرَّة الثانية.

استغرقتُ في الشرود وبغتةً انتبهتُ بأنّني تجاوزت الموقف الذي كان عليَّ النزول فيه، وهو الأقرب إلى وجود نيار، ناديتُ السائق كي يقف. فتمهَّل حتى استطاع أن يقف إلى يمين الطريق.

نزلتُ من الباص، حششتُ الخطى إليه، رأيته واقِفاً بجسده الضامر

على الرصيف بجانب عمود كهرباء ينظر إلى المارَّة دون أن يراني، مضيتُ نحوه وأنا أنظر إليه، قبل أن أصله بخطوات لَمَحَني، ارتسمَت بسمةٌ صغيرة على سحنته، تباوَسنا وأحدنا ينظر إلى الآخر بشوقٍ عارم.

تمتم: ظننتُ بأنَّك لن تتمكَّن من المجيء.

قلت: تأخَّرتُ لأنَّني أتيت بباص النقل الداخلي.

شبكتُ كفّي بكفّه ومضينا في الطريق، كان الحزنُ بادياً على وجهه كأنه يرزح تحت حمل ثقيل رغم محاولاته التبسّم وهو يتحدَّث، أو حتى وهو صامتٌ عندما يصغي إليّ، أو ينظر في وجوه الناس.

ونحن نمضي في شارعٍ عريضٍ من السوق، قلتُ له بأننا سنذهب إلى بيتي.

هز رأسه بالموافقة، اتَّصَلتُ بزوجتي وطلبتُ منها أن تعدّ غداءً طيِّباً وسوف يأتي معي صديق قديم.

قال: منذ متى تزوَّجت؟

قلت: منذ خمس سنوات، ولم أنجب غير طفل واحد هو الآن في الخامسة من عمره. عندما ولد قلتُ لزوجتي بأنَّني سأسمّيه على اسم صديقٍ قديم لي في أيّام الطفولة.

قالَت: إذا كان الاسم جميلاً، لا بأس.

قلت: نيار.

قالت: جميل جدّاً.

عند ذاك وقَعَتْ نظراتي على بائع السوس الذي يرتدي ثياباً تراثيَّة، ويضع طربوشاً على رأسه، يصفق طاستَين ببعضهما لتُصدِرا نغمةً باتت معروفة ببائع السوس المتجوّل على قدَمَيه، وعندما اقتربَ منّا بحركاتِه الرشيقة، طلبتُ منه كأسين، ملأ لكلّ واحدٍ منّا كأساً من الإبريق النحاسي الكبير الذي شده على ظهره بواسطة حزام سميك.

في تلك اللحظات ونحن نحتسي السوس الذي تعلوه الرغوة، جاء أحد ظرفاء المدينة واسمه (ميخا)، وكان يقود دراجته الهوائية، توقَّف بجانب بائع السوس. طلب منه كأساً وهو يضحك ويداعِبه، وكان الرجل يستجيب لمُداعبته. ثم صارا يتمازحان بتبادل الشتائم، وبعد قليلٍ قال له ميخا: صارحني كل كم يوم تعمل؟ ويظهر أن الرجل فهمها منه فابتسم وقال: كل يوم مرّتَين.

كنا بعض الرجال نتحلَّق حول بائع السوس، فصدرت منّا بعض القهقهات المجلجلة، وعندما نظرتُ إلى نيار وأنا مستغرق في الضحك، رأيته هو الآخر يضحك ويضع كفّه على فمه.

قال ميخا: يخرب بيتك، كل يوم مرّتَين.

قال بائع السوس: لا يفوتني يوم واحد.

كان ميخا قبل زواجه يرتدي معطفاً طويلاً ويجوب طرقات وأزقَّة السوق، وعندما يرى فتاةً جميلة، يقترب منها ويفتح المعطف، يكشف لها عَن قضيبه، وقد عُرِف بهذه الحركة في المدينة، وأصبح اسمه يُردَّد بين الناس أكثر من اسم أيّ شخصٍ آخر في المدينة، حتى أن أحداً عندما يأتي إلى السوق، يُقال له عند عودته: هل رأيتَ ميخا؟ وامتدَّت شهرته إلى القرى أيضاً، فيتحدَّث أهالي القُرى عنه، وأحياناً يبحث القادم من القرية عنه حتى يراه لأنّه عندما يعود، يسأله أهل القرية: هل رأيتَ ميخا؟

وكان بعض الناس يتتبَّعونه عندما كانوا يرونه في السوق حتى يروا ردود أفعال الفتيات. عندما يكون ميخا رائِقاً يسمح للبعض أن يلتقطوا صوراً معه، فينهال عليه الناس وهم يلتقطون معه الصور في وضعيّاتٍ مختلفةٍ. ولكنَّه عندما لا يكون رائِقاً لا يسمح لهم، بل يُفاجئ الذي يقترب منه بصفعةٍ مدويةٍ على وجهه.

وكان ميخا الذي يُعرَف في المدينة بـ (النصف مجنون) عندما يسأله أحدٌ عن سبب قيامه بذلك، يقول: أبحث عَن امرأة تقبل أن تتزوَّجني.

وأحياناً كانت بعض الفتيات عندما يرينه في السوق، يتعمَّدن الاقتراب منه، فيبرز لهن عَن قضيبه فيتضاحكن ويبتعدن عنه.

في إحدى المرّات أبرز قضيبه لامرأةٍ. وقفتْ تنظر إليه تارةً وتارة إلى قضيبه وسألته: لماذا تفعل ذلك؟

قال: أبحث عن امرأة تتزوَّجني لأنني مثل كل هؤلاء الرجال لدي قضيب.

قالَت: أنا أقبل أن أتزوّجك.

قال له بائع السوس: بشرفك يا ميخا، أما يزال ينتصب معك؟

قال: إي ينتصب أكثر مما كان.

قال بائع السوس: لا أصدّق يا ميخا، لو كان ينتصب، هيا أبرزه كما كنتَ تبرزه.

ضحكَ ميخا وقال: لم أعد بحاجة إلى الزواج.

قال: قل الصدق يا ميخا، قل أنَّه لم يعد ينتصب معك، أمام الجماعة أقول لك بأنكَ إذا أبرزته منتصباً الآن لن آخذ منك ثمن كأس السوس.

فنزل ميخا في لحظةٍ عن الدرّاجة، مدَّ يده إلى سحّاب بنطاله وأبرز قضيبه المُنتَصَب، وانصرف يقود الدرّاجة.

❁❁❁

عند الانتهاء من شرب السوس، لفت نظري الحذاء المهترئ الذي يرتديه نيار، فعدتُ وشبكتُ كفّي بكفّه، مضيتُ به نحو بائع الأحذية، قلتُ له بأنّني أحتاج إلى حذاء وأريده أن ينتقي لي حذاءً على ذوقه. صار يمرّر نظراته على الأحذية المُعلَّقة داخل المحل حتى انتقى حذاءً وقال: هذا.

قلت: كم مقاس قدمك يا نيار؟

قال: لماذا تسأل؟

قلت: هذا الحذاء لك.

بدا عليه حَرَجٌ شَديدٌ وقال وهو يخرج من المحل: لا يلزمني حذاء، لنذهب إلى البيت.

مضيتُ نحوه وقلت: هذا الحذاء هديَّتي لك يا نيار، هل سترفض هديَّتي؟

عند ذاك عاد إلى المحل، ارتدى حذاءً على مقاسه، وضعتُ الحذاء القديم في كيسٍ ورميته في أوَّل حاوية قمامة رأيتها.

قلت: ألا تحتاج شيئاً قبل أن نذهب إلى البيت.

قال: لا يا صديقي.

قلت: أرجوك لا تنحرج، أي إنسانٍ مهما كان موقعه يمكن له أن يتعرَّض لأزمة، حتى لو كان رئيساً للبِلاد، يمكن بين ليلةٍ وضحاها أن يُصبح مُطارَداً. هذه أمور واردة، وربما بعد فترةٍ ولظرفٍ ما تنقلب أموري، وألجأ إليك، وتكون أمورَك ممتازة. هل تعتقد بأن هذا مستحيل؟

نظر إليَّ وقال: صدقني لا يلزمني شيء.

أشرتُ لسيارة أجرة، وعندما توقَّفَت، طلبتُ منه أن يجلس في المقعد الأمامي بجانب السائق، رفض ومدّ يده على الفَور إلى مقبض الباب الخلفي، فتحه وجلس، جلستُ بجانبه في ذات المقعد، وانطلق بِنا السائق في طريق البيت وبين حينٍ وحين يرمقنا من المرآة الرفيعة المُثبَّتة داخل السيّارة وهو يعبث بمؤشّر راديو السيارة حتى استقرّ على أغنية لفريد الأطرش: (يا زهرة في خيالي رعيتها في فؤادي،

جنت عليها الليالي وأذبلتها الأيادي، وشغلتها العيون فمات سحر الجفون).

لبث نيار صامِتاً ينظر إلى الأمام، كان وجهُه مُحتَقِناً بعمق، رغم أن ذاك الوجه السَموح لم يكن يليق به الاحتقان. اغرورقَت عيناه بالدموع مع سماع الأغنية: (هي غرامي كل شيْ ضاع مني فنزعت الحب من قلبي وروحي، ووهبت العمر أوتاري ولحني وتغنيت فداويت جــروحي).

قال: أتعرف يا بهاء بأن الحب هو أجمل ما في الحياة. ثم بلع ريقه وقال: والكره هو أقبح ما فيها.

عند نزولنا من السيارة، جفّفَ دموعه بباطن كفّه، ومضينا إلى البيت، رحَّبَتْ به زوجتي بشيءٍ من الحفاوَة.

اتَّجهتُ به إلى الغرفة التي فيها مكتبة البيت. تقدَّم ينظر إلى الكتب، قال: للأسف لم أجد وقتاً كافياً لأقرأ بشكلٍ جيِّد، مكتبتي في البيت فقيرة جداً.

قلت: مِن حسن حظّي أنَّني تزوَّجتُ امرأة مهووسة بقراءة الكتب، بعد زواجنا اكتشفتُ بأن المرأة التي تقرأ، نعمة. لا تتصوَّر كم أشعر بنشوةٍ عندما أراها تقرأ وتستمع إلى الموسيقى الخافتة، فأحمل كتاباً وأجلس إلى جانبها، أقرأ وأسمع.

عندما أرجع إلى البيت وقد اشتريت كتاباً جديداً، أشعر بأنني جلبتُ كنزاً إلى البيت. لا أغبط أحداً قدر غبطتي لشخص يمضي نحو البيت وقد اقتنى كتاباً جديداً سوف يستمتع بقراءته كلمة كلمة، صفحة صفحة،

سوف يتجوّل في طرقاته طريقاً طريقاً، وهو يمسك بقابَي الكتاب ككنز ثمين.

لم أندم على شيءٍ يا نيار بقدر ندمي على السنوات التي مضت من عمري ولم أقرأ فيها، لذلك أحاول قدر الإمكان أن أعوّض ما فاتني. قراءة الروايات تغريني أكثر، كلّما أفتح رواية لأقرأها أشعر بأنّني أفتح مرآةً وأنظر فيها على نفسي.

بعد جلوسِنا بقليلٍ قلتُ وأنا أنظر إليه: عندما تعبس في وجه الدُنيا، لا تلمها إن عَبَسَت هي أيضاً في وجهك.

شبك أصابع كفَّيه ببعضِها وقال: هو عبوسٌ داخلي أكثر مما هو عبوسٌ في الظاهِر، بعض الآلام تكون أقوى منّا يا صديقي، تفشل كل محاولاتنا في إخفائها.

قلت: أبواب الحياة الجديدة لا تنغلق في وجه أحد إذا مدَّ الخطوات إليها، كن أقوى من ذلك يا نيار، لا أعتقد أن هناك مشكلة في العالم غير قابلة للحل. كل ما في الأمر ببساطة شديدة: كما أن المَسَرَّات هي جزءٌ من الحياة، فإن المُنغِّصات أيضاً هي جزءٌ منها. إذا أردتَ أن تخلو حياتُك من المُنغِّصات، عليكَ أن تقبَل بأن تخلو مِن المَسَرَّات أيضاً. المسرّات هي عينكَ اليُمنى، والمُنغِّصات هي عينك اليُسرى، تكون نظرتك ثاقِبة وأنتَ تنظر بهما معاً، بدون أحدهما ستنظر بعينٍ واحِدة.

المسرّات هي قدمك اليمنى، والمنغّصات هي قدمك اليسرى، تكون خطواتك واثقة وأنتَ تمشي عليهما معاً، بدون أحدهما ستمشي على قدمٍ واحِدة.

رفع وجهه ينظر إليَّ، فقلت: الحياة مبنيَّة على أساس التقلّبات، لا أحد فيها يبقى ثابتاً. عدم وجود التحوّلات في الحياة يا نيار يجعلنا متقوقعين وخاملين. التحوّلات الاهتزازيَّة الكُبرى هي التي تجعلنا نبقى على تماسٍ مع الحياة ونحتكّ بها أكثر.

على كل حال هي تحوّلات فقط، ولا دوام لها، علينا ألّا نسمح لها بأن تستدرجنا إلى اليأس حتى وهي في ذروة تصاعدها.

لبثتُ أنظر إلى نظراتِه إليَّ وقلت:

أحياناً وفي ظروفٍ ما، قد يشيع اللؤم في المجتمع حتى يبدو اللئيم هو الغانم الوحيد، والفاضل هو المهزوم الوحيد، ولكنَّها مرحلة انتقاليّة حتى يتجاوَز المجتمع تلك الظروف السوداوية الطارِئة.

في تلك الظروف ينتشر اللئام كالأوبئة في المجتمع حتى يكادوا يسودوا ويتحكَّموا بغالبية مفاصل الحياة، لأن كل لئيمٍ يجد الفرصة مُتاحة كي يفصح عن معدنِه اللئيم ويمارس لؤمه على مَن يتمكَّن منه.

مددتُ يدي إلى إبريق الماء، صببتُ كأساً، ناولتها له.

ارتشف نصفها ووضعها أمامه. قلت: أحياناً يرتفع اللئيم لا ليرتفع، بل يرتفع حتى يقع بقوَّة من ارتفاعِه، يتمكَّن لا ليتمكَّن، بل يتمكَّن حتى يلقى الضربة الماكِنة وهو في ذروة تمكّنه.

عند تلك التحوّلات الكُبرى عليكَ أن تتشبَّث بنقائك أكثر من أي وقتٍ مضى، وسوف يُذيقكَ النقاءُ لذَّة مِسكِه أكثر من أي وقتٍ مضى، ومع شيءٍ مِن الصَبر يُريكَ كيف يتهاوى اللَّئيمون واحداً تلو الآخَر، لأن لا

مستقبل للّؤم يا صديقي، المستقبل كلُّه للنقاء، مَهما بَدا النقاءُ في محنةٍ، ومهما بدا اللّؤمُ في سعة.

رفع كفَّه يفرّك بالسبّابة والإبهام ما تحتَ عينَيه، مسح على جبهته، ثم صار يفرّك كامل وجهه، فقلت وأنا أنظر إلى حجم الغمّ على وجهه:

اغتَنم الشدَّةَ يا صديقي لتُدَرِّبَ نفسكَ في مِحرابِها على الصَبر، إنَّها فرصتُكَ الذهبيَّة الثَمينة التي قَد لا تُعوَّض.

كن على ثقة بأن المستقبل هو للإنسان الطيِّب وليس للإنسان الخَبيث، الحياة الجميلة هي من حظ الإنسان الطيِّب، وليست من حظ الإنسان الخبيث.

في كل الظروف يا نيار تبقى الحياةُ مُتجدّدةً، وقابلةً أن تُجدّد الإنسان، قابلة أن تُقدّم إليه الجَديد الذي يتوقّعه، أو لم يكن يتوقّعه.

لمحتُ بسمةً شاحِبة افترَّت على شفتَيه وهو ينظر إليّ نظرةً عميقة، تشجَّعت وقلت: أناشدك بحق الصداقة التي بيننا أن تقول لي سبب كل هذه الكآبة التي أنتَ بِها.

لبث نظره معلَّقاً بي وبعد قليلٍ من الصمت، قال: ما أقوله لك لم يسبق لي أن قلته لأحد ولم يخطر ببالي بأنِّي ذات يومٍ سأقوله لأحد.

أسبل جفنَيه إلى الأسفل وتمتم: كان ذلك عندما بدأتُ ألاحظ أن زوجتي تُكثر من زيارة بيت أختها المتزوّجة في منطقة تبعد عن بيتنا حوالي ربع ساعة مِن المشي.

ذات يوم وهي غائبة عَن البيت، زارني زميلي في العمل (تيسير) مع زوجته في زيارة عائلية مفاجِئة، قال بأنه جاء إلى الحي لعيادة مريض

من معارِفه، وبعد أن انتهى من الزيارة تذكَّرَ بأنَّني أسكن في ذات الحي، وخطر له أن يفاجئني بزيارةٍ سريعة.

رحَّبتُ بهما واتَّصَلتُ بزوجتي، وطلبتُ منها أن تأتي.

في تلك اللحظات تذكَّرتُ كثرة خروجها من البيت، لا أدري كيف خرجتُ متَّجهاً صوب بيت أختها لأقطع الشكّ باليقين، وقفتُ في مدخل الشارع أنظر إلى الباب الذي ستخرج منه.

وأنا واقفٌ فوجئتُ بهاتفي يرنّ، واسم زوجتي يظهر على الشاشة، ظننتُ بأنّها ستعتذر عن المجيء لظرفٍ طارئ قد حصل، لكن صوتها اندفع إليّ: أين أنت يا نيار؟

قلت: أين أنتِ؟

قالت: في البيت.

أغلقتُ الخط وأنا أنظر إلى باب بيت أختها المغلق، وعدتُ أدراجي إلى البيت، وقبل أن أصل عرجتُ إلى دكّانِ جارنا (حمزة) في الحارة، اشتريتُ قالباً مِن الكيك، دخلتُ البيت وأعطيتُ القالب لزوجتي، ثم اتَّجهتُ على الفَور إلى الضيفَين، بعد قليل أحضرَت زوجتي إبريقاً من الشاي مع قطع مِن الكيك.

يومها بدأتْ رحلتي مع العبوس، وكان زميلي تيسير هو أوَّل مَن يسألني عن سبب العبوس، فقلتُ له بأنني مرهق.

بعد خروجهما لمحتُ شيئاً غريباً على زوجتي وهو أنَّها بدأت تنظر إلى احتقان وجهي وتضحك.

تساءلتُ في نفسي: كيف تضحك وهي ترى زوجها محتقناً.

اتَّجَهتُ إلى غرفةٍ أخرى، تمدَّدتُ على اسفنجة، والاحتمالات تنهش رأسي: أين كانت.. لماذا كذبت عليّ؟

بعد قليل رأيتها تدخل، ترمقني شزراً وتضحك، وكلّما ازددتُ احتقاناً، ازدادت ضحكاً.

أردتُ أن أنهض وأصفعها بقوّة، لكنني تمالكتُ نفسي وقلت: دعيني لوحدي يا غدير.

نَظَرَتْ إليّ كما لو أنَّها صُدِمَت، بعد قليلٍ خرجتْ من الغرفة بعصبية وهي تهمهم بشيءٍ لم أفهمه.

أردتُ أن أقاطِعه وأقول: كان ذلك كافياً كي تأخذ منها الموقف الحاسِم، لكنَّه أردف يقول: بعد قليل ناديتُ بهيَّة ذات السنوات العشر، وهي ابنتي الوحيدة التي لم تنجب زوجتي بعدها.

جاءت بوجهٍ ثقيلٍ أثار استغرابي، قالَت بفتور: ماذا تُريد؟

قلت: سلامتك يا بنَتي أردتُ أن أطمئنَّ عليك.

فأدارت ظهرها وخرجَت. وكانت قبل ذلك كلّما تراني تهرع إليّ وتُقبّلني، وعندما أكون جالِساً تأتي وتجلس بجانبي.

تخيلتُ باب أخت غدير المُغلَق، أردتُ أن أتهرَّب من أفكارٍ أخذت تُراودني. كالذي رأى شيئاً بعينَيه ويوهم نفسه بأنَّه لم يره، سمعَ شيئاً بأذنَيه ويوهم نفسه بأنَّه لم يسمعه.

عندما حان وقت العشاء، أعدَّت الطعام على المائدة، لكنَّها لم تجلس، ولم تدع ابنتي أيضاً تجلس، أكلتُ لوحدي ببرود ودون شهيَّة قطعة جبن مع كأسٍ من الشاي، ورجعتُ إلى ذات الغرفة.

بعد أسبوعٍ تجهَّزَتْ للخروج قائلةً بأنَّها تُريد أن تزور أختها، فمنعتها من ذلك، رفعتْ صوتها وقالت بأنني أعامِلها كعبدة وأتمنَّن عليها بالسّكن في بيتي، وأنني قاطع رحم.

أوبختُ نفسي على ما أفعل لأن ذلك يعني بأنّني أقبل العيش مع امرأة خانتني، أو على الأقل أشكّ بأنّها تخونني وما أفعله هو أنّني حجرتُ عليها كي أمنعها من الاستمرار في خيانَتي. وأمام مواجهة هذه الحقيقة، قرَّرتُ أن أدعها تخرج وأُراقبها لأتحقَّق مِن المكان الذي تذهب إليه بدلاً عن بيت أُختها.

أخذتُ إجازةً مِن عملي في مديريّة الزراعة واتفقتُ مع سائق تكسي أن يأتي صباحاً، ينتظرني في مدخل الشارع. قلتُ لغدير بأنَّها يمكن أن تخرج اليوم لزيارة بيت أختها، وخرجتُ من البيت على أنّني ذاهبٌ إلى العمل، رأيتُ السيّارة واقفة، فتحتُ الباب الخلفي، ألقيتُ السلام على السائق الذي كان يدخّن، وجلستُ بانتظار خروجها.

فُتِح الباب وخرجت ابنتي وهي تعلّق حقيبتها على ظهرِها لتذهب إلى المدرسة، وخرجت غدير معها، لبثتْ واقفة تنظر إليها حتى مالَت إلى الشارع الفرعي.

نظر إليَّ السائق وهو يعلق السيجارة في زاوية فمه، فقلت: انتظر.

بعد نحو ربع ساعةٍ فُتِحَ البابُ مرَّةً أُخرى وخَرَجَتْ غدير، أغلقَت الباب خلفها ومضت في الشارع. أشرتُ للسائِق أن يتتبَّعها على مهلٍ، رمقني بريبٍ وأدار مُحرك السيّارة. مضينا خلفها عَن بُعد وهي تمشي وتنظر حولها حتى وصَلَتْ إلى باب بيت شخصٍ يعمل صائغاً ويعيش لوحده بعد أن طلَّقَ زوجته السنة الماضية.

وَقَفَتْ قليلاً تنظر إلى الشارع يمنةً ويسرةً، دفعت الباب الذي كان مواراباً، دَخَلَتْ وصفَّقته خلفها.

أنقدتُ السائق أُجرته ونزلتُ من السيارة، فانصرف يقود بتقليعةٍ سريعة.

تقدَّمتُ إلى الباب وأنفاسي تتسارَع غيظاً، دفعته بكفّي، كان مُقفلاً مِن الداخل، أردتُ أن أدفعه بقوةٍ، أحطِّمه وأدخل، أقتلهما بيدَي.

في تلك اللحظات قفزتْ صورة بهيَّة إلى مخيّلَتي وهي تصرخ: لا يا بابا هكذا ستدمّر حياتي، سأبقى طوال عمري والناس يعيرونني، يقولون لي: ابنة الخائِنة. أنتَ لن تخسر شيئاً، لكنني سأخسر كل شيء.

تراجَعتْ بي خطواتي إلى الوراء ودمي يغلي في عروقي، كانت أسوأ اللحظات التي مرَّت عليّ في حياتي، لم يخطر في بالي قط بأنّني ذات يومٍ سأوضَع في هذا الموقف المُحرِج. وقفتُ في زاويةٍ بجانب عمود كهرباء أرمق الباب من بعيد. تمتمتُ في قرارة نفسي: ليس من حقّك أن تقتلها لهذا السبب التافه، هذه امرأة، إنسانة، مَن أنتَ لتحرمها من حياةٍ كاملة بطولِها وعرضها. حياة جميلة وممتعة بكل ما فيها. يمكن لك أن تتقبَّل الأمر وكأنّك لم تر شيئاً، أو لا تتقبَّله وتنفصل عنها، ولا يحقّ لك

أن تجرحها أو تشهّر بِها، لأنّك إذا أخبرتَ أهلها، ستكون قد حرَّضتهم على قتلها، وجريمتك ستكون أعظم لأنَّك تكون قد استدرجتَ شخصاً لقتل شخصٍ آخر كما لو أنَّك ابتعتَ مسدساً ووضعته في يده ودفعته إلى القتل.

انتظرتُ نحو ساعة وأنا أفكّر حتى رأيت الباب ينفتح ويقطع شريط أفكاري، خرجتْ بشيءٍ من الحذر تنظر إلى الشارع. تقدَّمتُ إليها، ولمّا رأتني جفَلَت وتلعثمَت الكلِماتُ في فمِها.

قلت: كان عليّ أن أقتلك وأقتل ذاك الوغد معك، لكن ابنتي منعتني، وأيضاً لم أستطع أن أمنح لنفسي هذا الحق، اذهبي أنت طالق، ولا أريد أن أرى وجهك بعد الآن.

نظرت إليّ بوجهِها الممتقع وانصرَفَت دون أن تتفوَّه بكلِمة واحِدة. عدتُ إلى البيت، وانتظرتُ ابنَتي حتى عادَت من المدرسة، وعندما سألتني عن أمّها قلت بأنّها سافَرت.

الفصل الرابع
التحرش

بعد يومَين، طُرِقَ الباب وكان الوقتُ مساءً، سارَعَتْ ابنَتي بفتحه، وبعد قليلٍ عادت تقول بأن بعض الرجال يسألون عني.

خرجتُ وإذ بدورية شرطة تقف أمام الباب. قال أحدهم: أنتَ نيار؟

قلت: نعم.

تقدَّمَ آخر، قيَّد يدَي بسرعةٍ رغم بعض المقاومة منّي وأخذوني إلى مركز الشرطة، وضعوا هاتفي في مقسم الاستعلامات، وعلى الفَور اقتادوني إلى مكتب رئيس المركز الذي كان يضع على كل كتفٍ ثلاث نجمات.

فور دخولي قال: أليس من العَيب عليك أن تحاول اغتصاب صديقة زوجتك في بيتك وأمامَها، وأنتَ أب لطفلة بعمر الزهور؟!

قلت: أنتَ مخطئ يا سيادة الضابط؟!

رفع نظره إليّ فبدا الحد الفاصل بين منخاريه بارِزاً، وقال بتهكّمٍ واستخفاف: تمام انتهى كل شيء يا حضرة المهندس، عد إلى بيتك نحن نعتذر. هذا ما تريد أن أقوله لك، أليس كذلك؟

ثم قهقه وهو يخبط كفّاً بكف.

قلت: هذا اتِّهام بلا دليل.

هزّ رأسه إلى الأسفل، مطّ شفتَيه إلى الأمام، امتدَّت سبابته، ضغطت على زرٍّ، أصدر البابُ صريراً وفُتِح على إثره، ظهر شخصٌ يرتدي بدلة شرطة، ألقى تحية له قائلاً: أمرك سيدي.

حرَّكَ سبّابته له دون أن يتكلَّم: أمرك سيدي. قالها الشرطي مرَّةً أُخرى وتراجعَ خارِجاً وهو يغلق الباب خلفه.

نظرتُ إلى الضابط الذي كان بدوره ينظر إليّ وهمهم: اتِّهامٌ بلا دليل أليس كذلك؟

قلت: نعم.

سنرى. قالها وفي تلك اللحظة فُتِحَ الباب وفوجئتُ بدخول طليقَتي غدير وصديقتها مرام. وهي أيضاً امرأة مُطلَّقة كانت تزورها بشكل متقطّع بين فترة وأخرى. كانَت تبدو امرأة غريبة، أحياناً كنتُ أسمع صوتاً غريباً ينبعث في البيت يشبه نعيق الغراب، وأحياناً كنتُ أخرج إلى الحوش ظانّاً بأنَّ غراباً قد حطّ على أحد جدران البيت. فتخرج غدير وتقول بأنّه صوت صديقتها مرام وهذا الصوت يصدر منها لا إراديّاً عندما تكون في حالة غضب. والأمر الآخر أنَّ جسدها في تلك الحالة كانَ يفرز رائحةً كريهة تملأ الغرفة، فعندما كانت تخرج، كانت تلك الرائحة تبقى في البيت نحو ساعة رغم فتح الباب والنافِذة وتشغيل مروحة السقف، ورشِّ البيت بعطرٍ ملطّفٍ للجو.

بعد لحظاتٍ من دخولها، دخل رجلٌ وبيده كرّاس كبير الحجم، ألقى التحية على الضابط، سحب كرسيّاً إلى زاويةٍ من طاولة الضابط، فتح الكرّاس على صفحةٍ بيضاء، سحبَ قلماً كان يبرز من جيب سترته، وضع

مرفقَيه على الطاولة، ودوَّن على الصفحة شيئاً. إذ ذاك جاء صوت الضابط موجِّهاً كلامه للمرأة: تكلَّمي يا سيِّدة مرام، ماذا حصل؟

هزَّت منكبَيها وقالت: كنت منذ ساعتَين في زيارةٍ لصديقتي غدير، وفجأة اقتحم زوجُها علينا الباب، هدَّدَني إمّا أن يعاشرني بموافقتي، أو بالقوّة. تسمرت نظراتي على فيها الذي تخرج منه الكلمات، فأردفت تقول: عندما أرادَت زوجته أن تمنعه، هدَّدَها بالطَلاق والطرد من البيت. سكتت المسكينة، لكنني أخت الرجال، قاومته أكثر من ساعة وهو يتحرَّش بي دون أن يتمكَّن مني، في النهاية يئس، بصق عليّ وخرج وهو يسبني ويسب زوجته.

قالَت ذلك وأخرجَت له بعض الصور عليها آثار الخدوش في جسدِها، مع تقرير طبّي يؤكّد الخدوش ودرجاتها على مواضع الجسد.

قال الضابط موجِهاً كلامه إلى غدير: هل كانت ابنتك موجودة في البيت؟

قالَت: كانت موجودة في البيت، لكنَّها كانت في غرفتِها.

رفع سماعة الهاتف، طلب إحضار الطفلة على الفور.

عندما دخلت، قال لها الضابط: ما اسمكِ؟

قالت: بهية

أشار إليّ وقال: مَن هذا؟

قالَت: أبي

أشار إلى غدير وقال: مَن هذه؟

قالَت: أمّي

أشار إلى مرام وقال: مَن هذه؟

قالَت: خالة مرام، رفيقة أمّي.

قال: أين كنت مساء هذا اليوم يا بهية؟

قالت: في غرفتي في البيت

قال: لماذا؟

قالت: لأن أمي كانت مسافرة عمو، وكنتُ حزينة عليها.

قال: مسافرة إلى أين؟

قالت: لا أعرف، أبي قال بأنها مسافرة اليوم، وذهبتُ أجلس في غرفتي أدرس وأبكي عليها.

أرادت غدير أن تتكلَّم فمنعها الضابط وهو يرفع كفّه، ضغط على زرٍّ فظهر شرطيّ، أومأ له أن يأخذ الطفلة.

أشار لغدير أن تتكلَّم، فقالَت: أرأيت يا حضرة الضابط كيف أنه كذب على الطفلة حتى لا ترى جريمته بحق صديقتي ولا تكون شاهِدة عليه، قال لها بأنني مسافرة، في الوقت الذي كنتُ فيه داخل البيت مع صديقتي، ولم يسبق لي أن سافرت منذ أن تزوجنا، كيف أسافر لوحدي، وإلى أين؟ الحمد لله أن الطفلة البريئة كشفت الحقيقة.

قال لي الضابط: أمام كل هذه الأدلة والشواهد هل ستلف وتدور مرة أخرى يا نيار أفندي، أم تعترف بالحقيقة في إفادتك.

نظرتُ إلى غدير التي ما إن التقَت أنظارُنا حتى طأطأت رأسها وصارت تنظر إلى الأرض. كم رغبتُ فيما لو رفعَت عينَيها إليّ، حتى تقول عيناي لعينَيها ما هو أبلغ من أي كلام، لكنَّها لم تفعل ذلك.

بعد قليلٍ رفع الضابط سماعة الهاتف وطلب من أحد عناصره أن يأخذ غدير والطفلة إلى البيت، ويوصل مرام أيضاً إلى بيتها.

قلت: هذا كله افتراء، ولم يحصل شيء من كل ما قيل.

صمتَ قليلاً وهو ينظر إليّ ثم قال: أنت حر، على كل حال سنكتب ما تقوله في إفادتك دون إضافة أو حذف كلمة منها. وغداً سأرسلك مع الإضبارة إلى القاضي ويكون دوري انتهى.

مدَّ سبابته، ضغط على زرٍّ وقال: من المفترض أن أضعك الآن في الزنزانة حتى صباح الغد، ورغم أنك لا تستحق الاحترام لأنك تحرَّشتَ بضيفة داخل بيتك وكذبتَ على ابنتك بادّعائكَ أن زوجتك مسافرة، لكن سأضعك في مكتب فيه أريكة مريحة يمكن أن تتمدَّد عليها حتى الصباح.

فُتحَ الباب، وتقدَّم عنصر إليّ، أخذني إلى مكتب لم يكن فيه أحد، جلستُ على الأريكة مُقيَّد اليدَين، بعد قليلٍ تمدَّدتُ على ظهري، تعلَّقَتْ نظراتي في السقف، هكذا كما لو أنّني في حلم، رأيتني مُجرَّداً مِن كل شيء.

في غمرة ذلك تناهى إليّ رنين هاتفي من المقسم، الرنين الذي ثبَّتته منذ سنوات وأرتاح له، الرنين الذي كان يحمل لي النشوة كلّما تناهى

إليّ، كذلك غدير تقول: نيار هاتفك يرن. وابنَتي تهرع إليه وتحمله إليّ عندما يرنّ ويكون بعيداً عنّي، تقول: بابا.. بابا.. الهاتف.

يتناهى الرنين، ولا أحد يقول شيئاً، لا أحد يحمله إليّ، لا أستطيع أن أذهب لأجلبه كي أردّ.

تُرى مَن الذي يريد التحدّث معي الآن؟ ما الذي يحصل في الخارج، وزملائي في العمل ماذا سيقولون عندما لا يرونني غداً، عندما يسألون غدير، ما الذي ستقوله لهم، وابنتي عندما تسأل عن غيابي ما الذي ستقوله لها، أمّي، أخوتي، أقربائي، جيراني، تُرى ما الذي سيحصل لي وقد صرتُ في هذا المأزق؟

لا أدري كيفَ غفوت تحت وطأة هذه الخواطِر، ورنين الهاتف بين حينٍ وحين يتناهى إلى سمعي.

في الصباح استفقتُ عندما نقر شخصٌ على كتفي، ودعاني للنهوض، مضت حوالي ساعة وهم يعدّون بعض الأوراق حتى أخذوني مع بعض الأشخاص الموقوفين مثلي بسيارة شرطة إلى المحكمة.

اقتادونا إلى بهوٍ مزدحمٍ بالناس رجالاً ونساءً قبالة مكتب أحد القضاة. وأنا أنظر إليهم، خطر لي أن هؤلاء لماذا يكونون هنا، ومن المفترض أن يكونوا على رؤوس أعمالِهم الآن.

بعد نحو ساعتَين نادى الشرطي الذي يقف على باب مكتب القاضي باسمي، تقدَّمتُ إليه، طلب بطاقتي الشخصية كي يتأكَّد، ثم أدخلني إلى القاضي.

عند دخولي، رأيتُ القاضي يتصفَّح إضبارَتي، ألقيتُ عليه السلام، ولم يجبني. بعد لحظاتٍ قال دون أن يرفع رأسه عَن الاضبارة: أنتَ شرعتَ باغتصاب ضيفة مُطَلَّقة في بيتك. قالها بلسانٍ رطبٍ أوحى ليّ بأن فمه مليء باللعاب.

أردف يقول: زوجتك تشهد على ذلك، هذا تقرير طبي يثبت الخدوش، هذه صور لأماكن الخدوش التي نتجت عن مقاومتها وهي تمنعك من الاعتداء عليها.

توجد إفادة لابنتك الطفلة تقول بأنَّك أرسلتها إلى غرفتها وقلت لها بأن أمّها مسافرة، ولم تكن مسافرة.

رفع رأسه، زجرَني بنظرةً وقال: هل كانت زوجتك مسافرة؟

قلت وأنا أحدّق في وجهه الذي كان مُنتفخاً بشكلٍ غريب: لا، لكنها كانت خارج البيت.

قال بلسانه الذي ازداد رطوبةً مع الكلام: لماذا كانَت خارج البيت، أين كانَت؟

قلت: كانت في بيت أهلها خلال اليومين الماضيين؟

مضغ لعابه وقال: هل لديك دليل على ذلك؟

قلت: أطلب شهادة أحد أخوتها الذين يعيشون في البيت.

كتب شيئاً بالقلم الأحمر على أسفل الصفحة الأولى من الإضبارة، ضغط على زر فدخل شرطيٌ من ذات المركز الذي جلبني، وأخذني إلى ذات البهو بانتظار ما قد كتبه القاضي.

في هذه الأثناء ونحن ننظر إلى باب القاضي وإلى الشرطي الذي يقف أمام الباب، انطلقت صرخةٌ مدويّةٌ وسط جموعنا وإذ بشخصٍ أصيب بنوبة صَرَع، غذا ينتفض على البلاط مثل سمكةٍ كبيرةٍ أُخرِجَت لتوّها من الماء، وبين لحظةٍ وأُخرى يطلق صرخةً. احتشد الناس حوله ففرَّقهم رجال الشرطة الذين أتوا يُهرولون، وبعد قليلٍ تهامسوا فيما بينهم، ثم حملوه وذهبوا بِه.

بعد نحو ساعةٍ دخل الشرطي إلى القاضي وأحضر بعض الأضابير ومنها إضبارتي، قرأ ما كتبه القاضي، وهزَّ رأسه قائِلاً: أنت موقوف.

انتظرنا حتى نهاية الدوام في الفسحة المُقابلة للغرفة، عند ذاك رأيتُ القاضي يخرج من مكتبه حاملاً بيده حقيبة ومضى في ردهة المكان حتى اختفت قامته القصيرة، عندها لَملمَ عناصر المركز الأضابير وأعادوني بذات السيارة مع بعض الموقوفين إلى مبنى المركَز.

قادني أحدهم إلى غرفة الزنزانة الصغيرة، وما لبث أن فتح بابها المقفل بالمُفتاح الذي كان بيده وأدخلني دون أن يتكلّم، ثم أعاد قَفل الباب.

❁❁❁

كان هناك شخصٌ واحدٌ في الزنزانة، منقوف الجسد كما لو أنّه هيكل عظمي، يرتدي ثياباً رثَّة، وبدا لي أنَّه يعاني من خلل عقلي، فعندما رآني، طلب مني سيجارة، قلت بأنني لا أحمل الدُخان. صار يدور حولي على شكل دائِرة ويتمتم بكلماتٍ مبهمة لم أفهم منها شيئاً.

بعد عدَّة دقائِق من ذلك، اتَّجهتُ إلى إحدى زوايا الزنزانة، وراح هو الآخر يجلس في زاويةٍ وما يزال يتمتم.

كانت الزنزانة خالية من أي فرش، فقبعتُ على الأرض الإسمنتيّة، تدثّرتُ بثيابي، وأسندتُ ظهري إلى الحائِط شارداً بِما يحصل معي، وبين حينٍ وآخر أنتبه إلى حركاتٍ تصدر بغتةً من الشخص، وأحياناً تصدر منه أصوات، أو ينهض ويتَّجه إلى طاقة الباب الصغيرة التي عليها قضبان معدنية قوية، يلقي من خلالِها نظرات إلى الخارج، يحرّك إصبعَيه السبّابة والوسطى وهو يقرّبهما إلى فمه لأحد العناصر في إشارةٍ بأنَّه يريد سيجارة، دون أن يُستجاب له.

لا أدري كيفَ أخذتني غفوة حتى سمعتُ شرطيّاً ينادي بي كي أخرج وهو يفتح الباب، أعادوني بذات سيارة البارحة إلى ذات القاضي.

بعد دخولي بقليل، دخل (أجاويد) أخو غدير الذي هو بعينٍ واحدةٍ، بينما عينه الأُخرى لا تنفتح رغم المحاولات العديدة في أخذه إلى الأطباء كما علمتُ بعد زواجي من غدير. فقد ولد وعينه اليُمنى كانت مُغلقة. في البداية ظنّوا بأنَّها ستنفتح بعد عدّة أيام، ولكنّها بقيت مُغلقة وأمّه تحاول أن تفتحها لكن دون جدوى. وعندما أخذوه إلى الطبيب، قال بأنَّه لا يستطيع أن يفتحها، وربما عندما يكبر ستنفتح، ولكن مضت السنوات وهم يأخذونه إلى الأطباء دون جدوى حتى فقدوا الأمل في فتحها. فوجئ بي لحظة دخوله وصار يحدّق إليّ بعينه الواحِدة، وعندما استفسر من القاضي عَن سبب حضوره، قال بأنني طلبته للشهادة، فأدركتُ في تلك اللحظات بأنَّه لا يعلم شيئاً عن طلاقي لأخته.

أراد التحدّث معي، لكن القاضي مَنَعه وطلب منه بسرعةٍ أن يحلف على المصحف الذي كان على الطاولة بأن يقول الحق.

ففعل وهو ينظر إليّ مذهولاً، وبدا لي أنّه حتى تلك اللحظة لم يعلم سبب مجيئه إلى المحكمة وعن أي شيءٍ سوف يشهد، ولم يكن يعلم بأنني موقوف.

بعد أن حلف على المصحف، قال له القاضي: متى زارتكم أختكَ غدير آخر مرة في البيت؟

قال: منذ عشرة أيّام.

عندها أشار له القاضي بالانصراف، ثم رمقني بنظرةٍ أوحت لي بأنني أريد التحايل عليه وخرجتْ من فيه كلمات أوبخني بها: قلتَ بأنَّها كانت في بيت أهلها، وطلبتَ الدليل، استجبتُ لك حتى لا تقول بأنّني ظلمتك، وأنا مستعدّ أن أستجيب لأيّ مطلبٍ آخر منك قبل أن أكتب قراري.

أحسستُ بأن لساني توقَّفَ عن الحركة، ولم أعرف ما الذي سأقوله للقاضي، لكن شعرتُ برغبة جامحةٍ فيما لو بصقتُ في وجهه، وانهلتُ عليه بالصفعات والتوبيخ.

عند ذاك كتب شيئاً في الإضبارة وأشار لي بظاهر كفّه الأخرى بالانصراف.

خرجتُ إلى ذات الركن، وبعد نحو نصف ساعة جلب أحد العناصر إضبارتي وصار يقرأ ما كتبه القاضي، لكنه لم يخبرني بشيء. وبعد انتهاء الدوام اقتادوني إلى السجن.

وأنا في ذروة استماعي إليه، أرسلتْ لي زوجتي رسالة بالواتس آب، تقول بأن الطعام باتَ جاهِزاً. أجبتها على الفور وأنا أستمع إلى صديقي بأن تؤجّل دخوله إلينا حتى أخبرها برسالة.

قال: كان المهجع في السجن كبيراً تحيط به أسرَّة بطابقَين. فتَّشوني بشكلٍ دقيقٍ، ثم أعطوني سريراً. بعد قضاء شهرَين في السجن، ذات يوم فوجئتُ بسماع اسمي في الميكرفون بأن لدي محاكمة، وعليّ أن أجلب معي بطاقة السجن وأذهب إلى مكتب المراجعات في السجن.

أخذتُ البطاقة مِن رئيس المهجع، واتَّجَهتُ على الفَور إلى المكتب. رأيتُ هناك عنصرَين من قسم الشرطة ينتظرانني، وبعد بعض الإجراءات، أخذاني إلى سيارة المركز، وانطلقنا إلى قاضٍ آخر في المحكمة للتحقيق مرةً أخرى كي يُصدر الحكم النهائي عليّ كما قال لي أحد العنصرَين.

عندما وصلتُ إلى الساحة التي ينتظر فيها الناس، رأيتُ غدير مع صديقتها مرام، انتظرنا وبين وقتٍ وآخر أنظر إليها، وتنظر إليّ.

بعد نحو ساعة من الانتظار دخلنا معاً إلى القاضي. وعلى عجل طَلب من مرام أن تقسم بالمصحف الذي كان على مائدةٍ بأن تقول الحق.

فأقسمَت بأنني أردتُ أن أغتصبها بالقوَّة في بيتي، واعتديتُ عليها بالضرب، ومارستُ معها العنف.

ثم أقسمت غدير أيضاً بأنها شهدت الواقعة بعينَيها لأنَّها كانَت موجودة.

في تلك اللحظات الرهيبة، خطر لي كيف أنَّني كنتُ زوج هذه المرأة، كيفَ كنتُ أعيش مع هذه الكائِنة، كيف استطاعَت أن تُخفي عنّي كل هذا اللؤم.

عند خروجِهما، جاء صوت القاضي: ما هي إفادتك؟

قلت: لم يحصل من ذلك شيء.

قطَّب أنفه وقال بلهجةٍ غاضِبة: كل الأدلّة التي أمامي تُظهر بأنَّكَ شرعتَ باغتصاب هذه المرأة المُطَلَّقة داخل بيتك، وادَّعيت بأن زوجتك كانت في بيت أهلها، لكن أكَّد أخوها الذي طلبته للشهادة بأنَّها لم تكن في البيت. وقلت لابنتك بأن أمها مسافرة حتى تبقى في غرفتها ولا تراك وأنت تغتصب المرأة، وأمامي صور عن آثار الخدوش، وتقرير طبّي بالأضرار الناجمة عن الخدوش. ماذا تريدني أن أفعل؟ هل أُكذّب كل هذه الأدلّة، وأُصدّق كلامك الذي يخلو من دليل وأنتَ تقول بأنك بريء؟!.

قال ذلك وأشار لي بالخروج، وشرعَ يكتب في الاضبارة.

توقّفتُ للحظاتٍ أنظر إليه، ثم خرجتُ وأنا أنتظر تحديد مصيري من خلال ما كتبه القاضي، حتى أتى الشرطي بالإضبارة وأخبرني بأنه حكمني بالسجن سنتَين.

عدتُ إلى السجن مرةً أخرى، إلى تلك الطقوس التي اعتدتُ عليها خلال الشهرَين الفائتَين.

الفصل الخامس
نفحات الزيارة

كان يتحدَّث بوقارٍ شديد، وأحياناً يتحرَّج، أحياناً يتأسَّف، يهزّ رأسه، يطلق تنهيدة، وأنا أنظر إليه وأستمع إلى نبراتِه الخافتة.

مسح دموعاً اهدودرَت من عينَيه وأردف: اتَّصَلتُ من هاتف السجن بأهلي، طلبتُ منهم زيارتي وجلب فراشٍ لي، لكنَّهم رفضوا زيارَتي، وقالوا بأنَّهم يخجلون من العمل اللاأخلاقي الذي ارتكَبته.

حطَّمَني هذا الكلام أكثر وأكثر، وهاهي جعلتني أخسر حتى أهلي الذين صدّقوها. أجل يا صديقي، لم يبق أمامي سوى أن أقتلها وأنهي هذه المهزلة، أو أصمت وأتحمَّلها على مضض.

لم أكن أعلم بأنها على كل تلك الدرجة من الخبث، رغم أنَّني كنتُ ألمح مظاهر الخبث عندها في بعض المواقف.

لكن لم أكن أعلم بأنَّها تمتلك كل هذه المقدرة في التأثير على الناس وإقناعهم، صرتُ أسترجع مواقف لئيمة كانَت تبدر منها، وكنتُ أتحاشى التوقّف عندها وأقول لعلّي أُبالِغ في فهم تلك المواقف بشكلٍ سلبيٍّ، وأُقنع نفسي بأنَّها قد تبدر منها بشكل عفوي غير مقصود، ثم أنَّها أم ابنَتي.

كانت الزيارات العامَّة تحصل في الشهر مرَّتَين، وكان المساجين يجتمعون مع أهاليهم في ساحة السجن الواسعة، وأنا أنظر إليهم،

وأتجرَّع غصّات الألم، كانَت أصوات الأطفال تصلني وهم يقولون: بابا. وكان ذلك يزيدني ألماً.

وكلّما أرى أباً يحمل ابنته ويقبّلها، كانت صورة بهية تتقافز إلى مخيّلتي وأتخيَّلني أحملها وأقبّلها وهي تقول لي: بابا.

تلك الزيارات كانت تُخفّف عن المساجين، تُخفّف عن أهاليهم.

وكانوا ينتظرونها بشغَف، في أمسية الزيارة كانوا يستحمّون، يحلقون ذقونهم، ويتجهَّزون لها.

وما كان الأمر يخلو أيضاً من لقاءات غرامية بين خطيبٍ سجين، وخطيبته، أو بين شخصٍ سجينٍ، وامرأة بينهما حب.

كنتُ أنظر إليهم وحيداً وهم يتحلَّقون حول بعضهم البعض في ساحة السجن الضخمة ويتضاحكون، يتمازحون، يتناولون الطعام والشراب، يُقدّمون الهدايا والنقود للمساجين.

بعد لحظاتٍ من الصمت، رفع رأسه ينظر إليّ وهو يكفكف الدموع مِن عَينَيه وقال: أتعرف يا صديقي، أحياناً أحنّ إلى تلك الأجواء، لقد تعلَّمتُ من السجن ما لم يكن بوسعي أن أتعلَّمه في أي مكانٍ آخر.

كان السجناء أسخياء مع بعضهم البعض، أعطوني حاجتي من الفراش، وعندما علِموا بأنّ لا نقود لدي -لأنّني خرجتُ من البيت دون أن أحمل نقوداً- كانوا يشترون لي أشياءً من ندوة السجن التي كُنّا نخرج إليها كل يوم لمدَّة ساعة.

كنّا نمشي حول الساحة ونحن نتحدَّث ونأكل ونشرب، كان ذلك بمثابة الرياضة اليوميَّة لنا.

وعندما كنتُ أريد الاتصال بالهاتف، كانوا يُقدّمون لي بطاقاتهم الهاتفية حتى أتحدَّث بِها من هاتف المهجع. تلك البطاقات التي كانت تأتي في الأسبوع يومَين لِمَن يُريد أن يشتريها حتى يتحدَّث بِها من خلال الهاتف الأرضي في المهجع مع مَن يُريد، كانت مجموعة من أجهزة الهاتف الكبيرة مُثبَّتة على الحائِط كي يستخدمها المساجين.

وكانوا يُسجّلون أسماءهم للحصول على البطاقات في الأمسية التي تسبق يوم التوزيع.

بعد حوالي أربعة أشهر، زارني أخي (حواس) وهو مستاء، جلب لي ثياباً مع مبلغٍ من النقود.

انفجر بالبُكاء وقال: والله لو قدرت أن أصبر على فراقك أكثر، ما جئت لأزورك، لكن اشتقتُ إليك يا نيار، لماذا دمَّرتَ نفسك ودمَّرتنا بهذا التصرّف يا أخي ونحن كُنّا نرفع رؤوسنا بك، ألا توجد لديك زوجة؟

لماذا أفسدتَ حياتكَ التي كانَت جميلة ومستقرّة، ما الذي كان ينقصك، هل بطرتَ يا أخي؟ وهذه هي نتيجة البَطَر. على كل حال، البقية في حياتك.

قلت: مَن؟

قال: ماتت أمّك من القهر عندما سمعت الخبر، وللأمانة أرادت أن تزورك بعد أقل من شهر من سجنك وطلبتْ منّي ذلك، لكنَّها أصيبَت بشلل في قدَمَيها وبقيت طريحة الفراش.

قلت: متى ماتت يا أخي؟

قال: منذ شهرَين ماتت من كَثرة القهر، وقبل عدَّة أيام من موتِها قالت بأنَّها مشتاقة لك، وأوصتني أن أزورك، وأرى ما الذي يلزمك.

خلعتْ سوار الذهب من معصمها ومدَّته لي، أوصتني أن أبيعه وأعطي ثمنه لك دون أن أخبر أحداً، هذه النقود هي أمانتها، أوصلتها لك.

قلت: يا أخي أرجوك، لا تُصدّق ما يُقال عنّي، كل هذه افتراءات وأنا بريءٌ مِنها؟

قال: زوجتك ابنة حلال، وأيضاً صديقتها السيدة مرام، بعد سجنك بأيام قليلة، جاءت معها إلى بيتنا، وقالت: من أجل هذه الطفلة، ومن أجلكم ومن أجل صديقتي غدير لن أخبر أهلي بِما حصل، لأنَّني إذا أخبرتهم سوف يتصعَّد الأمر ولا أدري ما الذي سيحصل، خاصَّة لدي أخ متعصّب، وربما سيقتل أحداً منكم.

صديقتي غدير ترجَّتني أن أخفي الأمر عن أهلي، واستجبتُ لها، وأنا سامحتُ ابنكم.

خرج حواس وقد زادني ألماً وحرقةً، بعد ذلك لم يزرني أحد سوى صديقي (مصطفى) الذي تربطني به صداقة حميمة، فوجئتُ ذاتَ يومٍ بزيارته لي، وصار بين فترة وأُخرى يُعاود الزيارة. في إحدى الزيارات كنت في شوق عميق لابنَتي، طلبتُ منه أن يذهب إلى بيتي ويطلب من أمّها أن تُرسلها معه كي تزورني في السجن. فوعدني بأنّه سوف يبذل كل جهوده حتى يأتي بِها في الأسبوع القادم.

انتظرتُ يوم الزيارة وأنا أعدّ الساعات والأيّام وأتخيَّل زيارة ابنتي لي، كان مُجرّد تصوّر لقائي بها يُخفّف عنّي. وجاء يوم الزيارة، استيقظتُ في الفجر، لم أعد قادِراً على إكمال نومي، بقيتُ مستيقظاً في الفراش حتى اقترب موعد الزيارة، وكانت تُتلى مِن مكبّر الصوت أسماء المساجين الذين لديهم زيارات.

عندما سمعتُ اسمي، خفق قلبي نشوةً وخرجتُ إلى الساحة. أُصبتُ بصدمةٍ عندما رأيتُ مصطفى لوحده. قال بأنّ أمّها رفضت أن تُرسلها لزيارتي، وقالت: بهية مُصابة بحالة نفسية صعبة عندما علِمَتْ بما فعله أبوها بحق ضيفتنا، وإذا كان يريد مصلحتها فعلاً، ليتركها بحالِها، وينسى أن له ابنة.

أخبرني مصطفى بذلك وهو مكتئب، كانت الكلمات تخرج من حَنجرته بالكاد.

عندما انتهت الزيارة، ودَّعني مصطفى، وعدتُ إلى المهجع بائِساً، عدتُ وأنا في ذروة تعجّبي لِما يحصل: كيف أمضيتُ كل تلك السنوات مع هذه المرأة دون أن أعرف هذه الجوانب العدوانيّة في شخصيَّتِها؟! جالَت في مخيّلتي بعض مواقفها، بعض عباراتها، تصرّفاتها، وصرتُ أستعيدها بشيءٍ من التحليل وأصل إلى نتيجةٍ بأنَّها كانت تُمارس عدوانيتها عليّ لكن بطرقٍ غير مُباشرة من خلال ما كانت تسبّبه لي من استفزازات وكنتُ أتجاهلها.

❁❁❁

اعتدتُ على زيارات مصطفى لي كل أسبوعٍ، كنّا نجلس ونتحدَّث، وكان يمدُّني بطاقةٍ من التفاؤل بحديثه. اكتشفتُ مع مصطفى كيف أن شخصاً واحِداً يكون معك في أوج محنتك، يمدُّك بالقوَّة في مواجهة مئة شخصٍ يكونون عليك.

في الأسبوع القادم انتظرتُ زيارة مصطفى، لكنّني لم أسمع اسمي، كنتُ أعدّ اللحظات وأنا أترقَّب سماع اسمي من مُكبّر الصوت مع أسماء الذين لديهم زيارات: هل قرأ اسمي ولم أكن مُنتبِهاً؟ هل نسي أن يقرأ اسمي، ولعلّ مصطفى ينتظرني هو الآخر في الساحة؟

كنتُ أغمغم في قرارة نفسي وأنا أصيخ للأسماء التي تتوالى حتى انتهت الزيارة وعاد السجناء إلى المهجع.

تكرّر ذلك في الأسبوع القادم والذي يليه.. وغدت الأسابيع تمرّ دون أن يأتي مصطفى.

بعد شهرَين على ذاك الانقطاع، فوجئتُ بسماع اسمي، وخرجت على عجل، رأيتُ مصطفى بانتظاري. احتضنّا بحرارةٍ، تباوسنا، ولمحتُ في عَينَيه ولهفته كم أنّه كان بشوقٍ إليّ ربما زاد عَن شوقي إليه. اعتذر عَن تأخّره في زيارتي وقال: جاءت غدير إلى الحارة، وقفتْ أمام باب بيتنا ورفعت صوتها حتى التمّ الجيران حولها في الشارع، عندما خرجتْ زوجتي، قالَت لها بأنَّني أحرّض زوجها عليها وتسبَّبتُ في دخوله السجن وخراب بيتها، وأنَّني كنتُ معكَ عندما تحرّشتَ بصديقتها، وأنا أيضاً كنتُ أتحرَّش بها، لكنها طلبت من صديقتها أن تسترني، وإن بقيتُ على تواصل معك سوف تأخذ صديقتها وتُقدّم شكوى بحقّي أيضاً.

عندها استفزَّت زوجتي ونحن في الشارع وطلبتْ مني أن أطلّقها على الفور.

استطعتُ أن أُدخل زوجتي البيت، وأُهدّئها، وبسبب الذي حدث أمام الجيران، بعتُ بيتي واشتريتُ بيتاً في حارة أخرى. تصوّر يا نيار حتى زوجتي قالَت بأنَّها صُدِمَت بك وخيَّرتني بين أن أمتنع عن زيارتك في السجن وبين أن أُطلِّقها.

عند انتهاء وقت الزيارة، أخرج بعض النقود، دسَّها في جيبي وقال: إذا تأخّرتُ عليك أرجوك اعذرني، غدير قالت بأنَّها ستراقبني في مواعيد الزيارات، لذلك تأخَّرتُ شهرَين حتى تفقد الأمل بأنَّني سأزورك.

نظرتُ إليه نظرات إعجاب لم يسبق لي أن نظرتها إليه مِن قبل، في تلك اللحظات الأخيرة، ضَمَمته إلى صدري، وكانَت مِن أجمل اللحظات الحميميَّة التي عشتها في حياتي، ولا يُمكن لي نسيانها، كنتُ أبتسم ودموعي تنهمر.

ذاك الموقف هزَّني من أعماقي، كما لو أنَّه أزاح جبلاً كان كاتماً على صدري. هكذا أحياناً نعيش النقيضَين في وقتٍ واحدٍ: نبكي ونضحك، نحزن ونفرح، نتألَّم وننتشي، نرتعب ونشعر بالأمان، نشعر بالحرية ونحن في القَيد، نشعر بالقَيد ونحن طلقاء.

❁❁❁

خيَّمَ صمتٌ علينا بعد أن توقَّفَ عن الكلام وصار يمسح دموعه، وأنا أنظر إليه خائِفاً من نهوضه فجأةً قبل أن يُكمِل لأنني أعلم مدى

حساسيته، وأنّه يمكن أن ينهض في أي لحظة، ومن جهةٍ أخرى لم أقل كلمة واحدة حتى لا أقطع خيط أفكاره.

بعد عدَّة دقائق على ذلك وأنا ما أزال أنظر إليه منتظراً ما الذي سيبدر منه، تناهَت نبراته الخافتة: كانَت تلك الصورة التي أخذَتها ابنَتي عنّي تُدمّرني وأنا في السجن، وكان شوقي يزداد إليها كي أضمَّها وأقبّلها.

في أحد الأيام رأيتُ رئيس المهجع في السجن (هارون) يتقدَّم إليّ ويسألني عن سبب حزني الدائم، فقلتُ له بأنني مشتاق لابنَتي.

قال: ألا تزورك؟

انتابني صمتٌ وهو يوجّه بصره إليّ منتظراً الإجابة. قلت وأنا أحاول أن أطوي الموضوع حتى لا يسألني مرة أُخرى: هي مريضة ولا تستطيع أن تأتي.

هزَّ رأسه بأسفٍ وقال: شفاها الله.

كان رئيس المهجع شخصاً غريباً، لم يسبق لي أن رأيته يضحك، كان دائم العبوس، لكنّه عندما كان يستغرق في نومٍ عميق، كان يضحك بشكلٍ غريبٍ وهو نائم وخاصَّةً في الهزيع الأخير مِن الليل. كانت ضحكاته تتعالى وتنتشر في المهجع الذي كان غارِقاً في الصمت، وكان الضوء يبقى مشتعلاً، وكنتُ أحياناً أصحو على سماع ضحكاته، أنظر إلى السجين الذي تكون مناوبته في الحراسة يجلس على كرسيٍّ بجانب باب المهجع وهو يوزّع نظراته على المساجين النائمين. أنزل من السرير، أتّجه إلى المراحيض، أمر بجانب الحارس، ألقي عليه السلام من خلال بسمةٍ خفيفة مع إيماءة رأس، يجيبني ببسمةٍ مماثلة وهو يومئ رأسه. لم يكن

أحد يجسر على إيقاظ رئيس المهجع كي يتوقَّف عَن الضحك، لأنَّه كان عصبيّاً ويعتبر ذلك بمثابة الإهانة له.

ذاتَ ليلةٍ نهضنا جميعاً على سماع صوت مرتفع انفجر منه، وكان ذلك بسبب ذهاب أحد المساجين الجدد إلى سريره عندما كان مستغرقاً في الضحك وهو نائم، وأيقظه مِن النوم، وما كان منه إلّا أن وجَّه صفعةً مدويَّةً إلى السجين، فتدخَّلنا وفصلنا بينهما.

كنتُ نسيتُ ما داربيني وبين هارون عندما سألني عن سبب حزني، وبعد أسبوع على ذلك، فوجئتُ به يقترب إليَّ بعد أن تناولنا الغداء واسترخيتُ على سريري.

جلس على طرف السرير بالقرب من رأسي، نهضتُ من استلقائي وجلستُ في السرير. وضع كفَّه على كفّي، تجشّأ وقال بهمسٍ: شرحتُ ظرفك لمدير السجن، رتَّبَ لك زيارة هذه الليلة، ستأخذك سيارة من هنا وتُعيدك.

شكرته بعمقٍ ولم أكن أصدّق ما سمعَته أذناي، هل يمكن لي أن أرى ابنَتي في هذا الظرف؟ وهذا ما لم يكن يخطر في بالي.

هزَّ رأسه عدَّة هزّات إلى الأسفل علامةً للتأكيد على ما قال ونهض.

بعد نحو ساعةٍ من التفكير في اللقاء، ذهبتُ إلى المغاسل، حلقتُ ذقني، تحمَّمت، تجهَّزتُ للّقاء واتّكأتُ على مرفقي في السرير أنتظر.

عند الساعة التاسعة مساءً أخرجني رئيس المهجع واتَّجه بي إلى مُدير السجن الذي كان جالِساً خلف مكتبة يقرأ كتاباً. نظر إليَّ نحو دقيقة ثم قال: هل اشتقتَ لابنتك؟

قلت: كثيراً.. أكثر مما تتصوَّر.

خرجنا من عنده وسلَّمني رئيس المهجع لشخصٍ كان ينتظرني عند الباب الخارجي للسجن حيث كانت سيارة بانتظارِنا.

صعدتُ السيارة وجلستُ في المقعد الخلفي بينما جلس المرافق بجانب السائق، وانطلَقنا إلى حيث بيتي.

دخلتْ السيّارة إلى الشارع المُضاء بالمصابيح، توقَّفَتْ بمحاذاة رصيف الباب، نزلتُ وأنا أنظر إلى الباب المغلق، إلى الحارة التي غبتُ عنها حوالي سنة منذ أن دخلتُ السجن.

طرقتُ الباب عدَّة طرقات برفق، بعد قليل فتحته غدير، عندما رأتني، ارتبَكَت وعلى الفَور سدَّت الباب في وجهي دون أن تتفوَّه بكلمة واحدة.

صُدِمت وناديتها من خلف الباب: افتحي يا غدير أريد أن أرى ابنتي نصف ساعة وأعود.

لكنَّها لم ترد، ناديتُ على ابنتي: بهية.. بهية افتحي يا بنتي أنا بابا. ولم يردني أي جواب.

لبثت أطرق نحو نصف ساعة دون أن تفتح، فقال لي المرافق بأن وجودي خارج السجن غير قانوني، وعلينا أن نذهب قبل أن يلتم الجيران وتُثار حولنا الشبهات.

وضعتُ فمي على الباب وصرت أقبّله وأستنشق منه رائحة ابنَتي.

في اليوم التالي قدَّمَتْ غدير شكوى عَن هروبي من السجن ومحاولتي لقتلها وقتل ابنتي في البيت.

عندما تأكَّدوا من وجودي في السجن، طلبوا من مدير السجن الردّ على الشكوى. فكتب بأنَّه أجاز لي ذلك لدواعٍ إنسانيَّة لأن ابنَتي مريضة ولم تستطع القيام بزيارتي، وقد مضت سنة على عدم رؤيتي لها.

فوجئتُ بعد يومَين من ذلك بضابط برتبة رائد بدا بأنَّه من خارج مرتّبات السجن، ومعه ضابط برتبة ملازم أوَّل من السجن، أخذاني من المهجع إلى مكتب مدير السجن، وكان الوقت بعد الساعة الثانية عشرة بقليل.

عند دخولي، رأيتُ غدير وابنَتي في المكتب.

قال لي مدير السجن الذي كان يجلس خلف طاولته ومكتوب في مقدّمتها على لائحة أنيقة (العميد غياث): زوجتك قدَّمَت شكوى تقول فيها بأنّنا أرسلناك إلى البيت كي تقتلها وتقتل ابنتك.

قلت: طلبتُ ذلك يا سيادة العميد لأنّني كنتُ مشتاقاً لابنَتي.

قال النقيب موجِهاً كلامه لبهية: هل أنتِ مريضة؟

هزَّت رأسها بالنفي قائلةً: لا.

قال موجِهاً كلامه لغدير: لماذا لا تزورانه في السجن؟

قال: كيف تريدني أن أزوره وأنا أراه يريد أن يغتصب صديقتي أمامي في البيت، ابنَتي أيضاً تمتنع عن زيارته لهذا السبب، ولا أستطيع أن أرغمها على ذلك.

قال: كيف عرفتِ بأنَّه أراد أن يقتلك ويقتل ابنته؟

قالَت: صديقه مصطفى الذي يزوره في السجن جاء إليّ في البيت وقال بأنّه عاد للتو من زيارة زوجي وهو يُخبرني بأنّ عليّ أن أضغط على صديقتي مرام كي تسقط حقَّها عنه حتى يخرج من السجن، أو أنَّه سوف يتحايل على مُدير السجن ويدَّعي بأنَّ ابنته مريضة ولا تستطيع أن تأتي لزيارته، وإذا لم يستطع إقناعه، سوف يرشي المدير بمبلغٍ من المال مقابل أن يسمح له بالخروج لساعةٍ واحدة في الليل كي يرى فيها ابنته المريضة ويعود. وعندها سيقتلنا بسكّينٍ يأتي بِها من المطبخ. وقال لي مصطفى بأنَّه أعطى زوجي المبلغ الذي طلبه منه في تلك الزيارة.

تشنَّجَ مدير السجن وخبَّط بكفّه على الطاولة، احمرَّت وجنتاه، فقالَت غدير: المعذرة منكَ، أنا لا أقول شيئاً من عندي، أقول ما أخبرني به مصطفى، وهو حيٌّ يُرزَق. فوجَّه نظرات محتقنة إليّ كما لو أنّه يريد أن يبتلعني غيظاً.

قال لي الرائد المُحقّق: هل أعطاكَ مصطفى نقوداً؟

قلت: نعم أعطاني.

قال: أين هي؟

قلت: صرفتها.

فتوجَّه بنظراتِه إلى المُدير واكتفى بالصمت.

بعد ذلك تلقّى رئيس السجن أمراً بنقله إلى رئاسة إحدى المخافر في قريةٍ نائيةٍ عِقاباً له، وكذلك تم حرماني من الزيارة ووضعي في زنزانة انفرادية لمدَّة أربعة أشهر.

هزَّ رأسه يمنةً ويسرةً وقال: يومها عرفت بأن الزنزانة الانفرادية هي سجن السجن، والخروج منها إلى السجن، مثل الخروج من السجن إلى الحرية.

انتابني هذا الشعور عندما خرجتُ منها إلى السجن، وعدتُ إلى الطقوس التي ألفتها مع النزلاء، والخروج اليومي إلى الساحة.

❁❁❁

جمدتُ في أرضي وأنا في الساحة عندما لمحتُ مصطفى، أجل مصطفى بقامته الطويلة وأعضائه المُتناسِقة، كان يمشي لوحده تحت الشمس وسط جموع المساجين وهو يعقد يدَيه وراء ظهره. دنوتُ إليه وهتفت: مصطفى..

التفتَ إليّ، احتضنّا، قال: أين كنت؟. ظننتك خرجتَ مِن السجن، أو نقلوك إلى سجنٍ آخر، سألتُ عنكَ كثيراً وقال لي بعض الذين كانوا في مهجعك بأنَّهم لا يعرفون عنك شيئاً سوى أنَّك خرجتَ ولم تعد إلى المهجع.

قلت: وأنت ما أتى بك إلى هُنا؟

قال: بتهمة التستر على الشروع بارتكاب جريمة.

في تلك اللحظات حان موعد دخولنا إلى المهاجع كي نفسح المجال لمساجين مِن مهاجع أُخرى. ولم يعد بإمكاننا سوى أن نخلي الساحة.

اتَّجهتُ إلى مهجعي، لا أدري لماذا بدأتُ أشعر بالذنب نحوه، اعتراني شعورٌ بأنَّني السبب خلف دخوله السجن.

في اليوم التالي فور خروجنا إلى الساحة، بدأتُ أوزّع نظراتي في الباحة، وكان هو الآخر يبحث عنّي. عندما التقت نظراتُنا لوَّحتُ له بيدي ولوَّح بيده.

قلت: منذ البارِحة لم أنم وأنا أفكّر بسبب دخولك السجن.

قال: ولا يهمّك نيار، مضت أربعة أشهر وبعد شهرَين سأخرج، البارحة مساءً طلبتُ مِن رئيس المهجع أن ينقلني إلى مهجعك.

نظر إلى يدي وقال: سأحاول، لكن قد يكلّفك مبلغاً هل أنت مستعد؟

قلت له: مستعدّ.

أتعرف يا نيار بأنّني لستُ نادِماً على دخولي السجن، بعد أن تعرَّفتُ على بعض المساجين وعقدتُ معهم علاقات صداقة جيدة، عرفتُ بأن معظم هؤلاء بكل بساطة كان يمكن لهم ألّا يكونوا في السجن إذا كان القانون قويّاً، لكن هشاشة القانون هي التي أودعَتهم السجن.

اكتشفتُ وأنا في السجن بأنَّه لا يوجد لدينا قانون يردع تجاوز الناس على بعضهم بعضاً، يوجد لدينا قانون يُعاقِب الذين أخذوا حقوقهم بأيديهم من أولئك الذين تجاوزوا عليهم ولم يُحاسبهم القانون.

تعرَّفتُ في السجن على ما لم يكن لي أن أتعرَّف عليه في أي مكانٍ آخر.

اتَّجهنا إلى الدكّان الموجود في الباحة، اشترى عبوتَي بيبسي وقطعتَي كيك. ومضينا نشرب البيبسي ونأكل الكيك. بعد قليلٍ ناولني سيجارة، وعلَّق واحِدة في فمه، أشعل سيجارتي بالقدّاحة، ثم أشعل سيجارته، نفث الدُخان وصار يمضي تاركاً السيجارة مُشتعلة في زاوية فمه وقال:

ظننتكَ عرفتَ بِما حصل معي، كنتُ في دكّاني أصلح برّاداً عندما فوجئتُ بسيّارة شرطة وقفتْ بجانب الدكّان، وطلبوا منّي أن أذهب معهم.

تركتُ العامل في الدكّان، وصعدتُ السيّارة، فوجئتُ بوجود غدير في قسم الشرطة. بعد التحقيق أخذونا إلى القاضي.

وفجأة تناولته نوبة ضحكٍ مجلجل وقال: تصوّر من كَثرة ما كانت تتحدَّث بجدّية وقد وضعتْ كفَّها على المصحف، وهي تبكي وتتأثَّر بِما تقول، كدتُ على وشك أن أصدّقها حتى أنَّني صرتُ أُراجع نفسي، وقلت: لعلّي نسيت، وأنّني بالفعل ذهبتُ ونقلتُ لها تهديدك بقتلها وقتل ابنتها، وطلبتُ منك أن ترشي مدير السجن وتقول بأن ابنتك مريضة حتى تخرج وتقتلهما.

المشكلة أنّك أمام كل هذا الحديث لا تملك سوى أن تصمت لأنَّك لا تعرف ما الذي ستقول، تعرف بدهاءٍ غريب كيف تسدّ عليك كل مجال لقول شيء. هكذا رأيتني وقد تلقيتُ حكماً بالسجن لمدَّة ستَّة أشهر لارتكابي أشياء لم تحصل سوى في مخيّلتها.

بعد أسبوعٍ انتقل مصطفى إلى مهجعي، فخصّص له رئيس المهجع سريراً قريباً من سريري، وصرنا نسهر معاً على سريره أحياناً وأحياناً على سريري حتى وقتٍ متأخّرٍ من الليل ونحن نتحدَّث بصوتٍ خفيضٍ حتى لا نزعج المساجين النائمين.

مضت فترة محكوميته المتبقيَّة بسرعةٍ حتى رأيته ذات يومٍ يودّعني، كنتُ سعيداً لأنَّه سيذهب إلى بيته وعمله، وتعيساً لأنّني كنتُ قد اعتدتُ على وجوده معي.

لم يكن أمامي سوى أن أستسلم للواقع الجديد، وأخذتْ الأيّام تمضي بي بين مسرعة وبطيئة حتى خرجتُ ذات مساء إلى حياة الحرية، أفعل ما أشاء، أذهب إلى ما أشاء، آكل ما أشاء، أشرب ما أشاء، أنظّم وقتي بِما أشاء.

الفصل السادس
ظمأ الشوق

أول ما خطر لي، أن أذهب إلى البيت كي أرى ابنتي التي لم أرها منذ سنتَين، ولم أتحدَّث معها حتى في الهاتف، لأن أمّها كانَت تمنعها رغم محاولاتي الكثيرة.

ذهبت إلى محل لبيع لعب الأطفال، اشتريت لعبة (دببوب) كبيرة الحجم. وضعَها لي البائع في كيس أنيقٍ، حملتُ الكيس وخطوتُ في طريق البيت وأنا أتخيَّل بأن ابنتي كبرَت سنتَين، تغيَّرت ملامحُها، تخيَّلتُ أن أسمع منها كلمة: بابا. وهي ترمي نفسها في حضني، تُقبّلني وأقبّلها.

دخلتُ الشارع الذي كانت قد طرأت عليه بعض التغييرات، رأيتُ بناءً جديداً شُيدَ على مساحة أرض كانت شاغِرة.

دنوتُ مِن الباب وقلبي يخفق، وقفتُ أمامه، طرقتُ عليه عدَّة طرقات.

بعد قليلٍ فُتحَ الباب وظهرت قامة غدير، عندما رأتني، لبثتْ للحظاتٍ ترمقني، وسدَّت الباب في وجهي.

بعدَ دقيقةٍ عدتُ وطرقته، انتظرتُ قليلاً ولم تفتح، طرقته مرَّةً أُخرى بقوَّةٍ. تناهى صوتُها من خلف الباب: اذهب مِن هُنا وإلّا سأعيدكَ بمكالمة هاتف إلى المكان الذي أتيتَ منه.

قلت: سأذهب إلى مكانٍ آخر، لكن أريد أن أرى بهيَّة.

قالت: انس أن لك ابنة وهذا أفضل لك ولها.

قلت: ليس بيدي، لن أطيل، عدّة دقائق فقط.

قالت: لا يمكن.

قلت: دقيقة واحدة يا غدير سأعطيها لعبة وأعود.

قالَت: لا تريدك ولا تريد لعبتك.

قلت: دعيني أتحدَّث معها في الهاتف، اشتقتُ لصوتِها.

قالَت: قلتُ لك انس أن لك ابنة.

صرتُ أخبط على الباب بقوَّة وأركله بقدمَي، أرفع صوتي: افتحي يا غدير.. افتحي. رأيتُ بعض الجيران يخرجون، يقفون أمام الأبواب وهم يرمقونني، تسرَّبَت أصواتُهم إلى سمعي:

- كنا مخدوعين به، المسكينة كانَت تستره خلال كل تلك السنوات، وتعطينا صورة جيدة عنه، لكن طفح كيلها، ولم تعد تحتمل.

- كان يدَّعي العَفاف

- كيف له أن يدخل الحارة التي شوَّه سمعتها

- دخيلك يارب هذا آخر الزمان، يعتدي على ضيفة أمام زوجته، معها حق المسكينة ألّا تفتح له.

في تلك اللحظات الرهيبة، قفز إلى مخيّلَتي مشهد دخولها إلى بيت الصائغ، وتمتمت في سرّي: أيَّة جريمة ارتكبت حينما أغمضتُ عيني وسترتها، ليت الموقف يعود.. لكن هيهات وكيف سيعود.

استدرتُ، وزَّعتُ نظراتي إلى الجيران، انفجرَت من صدري صرخة ملغومة: معكم حق كان عليّ أن أقتلها، أخنقها، لكن كل الحق عليّ، وأنا أستحق ما يحصل لي.

ركلتُ الباب بقدمَي حتى انكسر ودخلتُ، أمسكتُ بكتف غدير التي كانت واقفة خلف الباب، جرجرتها إلى الخارج قائلاً: لا مكان لكِ في هذا البيت يا خائنة، هذا بيتي وأنتِ لستِ زوجتي.

أحسستُ بقوَّة غريبة اندفَعَت إليها، استطاعَت أن تفلت من يدَي، دخلت البيت ثانيةً، وسارعَتْ إلى المطبخ وأنا ألحقها، حَمَلتْ صحناً زجاجياً، حَطَّمَته على جدار المطبخ.

قلتُ لها: ماذا تفعلين يا مجنونة؟!

طَعَنتْ به كتفها وأطلقت صرخةً مدويّةً.

نزف الدم بغزارةٍ وانتشر إلى ثيابها، بعد لحظاتٍ وأنا أنظر إليها بذهول، حطَّمَتْ قطعة الزجاج التي بيدها على الأرض، وهرعَتْ إلى الشارع تصرخ وتستغيث: أراد أن يذبحني.. أراد أن يذبحني.

حملتُ اللعبة التي كنتُ وضعتها جانِباً داخل الحوش واتَّجَهتُ إلى غرفة ابنتي كالمجنون بكل ما بي من شوقٍ إليها، كانَت مستلقية ونائمة على سريرِها، وضعتُ اللعبة بجانب رأسها.

لا تعرف يا صديقي كم شعرتُ براحةٍ وأنا أنظر إليها وأذرف الدموع، كنتُ أنظر إليها وأنا أبكي وأضحك.

أنظر، وأنظر، وأنظر، ومع كل نظرةٍ أزداد شوقاً لمزيد من النظر، مررتُ أصابعي على تقاسيم وجهها.

كانَت أبوَّتي تتغلغل في صدري وأنا أنظر كما لو أنَّني لا أصدّق بأنَّها أمامي، كما لو أنَّني فقدتها منذ دهر، وعثرتُ عليها بغتةً في صحراء.

في تلك اللحظات الرهيبة أدركتُ أن ظمأ الشوق هو أقوى ظمأ يمكن أن يصيب الإنسان، كم أردتُ أن أضمَّها إلى حضني، أن أقبّلها، ولكنني لم أشأ أن أوقظها من نومِها.

دبَّت حركة صاخِبة في البيت، تعالَت أصواتٌ وتداخَلَت مع بعضها البعض، استفاقت ابنتي على إثرها بفزع، وعندما رأتني والضجيج يتعالى، انفجرَت منها صرخة وهي تقول: أمي.. أمي.

رأيتُ فوجاً من الشرطة يقتحم الغرفة، انقضّوا عليّ بسرعةٍ، قاموا بتفتيشي، ثم قيَّدوا يدَي وقدَمي على الفور دون أن يتكلَّموا معي كلمة واحِدة، اقتادوني إلى السيارة الحكومية التي كانت واقفة بجانب رصيف البيت، كان الشارع مكتظّاً بالناس كما لو أن أحداً لم يبق في البيوت. انتبهتُ بأن سيارة حكومية أخرى كانت معهم، توزَّع العناصر على السيارتَين وهم يتراكضون واتَّجهنا إلى المركز.

عندما أدخلني شرطي إلى مكتب رئيس المركز، انتفَضَ كالمصعوق من كرسيه بعصبيّةٍ شديدة، تقدَّم إليّ، وفجأةً وقعتْ كفُّه كالسوط على وجهي.

زعَّق بصوتٍ كالرصاص: المُطلَّقة الغريبة، قلنا ربما نزوة، لكن يا بن الحرام ابنتك.. لو كان الأمر بيدي لقطعته لك الآن بمشرط قديم حتى تتألَّم أكثر وأنا أقطعه لك وأريحه منك، وأريحك منه.

كان يتحدَّث بكل ما أُوتي من غضب، ثم وجَّه بصقةً إليّ، دفع بي من صدري إلى الحائط بقوَّةٍ، قبض بكفّه على شعري، احتدَّت قسمات وجهه أكثر، انفجر صارِخاً: يا بن الحرام ابنتك، أي بشرٍ أنت، حرام أن تكون بشراً، حرام حتى أن تكون حيواناً، حتى الخنزير يتبرّأ منك، ألا توجد لديك ذرَّة مشاعر.. تعالَت منه صرخة مدويَّة: ماذا أنت.. ماذا أنت، ليتني لم أعش إلى هذا اليوم، ليتني كنتُ ماسح أحذية ولم أكن ضابِطاً، ولم أرَ نفسي في هذا الموقف المقزّز؟!.

رغم أنَّني لم أعد أعرف ما الذي سأقول أمام ثورة غضبه، لكن فتحتُ فمي لأقول أي شيء يأتي على لساني. فقال بذات الصوت المُرتَفع كدويّ: اسكت يا حيوان.. لا أريد أن أسمع صوتك.. وكيف للسانك أن ينطق بكلِمة؟!

بعد قليل دَخَلَتْ غدير برفقة شرطي يتدلّى مسدسٌ على خصره، وما إن رأتني حتى تهجَّمَت عليّ، لكن الشرطي سارعَ وفضَّ بيننا ثم قال للضابط بعد أن زجرني بنظرةٍ: العفو سيدّي، لو لم تكن لديّ عائلة وأخاف أن تتشرَّد، لأخرجتُ مسدسي الآن وأفرغت كل ما فيه من طلقات في جمجمته.. اعفني سيدي.. دعني أخرج لا أحتمل أن أنظر إليه.. لا أحتمل أن أكون معه في مكانٍ واحد.

أشار له الضابط بالخروج في اللحظة التي أحسستُ فيها بأنَّه على وشك أن يمدَّ يده إلى مسدَّسه، ويجهز بكل ما فيه من طلقات عليّ.

جلس الضابط بوجهه الكالح وأنفاسه المتقطِّعة على الكرسي خلف طاولته، أشعل سيجارةً بتوتّر، قذف علبة الدخان على الطاولة. عبَّ عدَّة أنفاس من السيجارة ثم أطفأها في المنفضة بعصبيَّةٍ وقال: ماذا حصل يا بنتي؟

بدأ الشرطي الذي كان يجلس بجسده المترهّل على كرسيٍ، يكتب في السجل بيدٍ مرتعشةٍ، ويرمقني بين حينٍ وآخر.

قالت بصوتٍ كالهدير وهي تبكي: تذكر يا حضرة الضابط أنه في المرة الماضية كيف حاول الاعتداء على صديقتي وضيفتي في البيت، المسكينة قالت: مهما يكن، فهو يبقى زوجك رغم أنّه لا يستحق أن يكون زوجك، ويبقى الأب لابنتك، رغم أنَّه لا يستحق أن يكون أباً، لذلك لن أخبر أهلي حتى لا يؤذونه عندما يخرج من السجن.

هزَّ رأسه بالإيجاب وهو يصوّب نظرات شراريَّة إليّ.

قالت: هذا الرجل يا حضرة الضابط قبل أن يقضي محكوميته استطاع أن يحتال على مدير السجن ويقول بأن ابنته مريضة ولا تستطيع أن تزوره، والحقيقة هي التي ما كانت تريد أن تزوره رغم أنني حاولتُ معها مراراً وتكراراً، وأنا أقول: يا بنتي مهما يكن، يبقى هو أبوك، زوريه ولو كل شهرين مرة، هذه أبوَّة والأبوَّة مثل الأمومة، وهي حق. لكنها كانت ترفض بسبب ما فعله مع صديقتي المسكينة وقالَت أنَّها لا تتخيَّل أن تراه.

وما أردتُ أن أضغط عليها، قلت ربما مع الوقت ستنسى ويعود كل شيء إلى ما كان عليه بينهما.

جاء اليوم حتى يقتلني وينتقم منّي لأنني شهدتُ بالحق ضده، وضدّ صديقه مصطفى الذي خطّط معه طريقة الخروج من السجن لقتلي مع ابنتي. ولم أتقدَّم بشكوى ضد مدير السجن حتى لا أؤذيه، بل خفتُ أن يحتال عليه مرة أخرى، ويسمح له بالعودة إلى البيت، وصرتُ في قلق، وهذا ما جعلني أتقدَّم بشكواي وأقول بأنه خرج من السجن بشكل غير قانوني، وعلمتُ أن مدير السجن نُقِل إلى مكانٍ آخر، لكن يشهد الله أنني كنتُ أحمي نفسي وأحمي ابنتي من هذا الشخص الذي بُليتُ به، وأنا أصبر على انتهاكاتِه وأسأل الله أن يؤجرني على صبري.

كانَت تتكلَّم ورئيس المركز يهز رأسه وبين لحظةٍ وأخرى يرمقني بنظراتٍ نفّاذة.

قالـت: يا حضرة الضابط اليوم خرج من السجن وهذا بيته وملكه، وأنا زوجته على سنة الله ورسوله، وابنتي هي ابنته مِن لحمه ودمه.

عندما طرق الباب، فتحتُ له، استقبلته، ورحّبتُ به استجابةً لأوامر ديني، وها هو أمامك ولا أقول شيئاً خلفه، قلت له: الحمد والشكر لله على سلامتك يا زوجي، وأنا نسيتُ كل شيء، واليوم نفتح صفحة جديدة من حياتِنا الزوجية كأن شيئاً لم يكن، سمعتُك هي من سمعتي، وسمعتي هي من سمعتك، وسمعتنا من سمعة ابنتنا.

قال الضابط: ابنة أصل وأخت رجال.

بكت واستأنفَت تقول: لكن ما طلبه مني لا يقبله عقل ولا ضمير، ولا أحد يحتمله، طلب أن أقنع ابنتي التي كانت نائمة في غرفتها حتى تقبل أن يعتدي عليها، عندها استنفرت ولا أدري ما الذي أصابني،

صرخت ودفعته بكل قوتي واستطعت أن أخرجه من البيت وأغلقتُ الباب.

لكنه صار يخبّط بعنف على الباب وهو يرفع صوته حتى خرج الجيران من بيوتهم، وبدأت أصواتُهم تصلني وهم يطلبون منه أن يتوقَّف عن ذلك، وسمعتُ أحدهم يطلب منه أن يكفّ عن إزعاج الجيران بصوته المرتفع وخبطاته القوية على الباب.

لكنَّه صار يهدّدني بالقتل ويرفع صوته، كنتُ واقِفة بجانب الباب من الداخل وجسمي كلّه يرتجف خوفاً ورعباً، والجيران يشهدون، وإذا أردتَ سوف أحضرهم للشهادة على ما أقول.

قال الضابط: هم من تلقاء أنفسهم جاؤوا ليشهدوا بالذي رأوه وسمعوه.

بعد لحظاتٍ رفع سماعة الهاتف الأرضي وطلب إحضار الشهود، فدخل خمسة أشخاص من الجيران وقالوا بأنَّهم سمعوا صوتي وأنا أهدّد بقتلها، ثم رأوني أحطّم الباب وأقتحم البيت.

وكان أحدهم قد سجَّل صوتي بواسطة هاتفه الجوّال وأعطاه سابِقاً للضابط، فأشغل الضابط الصوت من الهاتف الذي كان موضوعاً بجانبه على الطاولة، وتناهى منه صوتي: (معكم حق كان عليّ أن أقتلها، أخنقها، لكن كل الحق عليّ، وأنا أستحق ما يحصل لي).

قال لي الضابط: هل تنكر صوتكَ أيضاً؟

قلت: لا.

فخرجوا وهم يعبسون في وجهي ويرمقونني بنظراتِهم الحانقة، عادت غدير إلى إفادتها تقول بصوتٍ متقطّع وهي تنشج: هذه ليسَت أوَّل مرَّة يطلب مني هذا المطلب يا حضرة الضابط، منذ عدَّة سنوات قبل أن أنجب ابنَتي، أذكر جاءت غجريَّة إلى بيتنا تشحذ، وكان في البيت، وعندما رآها، ناداني وطلب مني أن أقنعها له، يومها انصدَمتُ به، وليتني طلبتُ منه الطَلاق، نعم لقد أخطأتُ عندما تركتُ البيت وذهبتُ إلى أهلي، بعد أسبوعٍ جاءَ وأعادني، لم أفضحه، ولم أقل الحقيقة لأهلي حرصاً على سمعته، وحتى الآن لا أحد يعرف غيري، وهذه هي المرَّة الأولى التي أتحدَّث فيها لأحد.

يومها قلتُ لأهلي بأنني متضايقة بسبب خلاف حصل بيننا، وأريد أن أبقى عندهم عدَّة أيام حتى أهدأ.

في تلك اللحظات وأنا أنظر إليها، لا أدري لماذا راودني شعورٌ عميق فيما لو التفتَت إليّ ولو للحظة واحدة لتلتقي فيها نظراتُها بنظراتي، لكنَّها كانَت حريصة على عدم حصول ذلك.

قالَت: وتكرَّرَ ذلك يا حضرة الضابط عدَّة مرات عندما كانت تأتي غجريّات، وكنتُ أحتمل، وأبتلع المرارة.

صمتَتْ قليلاً وهي تنشج وتمسح دموعها، ثم قالَت: لم أستطع أن أملك نفسي، عندما سمعته يطلب مني هذا المطلب بحق ابنتنا بعد أن حطَّم الباب، فصرختُ في وجهه، لكنَّه سارع إلى المطبخ، وحمل الصحن الزجاجي، حطَّمه بالحائط، وتهجَّم عليّ ليقتلني حتى لا أفضحه، قال بأنه بعد ذلك سوف يجرجر جثتي إلى الحمّام ويرش عليّ المازوت، ثم

يحرقني، ويدَّعي بأنني أحرقتُ نفسي حتى يخفي معالم جريمته، وبعدها سوف يتفرَّد بالبنت. أنت في مقام أخي يا حضرة الضابط، لم أحتمل ما طلبه مني وكيف لأبٍ يفعلها مع ابنته.. فخلعتُ له ثيابي حتى تعرَّيت وقلت: أنا زوجتك.. تعال خذ ما تريد.

قال بكل برودة أعصاب بأنَّه يشتهي البنت ويُريد أن يطفئ شهوته بِها. وعندما رأيته يتهجم على غرفة البنت، ارتديتُ ثيابي وهربتُ، وقبل أن أخرج إلى الشارع لحقني وطعنني، ثم كسر القطعة التي كانت في يده حتى لا تظهر بصماته عليها.

في تلك اللحظات كنتُ مستغرِقاً بالنظر إليها وأحاول أن أقنع نفسي بأنّها ليست غدير التي عشتُ معها كل تلك السنوات.

قالَت هذه المرة بصوتٍ خافتٍ مُنكسرٍ: طمّني على ابنتي يا حضرة الضابط، هل هي بخير، قلبي يحترق عليها.

قال: الحمد لله الشباب لحقوه وسحبوه من غرفتِها قبل أن يتمكَّن من أي اعتداء عليها، اطمئنّي ابنتك سليمة، هي في أيدٍ أمينة الآن.

همس بشيءٍ للشخص الذي يكتب، ثم قال لها: اذهبي إلى بيتك وارتاحي يا بنتي، كان الله في عونك.

قالها ورفع سماعة الهاتف، طلب من أحد العناصر أن يسلّم لها البنت، ويوصلهما إلى البيت.

خرجت وهي تقول بنأمةٍ: رغم كل الذي حصل، يبقى زوجي.. رفقاً بِه يا حضرة الضابط عسى أن يهديه الله ويعود إلى جادة الصواب.

بخروجها صوَّبَ إليّ نظرات حادَّة وقال وهو يهزّ رأسه بعصبيَّة: ماهي أقوالك؟

قلت: كل ما قالته محض افتراءات يا حضرة الضابط.

صدرت منه ضحكة تشبه البُكاء، وكانت المرة الأولى التي أرى فيها مثل تلك الضحكة الغريبة، وفي لحظةٍ التبسَ عليّ الأمر بين إن كان يضحك أم يبكي: قل شيئاً مُقنِعاً.. ما مصلحة زوجة مستقرَّة في زواجها أن تفتري بمثل هذا الكلام على زوجها؟ قالها وقد توقَّف عن الضحك بغتةً. أردف يقول: اعتبرني سفيهاً وصدَّقتُ كلامها بسفاهتي، قل لي ما مصلحتها كي تخرب بيتها بهذا الشكل؟

فكَّرتُ أن أُخبره بخيانتها، لكن أدركت بأن كلامي سيكون بارِداً لأنّ أوانه قد فات، وأنَّه لم يعد في مكانه ولا زمنه. كما أنَّني لا أملك دليلاً.

أدركت مدى الذكاء الذي تتمتَّع به، ومدى مقدرتها على توظيف ذاك الذكاء بهذا الشكل الانتقامي. أدركتُ كم كنتُ ساذجاً عندما كنتُ أتغاضى النظر عَن أمورٍ كثيرة كانت تبدر مِنها وأعتبرها تصدر بشكلٍ غير مقصود من زوجةٍ بسيطة.

قال الضابط: أنت أمام ثبوتيات وأدلّة للتحرّش بابنتك، والشروع بقتل زوجتك وطعنها، بالمقابل عليك أن تَدعَم كلامك بأدلّة وشواهد ولا تكتفي بقول أنَّكَ بريء، أو أنّها تفتري عليك، هذا لا يفيدك بشيء.

اسودَّت الدُنيا كلّها أمام عينَي، وأنا أتخيَّل حال ابنتي الوحيدة وهي تعرف بأن أمّها عاهِرة، وأن أباها متَّهم بالتحرّش بِها، وأي مستقبلٍ سيكون لها، ومَن سيتقدَّم ليتزوَّجها.

ابنَتي التي قرَّرتُ أن أكرّس كل حياتي حتى تكون امرأة ناجحة في الحياة، ابنتي التي أعتبرها مستقبلي وأحلم أن أرى أحفادي منها. صرتُ أخبّط على رأسي بكفَّي وأهمهم: في أي مصيدةٍ أوقعتُ نفسي، ما السبيل لفكاكي منها.. ليتني قتلتها وقتلتُ الصائغ، لكان ذلك عبارة عن حادثة شرف بسبب وجود الأدلّة الدامغة وانتهى الأمر حتى لو تعرَّضتُ للسجن سنة أو سنتَين بدعوى الحقّ العام.

في اليوم التالي أحالوني إلى القاضي، وبعد شهرَين من الجلسات، كانت النتيجة أن حَكَم ببراءتي من تهمة التحرّش بسبب عدم وجود دليل مادّي، وحَكَمَ بسجني ستة أشهر عن تهمة الاعتداء على غدير بأداة حادّة.

الفصل السابع
عودة إلى طقوس السجن

عدتُ إلى ذات السجن، ولكن إلى مهجعٍ آخر، بدوت كما لو أنَّني اعتدتُ على طقوس السجن، ذات الروتين الذي حفظته، لا جديد، يجد الإنسانُ وقتاً كافياً في السجن للاختلاء بنفسه، لأخذ أقساطٍ من الراحة، يشعر بأنَّه متحرّر من المسؤوليَّة، فهناك مَن يأتي لك بمقوّمات الحياة، يؤمّن لك الماء والكهرباء، الطعام والشراب، الحمّام، المنامة، الأمان. وكالعادة كان أغلب المساجين بسبب قانون العنف الأسري الذي لا أحد يعرف كيف تسرّبَ إلى قوانيننا.

وكذلك بسبب جرائم القتل، ولكن أغلب هذه الجرائم أيضاً كان مرجعها هذا القانون الغريب. فبمجرَّد أن ترفع المرأة سماعة الهاتف، وتقول فقط بأن زوجها يُزعجها، حتى تحضر دوريَّة مدجَّجة بالسلاح، وتعتقل الزوج دون أي كلام معه.

وعندما يريد أن يُخبِرهم بأن لا شيء من ذلك حدث، يقولون: هذا الكلام لا علاقة لنا به، نحن لدينا شكوى من زوجتك بأنَّكَ تُهدّدها. قل ما تشاء أمام القاضي.

فيودعه القاضي في السجن حتى تأتي الزوجة وتتنازل عن حقّها، أو يوكل محامياً ويخرج بكفالة.

وعندما يعود إلى بيته، تكرّر الزوجة ذات الحركة، فيتكرَّر عليه ذات الأمر، حتى يضجر ويجد نفسه أمام أن يقتل زوجته انتقاماً منها، أو يترك لها البيت، وعندها ستُلزمه المحكمة بالنفقة أيضاً. وإذا تأخَّر عن تسديدها شهراً، يضعونه في السجن حتى يدفع.

لكن الأمر الغريب الذي تناقَل إلينا هذه المرة في السجن، هو أن أحد القُضاة في جلسة النطق بالحكم على شخصٍ كان قد قتل زوجته، واعترف بذلك، وقام بتمثيل تفاصيل عملية القتل، قد بدرَ منه أمرٌ غريب فاجأ به القُضاة، ومعاونيهم، والحضور، وكل مَن كان متواجِداً في قاعة جلسة النطق بالحكم. فقد أتوا بالمُتَّهم، ومن جديد اعترفَ بأنَّه قد قتل زوجته مع سبق الإصرار والترصّد بالسكّين. ومن تلقاء نفسه ودون أي تحرّيات، ذهب إلى الشرطة واعترف بتفاصيل ما ارتكب.

ما بَدَرَ من هذا القاضي الذي كان يتولَّى التحقيق، لم يكن يتخيَّله أحد، فكان مِن المتوقَّع أن يُصدِر حُكماً بالإعدام عليه، أو بالسجن المؤبَّد بسبب اعترافه بالقتل العمد.

وعندما تجهَّزَ الجميع وحان وقت النطق بالحكم، أعلن القاضي براءة المُتَّهم، فكان ذلك بمثابة الصعقة للجميع. حتى أن زملاءه القُضاة صاروا يتبادلون نظرات الريبة فيما بينهم، أو لعلَّه في وضعٍ نفسيٍ ما، فالتبسَ عليه الأمر.

وما زاد في الأمر دهشةً أنَّه صار يُدافِع عن المتَّهم، ويقول بأنَّه فعل ذلك دِفاعاً عن النفس، كل هذا والقُضاة وجميع الحضور يزدادون ذهولاً.

قال: ليس بالضرورة أن تُدافع عن نفسك أمام شخصٍ أشهر عليكَ سِلاحاً، بل قد يُحاصِرَكَ بِما هو أكثر وحشية مِن السِلاح. هذا الرجل كان سيقضي بنوبةٍ قلبيَّة إذا ما فعل ذلك، لأن زوجته حاصرته من كل الجِهات، ولم تترك له مُتنفَّساً. وقد تابعتُ خلال الجلسات الماضية التحقيق الدقيق معه ومع بعض الشهود حتى تبيَّنَتْ لي هذه الحقيقة.

فقد ارتفع به الضغط عدَّة مرات، وكذلك أُصيب بمرض السكَّر، وهي لم تكن ترحمه، وكانت تُصعّد في حربها عليه وتجريده من بيته وأولاده، وسمعته، جرجرته إلى المحاكم والسجون ومراكز الشرطة، حتى أنَّه اعترفَ لي بأنّ رنين الهاتف بات يُفزِعه من كَثرة ما صار يرنّ مِن الجِهات الحكوميَّة لتبليغه بالامتثال، أو حضور المحاكم.

يوماً إثر يوم كانَت صحَّته تزداد سوءاً حتى أنَّه في ذاك اليوم لم يعد يحتمل، وأحسَّ بأنَّه سينفجر، وقال لي: ذهبتُ كي لا أستسلم لقتلها لي، وأدافع عن حقّي في الحياة من هذه المرأة التي أرادت أن تسلبني حياتي، وعندما تأكدتُ بأنَّها اختفت من الحياة، لأوَّل مرة شعرتُ بالطمأنينة. وقلت: ليحصل ما يحصل، ما يهم هو ألّا أستسلم لها وهي تعرف جيداً بأنَّها تُريد قتلي بتلك الطريقة العدوانيَّة.

أيّها الزملاء، أيّها الحضور، في إحدى ليالي (ألف ليلة وليلة) كان يوجد ملكٌ أُصيب ببرص في جسده وعجز الأطباء عَن تقديم العلاج له، وذاتَ يوم جاء حكيمٌ توجد لديه خبرة جيّدة في علاج هذا المرض، وسمع بأن الملك مُصابٌ به، فذهب وطلب مقابلته، وأخبره بأنّه زائِرٌ وعندما سمع بمرضه جاء إليه قائلاً: (أيها الملك بلغني ما اعتراك من هذا الذي في

جسدك وأن كثيراً من الأطباء لم يعرفوا الحيلة في زواله وها أنا أداويك أيها الملك ولا أسقيك دواء ولا أدهنك بدهن)

استغرب الملك لذلك لأنّه جمع الأطباء والحكماء من كل مكانٍ ولم ينجح علاج أحدٍ منهم في شفائِه من هذا البرص. فقال له: (كيف تفعل، فو الله لو برأتني أغنيك لولد الولد وأنعم عليك، ما تتمناه فهو لك وتكون نديمي وحبيبي).

فأمر الملك بتخصيص بيتٍ له: (حط فيه كتبه وأدويته وعقاقيره ثم استخرج الأدوية والعقاقير وجعل منها صولجاناً وجوفه وعمل له قصبة وصنع له كرة بمعرفته.

وقال: خذ هذا الصولجان واقبض عليه مثل هذه القبضة وامش في الميدان واضرب به الكرة بقوتك حتى يعرق كفك وجسدك فينفذ الدواء من كفك فيسري في سائر جسدك فإذا عرقت وأثر الدواء فيك فارجع إلى قصرك وادخل الحمام واغتسل ونم فقد برئت والسلام).

قام الملك بتنفيذ ما قاله الحكيم وتماثل للشفاء. وأكرم الحكيم وجعله مقرَّباً منه وقال لحاشيته: (هذا داواني من ظاهر جسدي ولم يدهنني بدهان، فو الله ما هذه إلا حكمة بالغة، فيجب علي لهذا الرجل الإنعام والإكرام وأن أتخذه جليساً وأنيساً مدى الزمان).

لكن الذي حصل أن أحد وزراء الملك حسد الحكيم على هذه المنزلة، وأراد أن يؤجّج الملك عليه، فقال له بأنّه جاسوس جاء كي يقتله بدهاء وأن حضوره إلى البلاد لم يكن بمحض صدفة بل بشكلٍ مخطّطٍ له، وقد استخدم العلاج كوسيلة، للتقرّب منه حتى يستطيع قتله بسهولةٍ، فكما

أنّه عالجه دون دواء سوف يقتله أيضاً دون أن يعطيه شيئاً. فلم يصدّقه الملك، ولكنّه لم يفقد الأمل وصار يُكرّر عليه ما يقول حتى أقنعه في النهاية فقال الملك: (صدقت فقد يكون كما ذكرت أيها الوزير الناصح، فلعل هذا الحكيم أتى جاسوساً في طلب هلاكي، وإذا كان أبرأني بشيء أمسكته بيدي فإنه يقدر أن يهلكني بشيء أشمه) وعندها قال له الوزير: (أرسل إليه في هذا الوقت واطلبه، فإن حضر فاضرب عنقه فتكفي شره وتستريح منه واغدر به قبل أن يغدر بك). وأتى به الملك، وعندما علِمَ بأنّه سيقتله لا محالة، طلب منه أن يسمح له بالعودة إلى البيت كي يوزّع ما لديه من كتب الطب، وسوف يهديه كتاباً: (فيه شيء لا يحصى وأقل ما فيه من الأسرار إذا قطعت رأسي وفتحته وعددت ثلاث ورقات ثم تقرأ ثلاثة أسطر من الصحيفة التي على يسارك فإن الرأس تكلمك وتجاوبك عن جميع ما سألتها عنه). فسمح له الملك وجاء بالكِتاب قائلاً: (أيها الملك خذ هذا الكتاب ولا تعمل به، حتى تقطع رأسي فإذا قطعتها فاجعلها في ذلك الطبق وأمر بكبسها على ذلك الذرور فإذا فعلت ذلك فإن دمها ينقطع، ثم افتح الكتاب. ففتحه الملك فوجده ملصوقاً فحط إصبعه في فمه وبله بريقه وفتح أول ورقة والثانية والثالثة والورق ما ينفتح إلا بجهد، ففتح الملك ست ورقات ونظر فيها فلم يجد كتابة فقال الملك: أيها الحكيم ما فيه شيء مكتوب فقال الحكيم: قلب زيادة على ذلك. فقلب فيه زيادة فلم يكن إلا قليلاً من الزمان حتى سرى فيه السم لوقته وساعته فإن الكتاب كان مسموماً فعند ذلك تزحزح الملك وصاح وقد قال: سرى فيّ السم).

نعم يا مَن قد تستغربون لهذا الحُكم، أقول بأنَّني أرضيتُ ضميري المِهَني، والحقوقي، والإنساني، مِن خلال هذا الحكم الذي هو مِن صلب القانون.

وفي حاشية هذا الحُكم الذي سوف أرسل نسخةً منه إلى السيد وزير الداخلية، فقد شرحتُ له بأن يُصدِرَ تعميماً إلى جميع مراكز الشرطة بألّا يقتحموا على الناس بيوتهم لمجرَّد أن امرأةً أرادت أن تُضلَّهم، كي تُذل زوجها ويُخرِجوه أمام أولاده بقوَّة السِلاح. اقترحتُ بألّا يُلبّوا أي شكوى باستثناء القتل، أو الكسر، أو الطعن، وهذا هو مضمون هذا القانون الذي نهى عَن العنف.

والفرق شاسعٌ بين الضرب والعنف، ودون أن نتَّخذ هذا القانون ذريعةً لاقتحام بيوت الناس عليهم، والتسبّب في تفشّي حالات الطلاق، والانتقامات بأشكالٍ مُختلفة بين الناس، كذلك للحدّ مِن كل هذه الأفواج التي تدخل السجون لمجرَّد مكالمة هاتفية من الزوجة.

لقد تمادينا كثيراً على أعرافنا وأسأنا إلى قدسيَّة البيوت الزوجيّة، ونحن نخيف الأزواج بأسلحتنا ونقتحم عليهم بيوتهم، نجرجرهم بالقوَّة والتهديد من بيوتهم.

صمتَ قليلاً وأردف يقول: بعد نحو أسبوعين على هذا الحدث القضائي الذي صار حديث الساعة، جاءنا رجلٌ إلى السجن، وقال بأنَّه أستاذ جامعي، ورأيتني أميل إليه. فقال بأنَّه في السجن لأنَّه عاد إلى البيت ولم يجد زوجته، وعندما عادت، صار يُعاتبها بسبب خروجها من

البيت دون أن تُخبره، فقالت بأنّه يُريد أن يستعبدها، وأنَّ قانون العنف الأسري يمنعه من هذا الاستعباد.

فقال: أي عنفٍ مارسته عليكِ وأنا أطلب منكِ ألّا تخرجي من البيت دون علمي.

قالت: ما فعلته هو أسوأ من ضربي، لو ضربتني لكان أهون عليّ من منعي الخروج من البيت والتحكّم بحرّيتي الشخصيَّة، نحنُ الآن في ظل قانون العنف الأسري.

وعلى الفور اتَّصلت بالشرطة وقالت بأنّ زوجها يُهدّدها ويحجز حرّيتها. فجاءت الشرطة بعد نصف ساعة، واقتادته إلى القضاء، وعندما عَلِمَ بأن القاضي حكم بسجنه عشرة أيام على أن يتم استكمال التحقيق بعد خروجه من السجن، عندها طلَّقها داخل المحكمة، وجاء إلى السجن.

صمتَ نيار، ثم قال: أمضيتُ فترة حكمي في السجن، وعندما خرجت، خطواتي الأولى كانت نحو بيتي الذي هو نتيجة شقاء عمري، وكم رزحتُ تحت القروض حتى بنيتُ هذا البيت، وجهَّزته كي ألقى فيه الراحة، ولكنّها عادت وأغلقت الباب عندما رأتني.

صرتُ أخبّط على الباب بقوَّة وأرفع صوتي كي تفتح، كنتُ أتحرَّق شوقاً ولو إلى نظرةٍ واحدةٍ من ابنَتي وهي على بُعد خَطواتٍ منّي.

ولكنَّها لم ترد حتى خرج بعض الجوار من بيوتِهم ينظرون إليّ ويتحادثون مع بعضهم البعض.

تركتُ الباب ورحتُ إلى بيت عمّي الذي كانت مقاطعته لي أخف من جميع أقربائي، أمضيتُ يومَين في بيته وأنا أحاول الاتصال الهاتفي بغدير، دون أن تردّ، اتصلتُ بها بهاتف عمّي، لكنها عندما سمعت أوَّل نبرةٍ من صوتي، أغلقت الخط على الفور.

أرسلتُ لها رسالة من هاتفي قلت بأنني أريد أن أرى ابنتي، اشتقتُ إليها.

أجابتني: لو كانت ابنتك لَما طلبتَ مني أن تغتصبها، إذا أرسلتَ أي شخص ليتوسط لك حتى تراها، سأفضحك، وسأخبر ابنتك بأنك حاولت أن تغتصبها عندما كانت نائمة وأنا منعتك.

توقَّفَ عن الكلام وغار في صمتٍ عميق، وأنا أصوَّب نظراتي إليه بين وهلة وأخرى.

الفصل الثامن
النوم بأقراص مهدِّئة

حملتُ هاتفي الذي كان مستقرّاً إلى جانبي، كتبتُ رسالة واتس آب إلى ريناد: اجلبي الطعام.

بعد لحظاتٍ كتبَتْ: لقد برد كثيراً، سأسخّنه حالاً وأجلبه.

لبث نيار صامِتاً وهو يضغط على صدغَيه وينظر إلى الأرض بعينَين بارزتَين، ولبثتُ أنظر إليه دون حراك حتى كَسَرت زوجتي الصمت العميق الذي طَبَقَ علينا عندما طَرَقَتْ الباب ودخَلَت حاملةً سفرة الطعام، حطَّتها أمامنا قائلة ببسمة مهذّبة: أهلاً وسهلاً.

قلت: أتعرفين مَن هذا الشخص؟

لبثت الابتسامة المهذَبة على ثغرها وهزَّت رأسها بالنفي وهي تنظر إليه.

قلت: حدَّثتكِ عنه كثيراً.

نظرت إليّ وهزَّت رأسها هزَّة استفساريَّة، فقلت: نيار..

قالَت: أهلاً وسهلاً أستاذ نيار.. من كَثرة حب بهاء لك أطلق اسمك على ابننا.

بدت بأنَّها لم تكن راغِبة أن تأكل معنا، لكن عندما عرفته، أتت بملعقتَين ومعها ابني نيار وقالَت له: اذهب إلى عمِّكَ نيار يا نيار.

فقال نيار: تعال حبيبي. وصار ينظر إليه ويقبّله، يُداعبه، يمسح على شعره قائِلاً: صدّقني يا بهاء نفس المشاعر التي راودتك، راودتني أيضاً، عندما حملتْ غدير، قلت بأنّني سأطلق اسمكَ على المولود إذا كان ولداً، وعندما وضَعَتْ البنت، بحثتُ عن اسم يكون الأقرب من اسمك، فأسميتها بهية.

بدأنا نتناول الطعام الذي صنعته ريناد احتفاءً بزيارة صديقي القديم لي، والمُكوَّن من الرز، والدجاج، والفاصولياء، واللحم الناعم مع البندورة.

قال وهو يتناول الطعام: شكراً يا أم نيار على هذه الوجبة اللذيذة التي لم أذقها منذ وقتٍ طويل.

قالت: بالهنا والعافية شرَّفتنا يا أستاذ نيار.

قلت: هذا بيتك، في أي وقتٍ تريد، تعال ولا تتردَّد، أنتَ تُكرمنا وتشرّفنا بزيارتك.

بعد أن انتهينا من تناول الطعام، أتت زوجتي بإبريقٍ من الشاي وانصرفت.

قال بصوتٍ هادئٍ بعد أن رشف رشفةً طويلة من كأس الشاي الحار ووضع الكأس أمامه: لا يوجد لدي أي هدف الآن يا بهاء قبل أن أرى ابنَتي وأجعلها تعيش معي حتى لو سافرنا إلى مدينة أخرى، ومستعدٌّ أن أترك البيت لغدير وأسجّله باسمِها. بهيَّة هي روحي يا بهاء.. روحي.

أردتُ من غدير أن تدعني أرى ابنَتي، وفي اليوم التالي أرسلتُ لها رسالة وقلت: قلبي يحترق على بهية أريد أن أراها ولو خارج البيت.

لكنَّها لم تردّ.

بعد يومَين ذهبتُ أطرق الباب، وعندما فَتَحَتْ، قلت: لا تغلقي الباب، أريد أن أرى ابنتي هنا فقط خمس دقائق، لن أدخل.

قالَت: من الأفضل لك ولي أن تنسى هذا البيت، واعتبر بأنَّني خادِمة أربّي لك ابنتَك بالمجّان.

قلت: لا أستَطيع أن أنسى ابنَتي، أريد أن أراها وتعيش معي.

قالت: حتى تشوّه صورتي أمامها وتقول لها بأنني خائنة لتتركني وتعيش معك في هذا البيت، وتطردني لأذهب إلى أهلي كي يقتلونني، وأصبح وصمة عار عليهم وعلى ابنَتي.

أنتَ تُريد أن تُدمّرني وتُدمّر أهلي وابنتي حتى تنتقم منّي.

قلت: أليسَت هذه هي الحقيقة رغم أنَّني لا أريد لابنتي أن تعرف، حرصاً عليها.

قالت: لكن لن أسمح لك أن تدمّرني وسأدافع عن نفسي حتى آخر رمق من حياتي.

قلت: لماذا تشوّهين سمعتي، وأنا سترتكِ، متى حاولتُ اغتصاب صديقتكِ.. متى تحرَّشتُ بابنَتي؟!

قالَت: هذه هي الطريقة الوحيدة التي أصدُّك بها عَن البيت، ماذا تُريدني أن أقول: خنته وأريد أن أطرده من بيته وأحرمه من رؤية ابنته.. هذه احتياطاتي لأنّني أتوقَّع أنَّكَ في أي لحظة يمكن أن تُخبر ابنتي بالحقيقة أو تُخبر أهلي، عندها لن يصدّقك أحد لأنّكَ إنسان مشوَّه بأنظارهم، وكلّما شوَّهتكَ أكثر، اطمأننتُ على نفسي أكثر. أي شخصٍ آخر غيرك كان سيموت بأزمةٍ قلبية، ألا مشاعر لديك وقد خسرتَ كل شيء:

بيتك، ابنتك، عملك، سمعتك، نقودك، أقرباءك، أصدقاءك.. مت ما الذي تفعله في الحياة، الموت خير لك من هذه المذلة التي وضعتكَ فيها.. لا يمكن أن نعيش معاً في الحياة ونكون سعداء، إما أن تعيش أنت، أو أعيش أنا. موت أحدنا هو بمثابة حياة للآخر.

في تلك اللحظات خطر لي أن أعالجها عند طبيبٍ نفسي وأعمل ما بجهدي كي تصل إلى قناعةٍ بأنَّها يمكن أن تعيش حياةً سعيدة، يمكن أن تفتح صفحةً جديدة مِن حياتِها. قلت: ألا يوجد حلّ وسط؟

قالَت: الحل الوحيد هو أن تموت كي أعيش بطمأنينة، أو أموت وتعيش بطمأنينة.

قلت: يا غدير أنتِ تعتقدين بأنَّه الحل الوحيد، يمكن لكِ ببساطة أن تتزوَّجي وتنجبي عدة أبناء ويكون لك منهم أحفاد، لا تُضيّقي الحياة على نفسكِ وعليّ وعلى ابنتنا. البنت تحتاج إلى أبيها خاصّةً في هذا العمر، بأيّ حقٍّ تجيزي لنفسك أن تحرمي ابنةً من أبيها، وتحرمي أباً من ابنته، تشويهكِ لي سيتحوَّل إلى جرح لها كما أنّ تشويهي لك سيتحوَّل لها إلى جرح، ولهذا السبب سترتكِ، ولا أجيز لنفسي بأي حالٍ مِن الأحوال أن أحرمك منها أو أحرمها منكِ. يمكن لنا أن نستفيد من خبرة طبيب نفسي وسأساعدكِ بكل إمكاناتي حتى تفتحي صفحة جديدة من حياتك.

الحياة واسعة وغنيَّة يا غدير أكثر من أي تصوّر عنها، أرجوك لا تكوني عنيدة. كلّنا يمكن أن نخطئ، يمكن أن تزل أقدامنا، لكن هذا ليس كل شيء ولا تنتهي الحياة، وخطيئتكِ لا تعني نهاية الحياة، يمكن لك إصلاحها. الحياة جميلة يا غدير، والفُرَص المُتاحة لكِ هي أكثر مِن

الفُرَص المُتاحة لي. يمكن لك أن تتزوجّي رجلاً يسكنكِ في بيتٍ أفضل من هذا بكثير، تنجبي بدل البنت عدَّة أبناء، وضعه المادي يكون أفضل من وضعي. أمّا أنا لا أملك ما أتزوَّج به، ولا أن أشتري بيتاً غير بيتي هذا، وحتى الوظيفة فُصِلتُ منها، ولا يوجد لدي دخل ثابت، ولا ضمان صحّي، ولا راتب تقاعدي مهما تقدَّمتُ في العمر.

قالَت: سأعرف كيف أتخلَّص منك، سأحرّض أخي أجاويد على قتلك، سأقول له بأنَّك تهدّدني بالطعن في شرفي انتقاماً منّي، سيغلي الدم في عروقه ويجنّ جنونه، صدّقني لن يتركك.

قلت: لكن أهلي لن يسكتوا، سيقتلونه.

قالَت: لا يهمّني حتى لو قتلوه، المهم سيكون قد نفَّذ خطَّتي وأراحني منك.

قلت: أنتِ تسدّين أمامي كل الطرق وتفرضين عليّ أن أقتلك، ولا أخفي بأنّني أرغب أن أُقطّعكِ تقطيعاً حتى يشفى غليلي، لقد أحرقتِ قلبي، دمَّرتِ كل شيء في حياتي، حتى ابنَتي الوحيدة تريدين حرماني منها، وحرمانها مني.

أية جريمة ارتكبتُ عندما تزوَّجتك وأحسنتُ إليك، حتى عندما أخطأتِ بحق نفسك وحقّي وحق ابنتنا، سترتك، وقلت: اذهبي بحال سبيلك، حفاظاً على مستقبل ابنَتي.

لكن رغم كل هذا وحتى لا ترغمي عليّ أن أقتلك، سأترك البَيت والبنت لك، فقط دعيني أراها ولو في الشهر ساعتَين في إحدى الأماكن، ولا تشوّهي سمعتي بالكذب والافتراء.

قالَت: ليس بيدي، مجرّد وجودك في الحياة يُسبّب لي القلق، أنا الآن أنام على الأقراص المُهدّئة، من يومها لم أنم ليلة واحدة براحة، أسهر وأنا أفكّر بكل ما يمكنك أن تفعله بي، تقتلني، تُشهّر بي وبأهلي، وستتبرّأ مني ابنَتي، أفكّر بكل ما يمكن له أن يحصل، وكلّما أسمع صوتاً في الليل، أشعر بهلع وأتخيَّلكَ تقفز من فوق السطح إليّ، كلّما أمشي في الطريق، أتخيَّلك تهجم عليّ وتطعنني من الخلف.

أحياناً أقول: ليتك قتلتني وأرحتني في تلك اللحظة، ويخطر لي بأنَّكَ تقصَّدتَ ذلك حتى تبقى تقتلني كل يوم وتفسد عليّ كل حياتي، أنا أموت كل يوم، وأنتَ كالحصان لا شيء بك، أتقطَّع كل يوم، تراكَمَت عليّ الأمراض: قرحة، ضغط، سكّر، ربو. صدّقني أنا أموت ببطء. لا يمر عليّ شهر دون أن أذهب إلى الطبيب مرَّتَين أو أكثر، كل شيء فيَّ صار يوجعني، ورأسي يكاد ينفجر، لا يتركه الوجع ليلاً نهاراً، لا يفارق الغثيان معدتي، أعصابي متوتّرة، وعندما أغفو قليلاً تحت ثقل الإرهاق، لا أراني إلّا أن أجفل وأنا أراك في الحلم، أو أرى الكوابيس المُفزِعة.

قلت: كيف عشتُ معك كل تلك السنوات، اخرجي من بيتي يا فاجِرة.

أطلقَتْ صرخة مدوّية، وخبَّطَت رأسها بالحائط، تهجَّمَت عليّ والدماء تنزّ من رأسِها، تلطَّخَت ثيابي بالدِماء. التمَّ حولنا الجيران وهم يقولون لي: ماذا تُريد من هذه المسكينة دعها بحالِها، حرام عليك، ما ذنبها؟!.

صارت الدموع تسيل من عينَي بغزارة وأنا أنظر إليهم، وعدتُ أُهرولُ إلى بيت عمّي.

في اليوم التالي جاءت دورية شرطة إلى بيت عمّي وألقت القبض عليّ.

وجَّه لي الضابط المُحقّق اتِّهاماً بحيازة حبوب مخدّرة، وأظهر الضابط كيساً صغيراً، فتحه لتظهر كميَّة من الحبوب.

قلت: أنتَ مخطئ يا حضرة الضابط، وقد يكون ذلك نتيجة تشابه في الأسماء.

هبَّ مُنتصِباً على قدمَيه قائلاً بغيظ: هل أنتَ أحمقٌ أم تتحامق علينا؟

قلت: أنا متأكّد ممّا أقول لأنَّني بعيدٌ كل البعد عَن المُخدِّرات.

قال: بل أنتَ قريبٌ كل القُرب منها!

قلت: كيف؟

قال: رغم أنّني لا أريد للمرأة أن تفشي أسرار زوجها، ولكنّني احترمتُ شجاعة زوجتك وحرصها على سلامة بيتها.

قلت: أوضح لي من فضلك؟

نظر إليّ شزراً، وضغط على زرٍّ ضغطتَين مُتتاليتَين، وبعد لحظات فوجئتُ بدخول غدير.

وفور دخولِها نظرت إليَّ وقالَت: أعذرني، هذه المرّة لم أفِ بوعدي معك، وجئتُ أخبرتُ المُكافحة بهذه الحبوب التي جلبتها البارِحة إلى البيت، وطلبتَ منّي أن أُخفيها.

أحسستُ بأن الدم غدا يغلي في عروقي وأنا أنظر إليها. أردفت تقول: لقد سترتك ثلاث مرّات سابِقة، هل تذكر أم أذكِّرك؟

قال الضابط: تحدَّثي يا سيِّدة غدير.

قالَت: في المرَّة الأولى قلت بأنّها لصديقك مصطفى، وفي المرّة الثانية قلت بأنَّها لصديقك تيسير زميلك في مديرية الزراعة الذي زارنا منذ مدَّة مع زوجته في البيت. وفي المرّة الثالثة قلت بأنّها لجارنا حمزة، صاحب الدكّان في الحارة، وهذه المرّة قلت بأنَّها لعمّك.

تسارعَت بي أنفاسي ولم أعد قادِراً على التحكّم بنفسي، فانقضضتُ عليها، ووقعت على الأرض، حلَّقتُ أصابع يدَي حول حلقها وصرتُ أضغط بقوّة والضابط يشدّني من شعري، ودخل عناصر مِن الباب عند ارتفاع أصواتنا واستطاعوا أن ينتزعوا يدَي عنها وأخرجوها على الفور.

❁❁❁

أمضيتُ شهراً كاملاً تحت التعذيب وهم يطلبون منّي أن أعترف بأسماء الذين أتعامل معهم في تجارة وتعاطي المُخدّرات، أسماء الذين اشتريتُ منهم، والذين بعتهم. وكانوا قد جلبوا الذين ذكرت أسماءهم، فيقولون لي بين يوم وآخر بأن فلاناً منهم اعترف بالأسماء، وإذا اعترفتُ، سيُفرجون عنّي نتيجة تعاوني معهم.

بعد شهر من التعذيب دون إجابة كنتُ أحياناً أفقد الوعي من كَثرة الضرب واللسع بأدوات كهربائية، أخذوني إلى القاضي الذي حكم ببراءتنا نحن الأربعة معاً بسبب عدم وجود أدلّة كافية.

قلت: كيف تعيش الآن؟

تنهَّدَ تنهيدة عميقة وقال: كل شيءٍ في حياتي تغيَّر، انقلب كلُّ شيء بي رأساً على عَقب كما لو أنَّني شخصٌ غريبٌ يعيش في موطنٍ غريب لا يعرف أحداً، ولا أحد يعرفه فيه.

عندما خرجتُ من السجن وذهبتُ إلى وظيفتي في مديرية الزراعة، فوجئتُ بالاستياء من زملائي وزميلاتي في العمل، وكنتُ أتوقَّع أنّهم سيُرحّبون بي بمناسبة خروجي من السجن وعودتي إلى العمل، لكن تبيَّن لي بأن غدير كانَت قد جاءت إليهم عندما كنتُ في السجن، وشهَّرَت بي وقالَت عني أشياءً مثيرة للاشمئزاز، الأمر الذي جعل المُدير يُصدر أمراً إداريّاً بفصلي من العمل. كانوا يشيحون وجوههم عنّي باشمئزاز كما لو أنّني حشرة.

ذهبتُ إلى ديوان الدائِرة كي أعرف سبب فصلي، كان قد كتب بأن ذلك حصل بسبب سجني لأسبابٍ أخلاقيّة، وانقطاعي الطويل عن الدوام، لأنني لم أكن مثبَّتاً، وكنتُ أعمل بصفة مهندس زراعي مياوم.

بعد ذلك كلما ذهبتُ إلى مكانٍ لي فيه معارف وأصدقاء، عرفتُ بأنَّها كانت ذهبت إلى هناك وشوَّهَت سمعتي بشكل يندى له الجبين، وبسبب ذلك، أكثر معارفي وأصدقائي وأقربائي حظروا رقم هاتفي، ومنهم مَن لا يرد مهما كرَّرتُ الاتّصال به، ومنهم مَن يرد بشكل مُختَصَر ويغلق الخط. هكذا تحوَّلتُ من كائنٍ مرغوب إلى كائنٍ منبوذ، من كائنٍ اجتماعي إلى كائنٍ منعزل. لا أعرف بالضبط ما الذي قالَته لهم عنّي حتى اتخذوا منّي هذه المواقف الحاسِمة دون أن يسمعونني.

حاولت أن أهدّئ نفسي وأنا أمشي في الشوارع الخالية بعد منتصف الليل، أمشي مسافاتٍ طويلة، طويلة جداً وأنا أحدّث نفسي، وأشرد بكل ما حصل معي. أحاول أن أقنع نفسي وأقول: الآن صار بإمكاني أن أفتح صفحةً جديدةً من حياتي، أستمتع بِها بشكل أفضل، أعمل بشكل أفضل، أنتج بشكل أفضل، أقدّم خدماتي للناس بشكل أفضل، أدَّخر شيئاً لابنَتي بشكلٍ أفضل، ابنَتي التي لن أتخلّى عنها بكل إمكاناتي.

لذلك استأجرتُ قبواً صغيراً، صرت أبحث عن عمل، بعد عشرة أيام من استئجاري القبو، رأيتُ صاحِبه يطرق عليّ الباب، ينظر إليّ نظرات مريبة وهو مرتبك، بعد قليلٍ أخرج مبلغاً من النقود، مدَّه إليّ وهو يقول: اعذرني يا بُني، أحتاج البيت، وهذه أجرة الشهر التي دفعتها مُقدَّماً، ومعها أجرة شهر هدية منّي حتى تستأجر بيتاً.

قلت: نحن بيننا عقد بستة أشهر، ولن أخرج إلاّ بشرطٍ واحد.

قال: ما هو؟

قلت: تقول لي الحقيقة التي جعلتك تطلب مني الخروج.

قال: البيت يلزمني.

قلت: إذا صارحتني بقول الحقيقة، سأصدّقك وأخرج الآن.

بعد قليلٍ من الصمت، قال: الحقيقة يا بُني أن زوجتَك جاءت وأخبرَتني بأشياءٍ والله أخجل أن أقولها لك. وأنا لديّ بنات، أرجوك دعني بحالي.

قلت: لن أخرج قبل ستة أشهر إلاّ إذا قلتَ لي الحقيقة.

صمتَ مرَّة أخرى وقال: زوجتك قالت بأنك استأجرتَ هذا البيت حتى تأتي بالنساء والرجال هنا، وأنك تتعاطى المخدرات، وأنّك كنتَ في السجن بسبب محاولتك أن تغتصب صديقتها، وأنك.... وصمت. قلت: أكمل وإلّا لن أخرج.

قال: حاولتَ اغتصاب ابنتك.. نصيحتي لك يا بُني دعكَ من ذلك، زوجتك يظهر أنّها ابنة حلال، ولن تجد في هذا الوقت امرأة صبورة وأصيلة مثلها. توسَّلَتْ لي أن أقنعك حتى تعود إلى بيتك رغم كل ما فعلته وستنسى كل شيء وتسامحك لأنّ ابنتك في هذا العمر بحاجة لك.

أعدتُ له أجرة الشهر التي قال بأنَّها هدية، وحسبتُ الأجرة بالأيام، أعطيته أجرة الأيام العشرة التي قضيتها في البيت، وخرجت.

بعد أيامٍ وجدتُ عملاً في فندق، وكنتُ أنام فيه، لكن بعد شهر طلب مني صاحب الفندق وهو ينظر إليّ نظرات مريبة أن أترك العمل، فعرفت السبب وتركت دون أن أناقشه.

يومها مشيتُ في الشارع، لا أعرف ما الذي حصل معي، فجأةً صرخت بأعلى صوتي: اتركيني.. اتركيني.. مزَّقتُ قميصي، شددتُ شعري.. لطمتُ وجهي: اتركيني.. اتركيني.. لا أريد أن أقتل أحداً.. لا أريد أن أقتل أحداً..

التمَّ الناس من حولي وأنا أمشي في الشارع وصوتي يرتفع ويتحشرج واسمع أصواتاً تقول: لا حول ولا قوة إلاّ بالله، هذه نهاية المخدّرات.

تعالى صوتٌ آخر: زوجته تحكي عنه فظاعات يندى لها الجبين.

ركضتُ بقوة حتى لا أسمع المزيد وأنا أصرخ وأشدّ شعري.

بعد أن نال مني الإرهاق، جلستُ على رصيف، وشردتُ لعلّي أصل إلى حلٍّ يضع حدّاً لمأساتي، ولم أجد سوى أن أقتلها، أو أتركها تقتلني ببطء، دون أن أصل إلى أي حلٍّ آخر. أما إذا ذهبتُ إلى بيتي كي أرى ابنَتي ولو للحظة واحِدة، فسيكون مصيري السجن.

صدّقني هذا كله يهون عليّ أمام تشويه سمعتي في هذه المدينة التي ولدتُ فيها وأعرف غالبيّة ناسها، ويعرفونني.

عندما أرى أحد هؤلاء الذين شوهَّتْ سمعتي لهم، تُدمّرني نظراته المُزدرية التي ينظرها إليّ بأسف.

❁❁❁

نهضتُ من الرصيف، كان بطني يقرقر جوعاً، ذهبتُ إلى مطعمٍ تناولتُ سندويشة فلافل، ثم اتَّجهتُ إلى حديقة كي أنام فيها. اجترحني شعورٌ بأنّني ورقةً سقطت عَن غُصنها. تمدَّدتُ على ظهري فوق الحشيش، توسَّدتُ حذائي، شعرتُ باسترخاء، حاولتُ أن أقنع نفسي بالتهدئة والتحمّل، بمحاولة الانسجام مع هذا الواقع، وأن أعمل مِن خلالِه دون يأس.

بدأتُ أعاتِب نفسي، وأكتشف بأن الإنسان دوماً عليه أن يسعى إلى إيجاد البديل، البيت الذي يسكنه، يمكن أن يذهب منه، عليه أن يكون قد رتَّبَ البديل، العمل الذي يقوم به، يمكن أن يذهب منه، علاقاته الاجتماعية يمكن أن تذهب منه، صداقاته يمكن أن تذهب منه، أمواله يمكن أن تذهب منه، نفوذه يمكن أن يذهب منه، عليه أن يحسب

حِساباً ويكون قد أتاح لنفسه البديل حتى يبقى واقِفاً على قدَمَيه لاجتياز المرحلة التحوّليَّة.

ذهبتُ إلى حيٍّ شعبيٍّ آخر، بحثتُ عن بيت للإيجار حتى وجدتُ بيتاً لرجلٍ في خمسينيّات العمر كان يعيش مع زوجته التي كانت تصغره بنحو عشر سنوات، ولم يكن لهما أولاد. كان قد قسَّم بيته إلى قسمين وفصلهما بحائطٍ مِن البلوك، ولم يكن الحائِط مرتفعاً وكنت أراهما عندما أقف أمام باب غرفتي.

ذات ليلةٍ سمعتُ طرقات على بابي، نهضتُ وكانت الساعة تشير إلى الثانية والنصف ليلاً، فتحتُ الباب ودخل صاحب البيت على الفور إلى الحوش دون أن يتحدَّث بكلمة، فوجئتُ وأنا أنظر إليه يتَّجه إلى غرفتي، لحقته وقلت: ماذا تُريد؟

ولم ينطق بكلمة وهو يمشي. خمَّنتُ بأنه ثمل، شممتُ فمه ولم تصدر منه رائِحة، أمسكتُ بيده وخرجتُ به، رأيتُ بابه الملاصق لبابي مفتوحاً. أدخلته إلى الحوش، رأيتُ زوجته تخرج من باب الغرفة قائلةً: المعذرة يا أستاذ، يمشي وهو نائم.

استدرتُ عائِداً إلى البيت، بعد عدَّة خطواتٍ، فوجئتُ بالرجل ينقضّ عليّ ويصرخ بأعلى صوته: حرامي.. حرامي..

التمّ الجيرانُ في لحظاتٍ كما لو أنّهم كانوا مستيقظين وهو يشدّ عليَّ مِن الخلف بذراعيه دون أن أستطيع منه فكاكاً.

بعد نحو نصف ساعة جاء شرطيّان وأخذاني بالسيارة الحكومية إلى قسم الشرطة، أدخلاني إلى ذات الزنزانة التي كنتُ دخلتها سابِقاً.

في الصباح، أخرجني أحد العناصر وأخذني إلى الضابط.

كان جالِساً في دعةٍ يرتشف فنجان قهوة ويُدخّن، وعندما رآني، انتفض كالملسوع وتجهَّم وجهه قائلاً: ألن أخلص منك..

اتَّجه بكلامه إلى الشرطي: ماذا فعل هذه المرة؟

قال: سيدي، داهم بيت جاره في الساعة الثانية والنصف ليلاً وأمسك به جاره بالجرم المشهود، ذهبنا وكان الرجل ما يزال يمسك به داخل البيت.

قلت: أنا بريء.

ضحك الضابط ضحكة تشبه البُكاء ذكَّرتني بضحكته السابِقة وقال للشرطي: خذه واعملوا له اللازم حتى يعترف بهذه السرقة والسرقات السابقة.

عند خروجِنا رأيتُ جاري وزوجته يُهرولان إلى مكتب الضابط، قالت المرأة: لا تخف يا أستاذ سنأخذكَ معنا الآن. قادني الشرطي إلى غرفةٍ وهو يقول: اعترف أفضل لك ولنا.

بعد قليلٍ من دخولنا، رنّ جرس الهاتف الأرضي، رفع السماعة، وما لبث أن قال: حاضر سيّدي.

رمقني بنظرةٍ وقال: يمكنك أن تذهب إلى بيتك الآن.

خرجتُ وإذا بالرجل والمرأة يعتذران منّي وقالا بأنّهما شرحا الواقع للضابط وأنّهما لا يدّعيان عليّ بشيء.

أمضيتُ شهراً وأنا أبحث عَن عمل حتى استطعتُ أن أجد أحد المطاعم عملتُ فيه كمحاسب، وكل شهر أحصل على إجازة خمسة أيام، لأن العمل كان متعباً، يبدأ من العاشرة صباحاً، وحتى الواحدة ليلاً.

في أحد الأيام وبينما كنتُ جالِساً في مطعم أتناول سندويشة فلافل، دخل أحد جوار صديقي مصطفى الذي انقطَعَ عنّي في الفترة الأخيرة، فسألته عن أخباره، قال: مصطفى مريض في المُستشفى.

صُدِمت بِما سمعت وعرفت سبب انقطاعه عنّي، قلت: خير لماذا في المُستشفى؟

قال: يحتاج إلى كلية، ولا توجد لديه نقود كي يشتري كلية.

وضعتُ السندويشة على الطاولة دون أن أكملها، واتَّجهتُ على الفَور إلى المُستشفى.

سألتُ عنه حتى أخذتني إحدى الممرّضات إلى غرفته.

كانَت زوجته جالسة على طرفٍ من السرير بجانِبه، وما إن رأتني حتى احتقنَ وجهُها ونهضت واقِفة، زفّرت وأشاحَت بوجِهها عنّي.

تقدَّمتُ إلى مصطفى، قبَّلته، كان قد هزل كثيراً، واصفرَّ وجهُه كليمونة، يشهق ويزفر بسرعة، ولم يستطع أن يتحدَّث معي، فقط كان يسمع ويهزّ رأسه وهو ينظر إليّ.

قلت على الفور: اليوم سمعتُ مصادفةً بمرضك يا مصطفى، وجئتُ لأتبرَّع لك بكليَتي.. لا يوجد لدينا وقت ولا بدّ أن نسارع. قلت ذلك ومضيتُ إلى إدارة المُستشفى على عجل، أخبرتهم بأنّني سأتبرع بكليتي

للمريض مصطفى. أجروا لي بعض التحاليل، وبعد نحو ساعتَين أدخلوني إلى غرفة العمليّات.

لم أشعر بعدها بشيء حتى أفقتُ ورأيتُني مُمدّداً على سريرٍ في المُستشفى، أمضيتُ خمسة أيام على ذاك السرير وخرجت.

بعد نحو شهرٍ، فوجئتُ بمصطفى وزوجته يزورانني في بيتي الذي استأجرته وقال: اليوم هو الأوَّل الذي استطعتُ أن أخرج فيه من البيت، وقلت بأنَّني لن أمشي على قدمَيّ إلى أي مكان قبل بيتك.

كانَت فرحتي لا توصَف وأنا أنظر إليه وقد عادَت إليه عافيته.

قال: حاولتُ مع كل أخوتي وأقربائي كي يتبرَّع لي أحدهم بكليةٍ، لكن لم يقبل أحد رغم أنّني كنتُ أنهار، ثم رأينا شخصاً قال بأنّه مستعد لذلك، ولكن المبلغ الذي طلبه كان خياليّاً، حتى لو حاولتُ أن أجمع بعض التبرّعات، فلم تكن تصل إلى نصفه.

عندما نهضا للخروج، تذكَّرتُ بأنَّني ادَّخرتُ مبلغاً لابنَتي من عملي في المطعم، فأمسكتُ بيد مصطفى وأخذته إلى غرفةٍ أخرى، أعطيته حزمة النقود. لكنَّه اعتذَر. فقلت: أنتَ الآن متوقّف عن العمل، ولديك عائلة، صدّقني هذا المبلغ لا يلزمني، هو زيادة عندي، خذه ودبّر أمورك به، أرجوك لا تردّني. فأخذه واحتضنّا بقوَّة، ثم خرجتُ معهما إلى الطريق. عندما أوقفنا سيارة أجرة، صافحني وقال: بعض المشكلات المستعصية يكون علاجها في تركها تعالج نفسها بنفسها مع الوقت، وكل ما هو مطلوب منك إعطاء الوقت لها دون أن تتدخَّل لأن أي تدخّل من شأنه أن يُفاقِمها أكثر. وكلما ابتعدتَ عنها أكثر، كلّما أتحت لها

المجال لتُعالِج نفسها أكثر، وكلّما اقتربتَ منها أكثر، كلّما أعقتَ علاجها لنفسها أكثر.

احتضنّا مرّة أُخرى، وبقيتُ في أرضي أنظر إلى السيارة التي ركباها حتى توارت عن نظري عائدَين إلى البيت.

صمت قليلاً، ثم تنفَّسَ بعمق وقال: لكن هناك شيء هام أيضاً بمقابل ذلك، وهو أنَّني أشعر أحياناً بأنَّها خدَمَتني كثيراً وجعلتني أتعرَّف على الحياة أكثر مما كنتُ أعرف فيما لو لم يحصل بيننا ذلك.

أجل يا صديقي، أشعر بأنَّها أنفضَتني من غبارٍ كان مُتراكِماً عليّ، أيقظتني من غفلةٍ كنتُ تائِهاً في متاهاتها، صرتُ أعرف الناس أكثر، بعض الذين كنتُ أعقد عليهم آمالاً أثبتوا لي بأنّني كنتُ متسرّعاً في تقييمي لهم، وبعض الذين لم أكن أثق بِهم، أثبتوا لي العكس عندما رأيتُ منهم بعض المواقف التي أبهرتني.

أحياناً يخطر لي كم أنَّني كنتُ بحاجةٍ إلى هذه النفضة الشديدة، وكم أنَّني تجدَّدتُ بِها. مفاهيم كثيرة تغيَّرَت في حياتي، اكتشفتُ بأنّني كنتُ أعيش في روتينٍ قاتل، كان يقضي عليَّ ببطءٍ دون أن أدري.

الفصل التاسع

القَسَم

كنتُ جالِساً خلف طاولة المُحاسبة في المطعم مساء ذات يومٍ عندما فوجئتُ بدخول (أجاويد) بوجه جهم، والشرّ يقدح مِن عينه الواحدة. كانت المرَّة الأولى التي أراه فيها بكل ذاك الاحتقان، وأرى عينه بكل ذاك الاحمرار الشديد.

نهضتُ من خلف الطاولة وقلت: أهلاً أجاويد.. كيفك؟

عندما تقدَّم إليّ، فوجئتُ بِه يُخرج سكّينا بخفّةٍ ويطعنني في خاصرتي وهو يقول: أعراض الناس ليست لعبة بين يدَيك يا تافه. وأحسستُ بطعنةٍ أُخرى.

لا أعرف كم مِن الوقتِ مضى حتى فتحتُ عينَي ورأيتني ممدّداً على سريرٍ في المُستشفى، وإبرة (السيروم) مغروزة في ظاهر كفّي.

بعد قليلٍ تناهى إلى سمعي صوت نسائي بجانب الباب: كانت زوجته هُنا، أخبرتني بأنَّه أراد أن يغتصب ابنته، ولم يحتمل خالُها فطعنه بالسكّين.

جاء صوتٌ آخر: مثل هذا الشخص لا يكفيه السكّين كان عليه أن يفرغ عيارات مسدس في صدره.

انفرجَ الباب ودخلت ممرّضة بوجه عابس وهي تتحاشى أن تنظر إليّ، أضافت شيئاً إلى كيس (السيروم) المعلَّق في أعلى السرير. مع خطوات الخروج قالَت: هل تشعر بآلام؟

قلت: نعم، آلام في خاصرتي.

هزَّت رأسها وخرجت. فأدركتُ بأنّه ذات الصوت الأوَّل الذي تناهى إليّ منذ لحظات.

أمضيتُ عشرين يوماً في المُستشفى وخرجت، وكان أجاويد موقوفاً بانتظار خروجي لإتمام التحقيق.

عندما ذهبتُ إلى جلسة المحكمة، قال له القاضي بعد أن طلب منه أن يحلف بالمصحف على قول الحقيقة: لماذا شرعتَ بقتله؟

وضع يده على المصحف وقال: هدَّد أختي بتلفيق تهمة الخيانة لها، لأنَّها شهدت على محاولة اغتصابه لصديقتها وعاقبته المحكمة بالسجن لمدَّة سنتَين.

قال القاضي لغدير التي كانت هناك بعد أن طلب منها أن تحلف بأنّها ستقول الحقيقة: هل صحيح أنّه هدَّدك يا سيدة غدير؟

وضعت يدها على المصحف وقالت: صحيح يا حضرة القاضي، أراد أن ينتقم منّي لأنّني شهدتُ بالحقيقة، أراد أن يغتصبها في بيتي وأمام عينَي، فكيف لا أشهد بِما رأيت وقد حلفتُ بالقرآن، وبعد ذلك أراد أن يغتصب ابنته لكنَّني لم أحتمل وشكوتُ عليه، ورأيته ذات يوم أتى بحبوب مخدّرة حتى يتَّهمني وشكوتُ عليه مرَّةً أُخرى. والآن يريد أن يطعنني في شرفي ويُلفّق لي تهمة أنَّه رآني قبل أكثر من سنتَين أدخل إلى

بيت الصائغ، إذا كان ذلكَ صحيحاً لماذا سكتَ كل هذه المدَّة. قال لي بأنّه يريد أن يلفق لي هذه التهمة حتى ينتقم منّي ويقتلني أخي أجاويد. نعم قالها لي بكل صراحة، فلم أحتمل وأخبرتُ أخي.. إذا كان يريد أن يأتي إلى البيت فهو زوجي وأخدمه بعينَي، أمّا إذا أصرّ أن يستمرّ في تجاوزاته الأخلاقية والقانونية وأسكت كما يطلب منّي أو أنَّه سوف يحرّض أخي على قتلي من خلال الافتراء عليّ، فهذا ما لا يقبله أي ضمير.

توجَّه القاضي إلى الصائغ الذي كانت المحكمة قد جلبته ليدلي بشهادته بكونه أحد أطراف الحادثة: ما هي أقوالك؟

قال وقد وضع يده على المصحف: لم يسبق لي أن رأيتُ هذه المرأة ولا سمعتُ باسمها، لا يجوز له أن يتَّهم الناس جزافاً لتصفية مشاكل بينه وبين زوجته. حكّ رأسه وأردف يقول: أنا لا أعرف هذا الرجل لا من قريب ولا من بعيد، وهو أيضاً لا يعرفني.

عند ذاك رفع أجاويد صوته قائلاً: إذا أتيتَ بذكر عرض أختي على لسانك بعد الآن، ليشهد عليّ كل هؤلاء بأنَّني لن أدعك تعيش يوماً واحداً. فأشار القاضي بأن يُخرِجوه مِن القاعة على الفَور.

بعد نحو دقيقتَين من الصمت وأنا أنظر إليه، قال: عندما أقحموا القرآن في المحاكم، حوّلوه إلى مصدرٍ لإلحاق الأذى بالناس.

لم أكن الوحيد الذي كان في السجن نتيجة الحِلفان على المصحف، رأيتُ الكثيرين الذين قالوا لي بأنَّهم ضحايا هذا الحِلفان.

القاضي الماهر يا بهاء لا يحتاج إلى الأخذ بالحِلفان لأنَّه يستطيع أن يتعرَّف على جزءٍ من الحقيقة من خلال حركات الشخص.

أردف يقول وأنا أستمع بصمت: القاضي الماهر يتمتَّع بقوَّة مُلاحظة تمكّنه من التقاط إشارات من حركات الشخص الماثل أمامه.

الذي يَكذب، تظهر عليه علاماتٌ للكذب مهما بلغ من ذكاء وفطنة، تظهر في نبرات الصوت، أو من مستوى طبقات الصوت التي يتحدَّث بها، أو من حركات يدَيه، أو نظرات عينَيه، أو من الهيئة التي يكون فيها، لا بدّ بكل الأحوال أن تظهر علامات للكذب على شخصٍ يَكذب، وعلامات للصدق على شخصٍ يَصدق، لكن لابدَّ أيضاً من شخصٍ قوي المُلاحظة أن يلتقطها، ومع الخبرة يرتقي هذا الشخص حتى يبلغ مراحل مُتقدّمة من قوَّة المُلاحظة ويلتقط علامات حتى لو تحدَّثَ مع شخص بمكالَمة هاتفية، أو ألقى نظرةً متفحّصة إلى صورةٍ له، أو ينظر إلى خمسة أشخاص متَّهمين، فيتعرَّف على الجاني من خلال الحدس مهما كانَت الشبهة بعيدة عنه، ويبدأ يعمل على أساس هذا الحدس بجمع الأدلّة حتى لا يجد الجاني بدّاً من الاعتراف بجنايَته.

ليس كافياً أنَّكَ لا تَكذب، عليك أن تكون على حذرٍ ولا تسمح أيضاً لكاذبٍ أن يَكذب عليك، يغويك بدهائه كي يُمرّق عليكَ كذبه على أنه صواب، لأنَّك عند ذاك ستكذب بِما قد كُذِبَ عليك، تؤازر كذبه على أنَّه صواب، مُتكهِّناً وأنتَ تحت حمية غواية الكذب الذي استُدرِجتَ إليه بأنَّك على صواب.

القضاء هو إبداع، للأسف يا بهاء خلال تجربتي معهم، لم أجد قاضياً مبدعاً واحداً، كلّهم كانوا موظَّفين.

صرتُ أمقتهم، أمقت قصور العدل، أشمئزّ من الروب الأسود الذي يرتديه القضاة والمحامون، أهاب أقسام الشرطة، الرتب التي يضعها ضبّاط الشرطة على أكتافِهم.

رجل القضاء الذي يتمكن شاهد زورٍ أن يحتال عليه ويستخدمه كأداةٍ ليصدر حكماً جائِراً على بريء، يكون وبالاً على القضاء.

كنتُ أحياناً أرى أشخاصاً يتجمَّعون في الشارع بالقُرب مِن باب قصر العدل، وكنتُ أسمع بعض الأصوات تقول: هؤلاء شهود زور.

وهم ثلَّة مِن العاطلين عَن العَمَل، وجدوا في دخول المصاحف إلى المحاكم وسيلةً للارتزاق. يأتي إليهم بعض الناس وأحياناً بعض المُحامين قبل موعد المحاكمة بعدَّة أيّام، يُزوّدونهم بالمعلومات اللازمة وأسماء الأشخاص والتواريخ والأماكن بحيث يُجيبون على الأسئلة التي يطرحها القضاة عليهم بشكلٍ دقيق وهم يحلفون بأنَّهم يقولون الحقيقة وأنَّهم رأوا ذلك بأعينهم.

ذات يومٍ طلب القاضي مِن أحد المدَّعين أن يقسم على المصحف على ادِّعائِه، فقال الرجل بأنَّه مُلحد ولا يؤمن بالقرآن.

صفنَ القاضي، ويبدو أنّه وجد نفسه في مأزق، وبعد قليلٍ قال: اقسم بالمصحف.

قال: وهل ستأخذ بقسَمي؟!

قال القاضي مرتبكاً: إذا رفضتَ أن تقسم، سوف أردّ ادّعاءك.

كنتُ في القاعة أنظر إلى الشخص ورأيته يقسم على صحَّة أقواله.

في جلسةٍ أُخرى أتوا بشخصٍ مسيحي وطلبوا منه أن يحلف على الإنجيل الذي وضعوه بجانب القرآن.

يومها ضجّت المحكمة عندما حمل الرجل الإنجيل وفرَّ هارِباً وهو يقول: هذا الكِتاب المُقدَّس ليس مكانه هُنا.

ولحق به عناصر من الشرطة حتى أمسكوا به عند الباب الخارجي للمحكمة. وسمعتُ فيما بعد أنَّه قال: فعلتُ ذلكَ حتى لا تجعلوا الإنجيل مثل القرآن يتسبَّب في إلحاق الأذى بالناس من خلال الحِلفان عليه، وحتى لا أرى ظاهرة شهود زور من المسيحيين أيضاً إلى جانب شهود الزور المسلمين أمام أبواب المحاكم.

وسمعتُ أن الخبر وصل إلى أحد القسيسين في المدينة، فجاء إلى رئيس المحكمة وقال: فعلتم ما فعلتم بالقرآن، دعوا الإنجيل بحاله وهو الذي يقول: (لاَ تَحْلِفُوا الْبَتَّةَ، لاَ بِالسَّمَاءِ لأَنَّهَا كُرْسِيُّ اللهِ، وَلاَ بِالأَرْضِ لأَنَّهَا مَوْطِئُ قَدَمَيْهِ، وَلاَ بِأُورُشَلِيمَ لأَنَّهَا مَدِينَةُ الْمَلِكِ الْعَظِيمِ، وَلاَ تَحْلِفْ بِرَأْسِكَ، لأَنَّكَ لاَ تَقْدِرُ أَنْ تَجْعَلَ شَعْرَةً وَاحِدَةً بَيْضَاءَ أَوْ سَوْدَاءَ بَلْ لِيَكُنْ كَلاَمُكُمْ: نَعَمْ نَعَمْ، لاَ لاَ، وَمَا زَادَ عَلَى ذلِكَ فَهُوَ مِنَ الشِّرِّيرِ) إنجيل متى 5: 34، 37.

فقال له القاضي بأن القرآن أيضاً يذكر بأن الكذّابين هم الذين يقسمون. وقرأ له: {وَسَيَحْلِفُونَ بِاللّهِ لَوِ اسْتَطَعْنَا لَخَرَجْنَا مَعَكُمْ يُهْلِكُونَ أَنفُسَهُمْ وَاللّهُ يَعْلَمُ إِنَّهُمْ لَكَاذِبُونَ} التوبة42.

{وَيَحْلِفُونَ بِاللّهِ إِنَّهُمْ لَمِنكُمْ وَمَا هُم مِّنكُمْ وَلَـكِنَّهُمْ قَوْمٌ يَفْرَقُونَ} التوبة56.

{وَيَحْلِفُونَ عَلَى الْكَذِبِ وَهُمْ يَعْلَمُونَ} المجادلة14.

{فَيَحْلِفُونَ لَهُ كَمَا يَحْلِفُونَ لَكُمْ وَيَحْسَبُونَ أَنَّهُمْ عَلَى شَيْءٍ أَلَا إِنَّهُمْ هُمُ الْكَاذِبُونَ} المجادلة18.

الفصل العاشر
مرحلة جديدة من الحياة

تناهى رنين هاتفه، فلم يأبه به حتى انفصل، عاد الرنين مرة أخرى، فسحب الجهاز من جيبه، فتح الخط قائلاً: ألو...

اندفع صوتٌ رجولي مضطرب من الطرف الآخر يقول: أنتَ جاري نيار؟

كان الصوت مسموعاً بالنسبة لي، وبعد لحظاتٍ قال: مَن أنت؟

جاء الصوت: أنا جارك الممرض يمام.. منذ حوالي خمس سنوات عندما كانت ابنتك بهية مريضة، كنت أجيء إلى بيتك كل يوم مرتين لأحقنها، هل تذكَّرتني؟

قال: إي تذكَّرت، خير يا جاري؟

قال بنبراتٍ مرتجفة: اترك كل شيء وتعال حالاً للبيت.

هبَّ واقِفاً على قدَمَية كما لو أنّه يريد أن يدخل في الهاتف وقال: هل ابنتي بخير؟

جاء الصوت: بخير.. الحمد لله كانَت في غرفتِها.

قال: ماذا حصل يا يمام؟

تلعثم الصوت بعبارات مرتبكة: يظهر أن جارتي غدير كانت تطبخ، وانفجرت أسطوانة الغاز في وجهِها، دخلنا نحن بعض الجيران عند سماع

صوت الانفجار، ابنتك الآن موجودة عند زوجتي، لم أدعها ترى منظر أمّها ولا آثار الدماء المتناثرة على حيطان المطبخ، كان منظرها مرعباً يا جاري، ونحن غطيناها ببطانية.

أغلق الخط وهمَّ بالخروج، فقلت: انتظر لن أتركك تذهب لوحدك.

سبقني في الخروج إلى الشارع وهو مُرتبك، تناهت نبرات زوجتي وهي تتقدَّم إليّ: أين ستذهب؟ وبعد لحظةٍ أضافَت وهي ترمقني: لماذا أنتَ مضطرب؟!

قلت: سأخُبركِ عندما أعود يا ريناد، الوقت ضيِّق ونيار ينتظرني.

لحقته إلى الشارع، وفوجئتُ به يعود راكِضاً إلى الغرفة، وانتبهتُ بأنَّه كان حافياً. انتعلَ حذاءه على عجل كما ينتعل (شحّاطة) وعاد راكِضاً ويداه ترتجفان بشكلٍ ملفت.

أوقفتُ سيارة واتَّجَهنا إلى بيته. جلسنا معاً في المقعد الخلفي، وضعتُ يدي على يده: اهدأ يا نيار.. هذه هي لحظات التحكّم بالنفس.

لم يأبه بي، كان ينظر إلى الأمام كما لو أنَّه يُريد أن يخرج ويجري بسرعةٍ أشدّ من السيارة.

من هُنا.. مِن هُنا.. قالها للسائق، فانعطفَ السائِق إلى الشارع الفرعي المؤدّي إلى بيته.

كان الشارع مزدحِماً بقامات الجيران، صغاراً وكباراً، نساءً ورجالاً.

فتح الباب والسيارة تتمهَّل لتقف، هرع مسرعاً كسهمٍ بين القامات، تهرولَت بي قدماي بعد أن أنقدتُ الأجرة للسائق الذي دُهِش وأدار كفّه مُستفسراً.

لحقتُ به ورأيتُ البعض يشير له بأنَّها في المطبخ، عند وصوله باب المطبخ حاول بعض الأشخاص إبعاده عَن المشهد، إلّا أنَّه أصرَّ واستطاع أن يمضي حتى دخل ودخلتُ معه.

كانت مُستلقية على الأرض وقد حُجِبَ وجهُها بقطعة مِن القماش الأصفر، تظهر عليه بقع الدم، أزاح القُماش وصار ينظر في وجهها الذي بدا مشوَّهاً.

مدّ أحد الجوار يده إلى كتفه كي يُبعده عنها، فمنعه نيار بعزم دون أن يلتفت إليه، وهو ينظر ويطيل النظر بعمق إلى الوجه.

كان المطبخ في حالة فوضى وكأن زلزالاً وقع له، كانت الأسطوانة مشروخة بشكلٍ طولاني في منتصفها، والأواني متناثرة على الأرض.

رجَّ هاتفي في جيبي وصار يُصدر رنيناً، أخرجته، رأيتُ اسم زوجتي. فصلتُ الرنين، ووضعتُ الاتصال على ميزة الطائِرة، وأعدتُ الجِهاز إلى جيبي.

كان نيار يوزّع نظراته عليها، كما لو أنَّه لا يُصدّق ما يرى، كم خفتُ عليه، كم تمنَّيتُ فيما لو استطعتُ أن أسحبه بقوَّة لأبعده عن المشهد.

دنوتُ بفمي من أذنه وهمست: يكفي يا نيار.

هزَّ رأسه عدَّة هزّات وقال: لا يكفي.. دعني.

في تلك اللحظات تعالى ونين سيارة الإسعاف في الشارع، هرع بعض المسعفين إلى الداخل على عجل بستراتهم البيضاء، وهم يحملون نقّالةً، أفسح لهم الناس مجالاً للدخول، تقدَّموا إليها دون أن يتحدَّثوا مع أحد،

حملوها بعنايةٍ شديدةٍ ووضعوها على النقّالة ومضوا مسرعين بِها إلى سيارة الإسعاف الواقِفة بجانب الباب ودوي صوتها ينتشر في الحي.

لبث نيار واقِفاً على قدمَيه كما لو أنه فقد التركيز ولم يعد يعرف ماذا يفعل، وقد انتصب شعر رأسه. أمسكتُ بيده وأردتُ إخراجه من زحمة الناس الذين تجمَّعوا داخل البيت يصوّبون نظراتهم إليه، اندفع صوته بغتةً: يمام.. أين أنتَ يا يمام.

كرّر العِبارة بصوتٍ جهوري.. بعد قليلٍ تقدَّم من وسط الجموع شخصٌ في أربعينيّات العمر، أسمر البشرة، يعرج بقدمه اليمنى، يسبقه صوتُه: أنا هنا يا جاري.

قال بشهقة بكاء وقد امتلأت عيناه بالدموع: أين بهيَّة؟

موجودة يا جاري. قالها الرجل. ومضينا معاً إلى حيث بيت يمام، أدخلَنا إلى غرفة واختفى، لبثنا واقفين حتى جاء ومعه بهيّة.

عندما وقعت نظراتُها عليه، صرخت بذعر: لا تقتلني.. لا تقتلني.. وهرولَت إلى الشارع. لحقها وهرولنا خلفه حتى أمسكَ بِها وهي تزداد صراخاً، والناس ينظرون إليهما ويحوقلون.

نظر إليها نظرة شوق عميقة، اغرورقَت عيناه بالدموع، وقادها إلى البيت وهو يمسك بِها.

عند وصولنا إلى الباب، أردتُ أن أتركه معها، فودَّعته، هزَّ رأسه بالإيجاب عدَّة هزّات. عدتُ على الفور إلى البيت وكانت الشمس تتماثل للمغيب.

عند دخولي البيت، رأيتُ القلق بادياً على وجه ريناد التي تقدَّمَت إليّ وقالَت بلهجةٍ تحقيقيَّة: أين كنت.. لماذا أغلقتَ الخطّ في وجهي وفصلتَ هاتفك؟!.

مضيتُ إلى الداخل وهي تلحق بي، قلت: كان حولي بعض الناس ولم أستطع أن أردّ.

❁❁❁

اتَّجَهتُ إلى غرفة النوم وأنا أشعر بلغم في داخلي على وشك أن ينفجر. استلقيتُ على سريرنا الزوجي، عندما رأتني ريناد مضطرِباً، تركتني لوحدي. بعد نحو نصف ساعة أصدر الباب صريراً خافِتاً وانفتح، دخلت ريناد حاملةً إليّ كأساً من (الزهورات). وضعتها برفقٍ على (الكومودينو) بجانب السرير وانصرفت.

أشعلتُ سيجارةً، وبدأتُ أرتشف الزهورات. أخذ كل ما حصل طوال اليوم يتداعى إلى ذاكرتي من جديد.

في تلك اللحظات ولدت لديّ فكرة كتابة رواية، تخيلتُ كل تلك الروايات التي قرأتها: تُرى هل كان الأرق الذي استبدَّ بي الآن هو الذي دفع أولئك الكُتّاب لإبداع كل تلك الأعمال الروائية. تقافزَت إليّ صور روائيين وروائيات: كافكا، ميشيما، ديكنز، هوغو، ساراماغو، زفايج، موراكامي، فوكنر، دستويفسكي، تولستوي، فرجينا وولف، توني موريسون، شارلوت برونتي، فرانسواز ساغان.

في العاشرة ليلاً، تناهت طرقات خافتة على الباب ودخلت زوجتي، قالت بخفوت: العشاء جاهز.

قلت: لا أريد أن أتعشّى اليوم.

قالت: إذا أردتَ سأتركك لوحدك وأنام في غرفةٍ أُخرى.

قلت: لا.. تعالي نامي.

دخلتْ واستلقت على ظهرها في السرير بجانبي دون أن تنبس بكلمة.

أمضيتُ الليل وأنا أشرد بالرواية التي أخذت خيوطها الأوليَّة تتشكَّل في مخيِّلَتي.

ومع مرور الأيام بدأت الرواية شغلي الشاغل في البيت، في العمل، في الشارع، في أيّ مكانٍ أتواجَد فيه، وأنا أكتب الملاحظات على قصاصاتٍ، على هاتفي، وأضع لها المُخطَّط، أتعرَّف على الشخصيّات، أستحضرها، أتحاور معها.

أمضيتُ شهرَين في التحضيرات للبدء بكتابة الرواية. وكانت انطلاقتي الثانية في الوصول إلى الشخصيَّات التي ما تزال على قيد الحياة، أتعرَّف على الشخصيّات التي لم أكن أعرفها، وأتعرَّف أكثر على الشخصيّات التي كنتُ أعرفها. عندها حصلتُ على إجازةٍ لمدَّة شهر بدون راتب.

اتَّصلتُ مع نيار وأخبرته بفكرة كتابة الرواية، وعندما رأيته يرحّب بِها، تشجَّعتُ أكثر وطلبتُ منه أن يتعاون معي ويزوّدني بعناوين بعض الأشخاص، فأبدى استعداده.

قبل أن أغلق الخط، أردتُ أن يسافر ويجعل من السفر فاصِلاً بينَ حياته السابقة، وحياته الجديدة التي يُقبل عليها. وكانت فكرة أهميّة السفر خطرت لي عندما فرغتُ مؤخَّراً من قراءة رواية (رحّالة). كنتُ

أقرأ الرواية وأنتظر الانتهاء منها كي أحاول أن أقنع نيار بالسفر مع ابنته، ليمضي ولو شهراً يتنقّل في مدنٍ غريبة، يرى مجتمعات جديدة.

أرادت الرواية أن تقول بأن الإنسان يحتاج إلى السفر في مختلف مراحل عمره، السفر كانطلاقةٍ للتعرّف على العالم، على الحياة، على الإنسان، على الذات بشكل جيِّدٍ. فتكتشف نفسك في السفر على قدر ما تكتشف أماكن جديدة، وجوهاً جديدة، تستمع للغات جديدة، ترى أزياء جديدة، طبائع جديدة، أسلوب حياة جديد.

من خلال السفر تحتكّ بالناس عَن قُرب وتعقد علاقات جديدة، تتعرَّف على بيئات جديدة، مفاهيم جديدة للحياة، تشم روائح جديدة، ولا بدّ من السفر بين حينٍ وآخر حتى تتجدَّد طاقاتُك، تتجدَّد كل ذرة فيك ولا تكون مملّاً حتى من نفسك.

اقترحتُ عليه الفكرة وطلبتُ منه أن يأخذها على محمل الجدّ وقلت له بأن حاجة بهية هي أكثر من حاجته لمثل هذا السفر: إنّه مستقبل بهية يا نيار، بهية التي لا أحد لك في العالَم غيرها.

قال: أراك مصرّاً يا بهاء.

قلت: لأنَّني لا أرى شيئاً أهم من السفر لكما في هذه المرحلة، على كل حال توجد لدي رواية قرأتها مؤخَّراً، وسأرتّب لوقت كي أزورك مع زوجتي وأجلب لك الرواية. هذه الرواية ستقنعك أكثر بمدى أهميَّة مثل هذا السفر.

قال: شوقتَني لها يا بهاء، ما اسمها.

قلت: (رحّالة) كتبتها الكاتبة على لسان فتاةٍ بشكل مقاطع يومية، وفازت بها بجائزة مان بوكر الدولية سنة 2018 وفي نفس العام فازت الكاتبة بجائزة نوبل للآداب. تقول الفتاة: (عندما نتوقف عن الترحال نصبح أصناماً. من يتوقف يصبح مثل حشرة مثبتة بدبوس، يخترق قلبه مسمار خشبي، تُثقَب أقدامه ويداه ويتم ربطه بالسقف وبعتبة البيت).

قال: أنتظر بلهفةٍ حتى أقرأ الرواية.

قلت: وضعتها جانِباً حتى أجلبها معي. وأريدكَ أن تتحدَّث مع صديقك مصطفى وترتّب لي موعداً حتى أزوره زيارة عائلية.

قال: حالاً سأتَّصل به.

مصطفى

ذهبتُ في زيارةٍ عائلية إلى مصطفى، بدا لي كما لو أنّه طفلٌ كبير، ولم يُغادر طفولته، كان وجهه مبلجاً ومفعماً بالحياء.

وكانت زوجته امرأة مضيافة، تتحدَّث ببسمةٍ ودودة. راودني شعورٌ بأنّها تنتمي إلى عائلة عريقة تتمسّك بتقاليد الضيافة. جلستُ معه على أريكةٍ، وجلستْ زوجتي مع زوجته على أريكةٍ مقابلةٍ لنا. تحدَّثتُ معه عن طبيعة علاقته بنيار، قال بأن الصدفة هي التي جعلته يتعرَّف عليه. وكان ذلك عندما أعطاه أبوه مبلغاً بمناسبة زواجه حتى يشتري محلّاً ويعمل فيه بتصليح البرّادات بدلاً عَن عمله كعاملٍ في المحل الذي أمضى عشر سنواتٍ وهو يعمل فيه وقد اكتسب خبرةً جيّدة.

رأى المحل الذي سيشتريه، وحمل النقود في حقيبةٍ وركب سيارة أُجرة. عندما وصل إلى الرجل الذي كان ينتظره في المكتب العقاري، اكتشف للتو بأن الحقيبة ليست معه. خبَّط كفّه على ساقه ولم يعد يعرف أينَ ترك الحقيبة، لكنّه كان متأكّداً بأنّه حملها بيده عندما خرج مِن البيت. حاول أن يتذكّر ملامح السائق الذي أتى به إلى المكتب، لم يفلح في ذلك. خطر له أن ينشر الخبر في بعض مواقع الفيسبوك الشعبية التي تخص خدمات المدينة. ولم يتردَّد في ذلك، بعد يومَين اتَّصل به شخص وطلب أن يلتقيه، قال بأنَّه مهندس وله مكتب في مديرية الزراعة، ويمكن أن يزوره في العاشرة صباحاً.

ذهب مصطفى إليه دون أن يعرف سبب الزيارة، سأل عنه حتى وصل إلى مكتبه.

قال له: أنا نيار، قرأتُ إعلانك عن فقدان حقيبتك التي تحتوي على مبلغ من المال وكان هدية من أبيك بمناسبة زواجك حتى تشتري به محلّاً.

قال: صحيح أستاذ.

قال: ما هي مواصفات الحقيبة؟

قال: سوداء اللون، متوسّطة الحجم، قديمة عليها بعض الخدوش.

سأله عن المبلغ وعن فئات النقود، ثم مدّ يده إلى دخل طاولته التي كان يجلس خلفها وأبرز الحقيبة قائلاً: هل تشبه هذه الحقيبة؟

انفرجت أسارير وجهه وقال: هي بذاتها.

قال: ربما تشبهها كثيراً وليست هي.

قال: هي.. هي يا أستاذ لو رأيتها بين مئة حقيبة سأسحبها.

مدّ له الحقيبة وقال: عندما رأيتها على الرصيف، ظننتُ بأنَّها حقيبة مهترئة رُميَت في الشارع، فركلتها بقدمي، أحسستُ بشيء في داخِلها، ولم تكن فارِغة كما توقَّعت. حملتها، فتحتُ السحّاب ورأيت النقود.

كنّا نتحدّث وبين وقتٍ وآخر تنهض زوجته وتجلب ضيافةً جديدة.

بعد ذلك زرته في المحل ورأيتُ العامل الذي كان يعمل معه. قال: عندما تأخَّرَ معلّمي، لم أغلق المحل، تركته مفتوحاً حتى المساء، وكل يوم كنتُ أفتحه وأواصل العمل، كنتُ أقوم بالإصلاحات البسيطة التي أقدر عليها، وأترك الإصلاحات الثقيلة لمعلّمي حتى يعود.

مدير السجن

خطر لي أن نذهب إلى بيت ميخا وطلبتُ من ريناد أن تتفرَّد بزوجته وتعرف منها سبب زواجها من ميخا عندما رأت قضيبه وسط السوق.

لكن قبل ذلك ذهبنا إلى بيت مدير السجن المنقول، كان شخصاً طيباً، استقبلني مع زوجته في البيت عندما اتصلتُ بِه وقلت بأنّني أعدّ لكتابة رواية، وما أثار استغرابي أنَّني رأيتُ مكتبةً في بيته: (ضابط ويقرأ). قلتها لزوجتي بخفوت. ويبدو أن الصوت وصله، فقال: معك حق، الضبّاط في بلادِنا لا يقرؤون على الأغلب. لذلك تراني متنقّلاً من مكانٍ إلى آخر بسبب قراءاتي. عندما أنتقد بعض المظاهر التي أراها في المكان الذي أكون مسؤولاً فيه، يرفعون بي التقارير وينقلونني إلى مكانٍ آخر.

المدن البائسة يا صديقي هي تلك المُدن التي تكثر فيها المقرّات الحزبية والثكنات العسكرية، وتقل فيها المراكز الثقافية، والمدن المُزدهِرة هي تلك التي تكثر فيها المراكز الثقافية، وتقل فيها المقرّات الحزبية والثكنات العسكرية. كلما يُفتَتَح مقر حزبي جديد، يتراجع المجتمع خطوة جديدة إلى الوراء، وكلّما يُفتَتَح مركز ثقافي جديد، يتقدَّم المجتمَع خطوة جديدة إلى الأمام.

قلتُ له: كيف تجاوزت القانون وأرسلتَ نيار إلى البيت بالسرّ؟

قال: لم أفعل ذلك إلّا بعد أن رأيته وعرفتُ كم أنَّه بشوق ليرى ابنته، ولم تكن لديّ سوى تلك الطريقة. المشاعِر الإنسانيّة هي فوق القانون، حتى الشرائع السماوية تستثني حالات إنسانية طارِئة. القانون الذي يخلو من حالات إنسانية طارئة، يكون قانوناً جائِراً، لا يجوز بأيّ حالٍ

أن يقف القانون عقبة أمام لقاء الآباء بأبنائهم، لأن القانون حينها سيتحوَّل إلى وبالٍ على الناس. وهذا ما قلته لوزير الداخلية الذي استجوبني بنفسه.

قلتُ له: يا سيادة الوزير في بلاد الغرب عندما يكون الابن لاجئاً عندهم ويقول بأنَّه يحنّ إلى أبوَيه؛ يأتون بهما إليه حتى لو كانا في قارَّة أُخرى، ويتحمّلون كل ترتيبات ومتطلّبات السفر، وعندما يصلان، يؤمّنون لهما المسكن والمصاريف. وبعد ذلك كيف يمكن لهذا الابن أن يكره ذاك البلد.

لم يعقّب على كلامي، ولكنَّه نقلني إلى وظيفةٍ لا تليق لا برتبتي ولا بخبرتي في العمل. فصرتُ أداوم في قرية جبليّة نائية تبعد عن المدينة التي فيها بيتي مسافة خمسين كيلو متراً بصفة رئيس مخفر، أقطع كل يوم هذه المسافة في الذهاب والإياب.

أردف يقول: رغم ذلك فإنّني لستُ حزيناً لأن النقل أراحَني من منظر كان يؤلمني بشكلٍ يومي عندما كنتُ أرى أعداد المساجين تتكاثر حتى أن الأسرَّة لم تعد تكفيهم، وكانت تصلني الشكاوى من رؤساء المهاجع يقولون بأن المساجين أصبحوا ينامون فوق بعضهم البعض بسبب عدم وجود أمكنة، حتى تحت الأسرة وساحات المهاجع امتلأت. كنتُ أحياناً أذهب في منتصف الليل وأرى كيف يتراكمون فوق بعضهم. الذي لديه ذرَّة واحِدة من المشاعر الإنسانية لا يتصرّف بهذه الطريقة مع ألدّ أعدائه إذا كانوا أسرى لديه، بل حتى لو كانوا حيوانات لكان ذلك عملاً غير أخلاقي بحقِّها.

صدّقني يا أستاذ أعداد الذين كانوا يستحقّون السجن بشكل عادل لم يكن يتجاوز عشرة بالمئة، وما تبقى كلّهم كانوا يأتون إلينا نتيجة غباء القُضاة.

قلت بذهول: فقط عشرة بالمئة؟!

قال: ربما أقل، وهم الذين قتلوا، أو سرقوا، أو تاجروا بالمخدّرات، أو اغتصبوا. وهؤلاء كانوا قلّة في نسبة المساجين. كنتُ أحياناً عندما ألتقي بوزير الداخلية أقول له: ماذا تفعل كل هذه الحشود البشريّة عندنا، هؤلاء جمعياً لديهم أعمال وينتجون، دعوهم يعودون إلى أعمالِهم، لم تعد لدينا أماكن.

كان يطلَب منّي أن أكفّ عن ذلك ولا أتدخَّل في سياسة البِلاد.

أحياناً كنتُ أخرج عَن طوري وأقول: الناس مساكين، نتهجَّم عليهم بالسلاح، نقيِّد أيديهم وأقدامهم ونقودهم إلى السجون لأسبابٍ تافِهة.

أحياناً عندما كنتُ أقوم بجولةٍ على المهاجع، كنتُ أرى الغضب في أنظار المساجين التي كانَت تتصوَّب إليّ، لكن لم يكن لهم حول ولا قوّة. مرَّة تقدَّم إليَّ سجينٌ وقال: من أنتم.. لماذا تستبدّون بنا هكذا.. ماذا فعلنا بكم؟ لقد بذلنا دماءنا حتى انتزعنا مفاتيح بلادِنا من أيدي المحتلّين ووضعناها أمانةً بين أياديكم، وقد أقسمتم بأنّكم ستصونون الأمانة.. ثم صرخ بأعلى صوته: أين قسمكم.. لماذا كل هذا العداء نحونا، لماذا تنظرون إلينا كما لو أنّنا حشرات. وتهجَّم عليَّ. لكن المرافقة التي كانت معي منعته. وعندما رفع أحد المرافقة يده كي يضربه، صرخت: لا.. فأعاد يده،

وهو ينظر إليّ.

أصارحكَ يا بهاء بأنّني بكيتُ بحرقةٍ في أعماقي، وكم تمنيتُ لو أنَّه تمكَّن مني وأشبعني ضرباً، أحسستُ في تلك اللحظات بالخزي، وما تزال كلمات ذاك الشخص تطنّ في سمعي: لكن كن على ثقة بأن ظلمكم لنا لن يدوم، وسيحرقكم قبل أن يحرقنا، نعم ستتحوّلون أنتم أنفسكم إلى وقودٍ لهذا الظلم واحداً تلو الآخر.

بعد أيّامٍ جاءني شخصان وقالا بأنّهما من شعبة المُخابرات، أسمعاني من هاتفٍ جوّال صوت ذاك الشخص وهو يتحدَّث. ثم أخذاه من السجن ولم أعد أعرف عنه شيئاً.

أردتُ أن أعرف الذي قام بتسجيل الحديث وسرَّبه خارج السجن، ومِن المُفترَض ألّا يحصل شيء رسمي دون الرجوع إليّ بكوني مُدير السجن وأعلى سلطة فيه. فعرفتُ بطريقتي الخاصَّة بأنّه إمام المهجع الذي كانوا قد أعطوه هاتفاً بشكلٍ سرّي، كي يقوم بتسجيل بعض الأحاديث التي تدور بين المساجين ويُرسلها إليهم بالتلغرام.

أصبح الناس يبيعون بيوتهم ويُخاطِرون بأنفسهم حتى يفرّوا من البلاد، عندما يشعر الإنسان في موضع ما بأنَّه في حديقة آمنة، تتحوَّل تلك الحديقة إلى بلاده أينما كانَت. وعندما يشعر في موضع بأنَّه في غابة خطرة، تتحوَّل تلك الغابة إلى منفى حتى لو كانت بلاده.

بعد زهاء خمس دقائق من الصمت وأنا أنظر إلى دموعٍ ترقرقت في عينَيه، قال: لكنَّني ما أزال حتى الآن لا أصدّق أنَّ صديقك نيار بالفعل كان ذاهِباً لقتل زوجته، وحتى بعد أن أثبتوا لي بأنَّ ابنته لم تكن مريضة،

وأنَّه ادَّعى ذلك، أعتقد بأنَّه كان ذاهِباً بالفعل لرؤية ابنته، لقد رأيتُ حجم الشوق إليها في عينَيه وفي نبرات صوته.

❁❁❁

بعد ذلك استطعتُ أن أحصل على موافقةٍ لزيارة السجن، دخلتُ المهجع، رأيتُ السرير الذي كان نيار ينام عليه، سألتُ عَن هارون، وكان موجوداً، ولكن لم يكن رئيساً للمهجع، وكان قد تم تعيين رئيس آخر للمهجع. زرتُ الزنزانة الانفرادية التي أمضى فيها أربعة أشهر.

ذهبتُ إلى مركز الشرطة، قابلتُ الضابط الذي اعتدى على نيار بالضرب، لم أرتح له، أردتُ أن أعرف سبب ضربه لنيار تجاوزاً على القانون، لكنَّه أنكر ذلك.

التقيتُ القاضي الذي أصدر عليه الحكم سنتَين، جلستُ في مكتبه لمدَّة ربع ساعة حدّدها لي، كانت ملامحه توحي بأنّه كائنٌ شرّير، يتحدَّث وفمه مملوء باللعاب. انتابني شعور بأنه لا يصلح سوى لتربية الدجاج في قريةٍ نائية. بعد قليلٍ غيَّرتُ رأيي لأنّني خفتُ على الدجاج.

لا أدري لماذا في تلك اللحظات وأنا أنظر إليه، قفزتْ إلى مخيّلتي صورة القاضي (فرانك كابريو) الذي اشتهر بلقب (القاضي الرحيم). وعندما أتابع جلساته في اليوتيوب أشعر براحةٍ هائلةٍ وأنا أنظر إلى وجهه المضيء بنور الإنسان، قفزتْ الصورة وأنا أنظر إلى وجه القاضي المحتقن بالشرّ الذي رأيته أمامي.

تمتمتُ في سرّي: كم أحرق هذا القاضي قلوب البشر، وكم أسعد (فرانك كابريو) قلوب البشر. أحسَستُ بدوارٍ غدا يُفقدني توزاني،

وخرجتُ من قصر (العدل) بأنفاسٍ متقطّعة. شردتُ في تلك اللحظات بأسرار الوجوه، وجوه تبثّ إليكَ الطمأنينة، ووجوه تبثّ إليكَ الفزع.

ذهبتُ برفقة زوجتي مرَّتَين إلى مرام، قيل لنا بأنَّها مريضة ولا تستطيع أن تُقابل أحداً.

ميخا

اشترينا بعض البرتقال والموز واتَّجهنا إلى بيت ميخا، طرقتُ الباب، وبعد قليل فتحتْ امرأة سمراء فقالَت زوجتي: سمعتُ بقصة زواجكما وجئتُ لأتعرَّف عليك، لن نطيل، مجرّد تعارف.

رحَّبت المرأة ببسمة ودودة ودعتنا للدخول قائلةً بأن ميخا نائم، وسوف توقظه. ناولتها زوجتي كيس الفاكهة فقالَت المرأة: (يا عيب الشوم). قالت زوجتي: هدية بسيطة. أدخلتنا إلى غرفة مفروشةٍ بحصيرة. جلسنا على الحصيرة، كانت ثمة ساعة معلَّقة على الحائِط، توقَّف بِها عقرب الثواني. بعد قليلٍ دخلت المرأة وبيدها طفلٌ رضيع. قالَت: هذا ابني (أمير) أنجبته بعد أربع سنوات من زواجنا.

مدَّت زوجتي يدها إلى حقيبتها، أخرجت ورقة نقديّة ودسَّتها في يد المرأة قائلة: هذه هدية الطفل.

احمرَّت وجنتا المرأة وقالت: (تسلمي حبيبتي).

تناهى سعال ميخا وبعد لحظاتٍ دخل وآثار الماء على وجهه.

نهضنا نتصافح، فقالَت زوجته: هذا المهندس بهاء، وهذه السيدة ريناد زوجته، جاءا لزيارتنا والتعرّف علينا.

دعانا إلى الجلوس وهو يقول: أهلاً وسهلاً.. تشرَّفنا.

غرغر الطفل: بابا.. بابا.. وصار يحبو إليه.

أخذه ميخا في حضنه، قبَّله قائلاً: روح بابا.

كان الطفل رغم صغره، شديد الشبه بأبيه كما لو أنَّه نسخة مُصغَّرة عنه.

ابتسم الطفل وهو ينظر في وجهه، اشرأبَّ إليه وغرغر مرَّةً أُخرى: بابا.. بابا..

روح بابا أنت يا أميرو.. قالها وهو يقبّله من خدَّيه.

ثم نهض وصار يرفعه إلى السقف ويلتقطه.

ابتسمتْ زوجته نصف ابتسامة وقالت: كلما يراه يُصدر هذه الحركات، وينادِيه كما لو أنَّه يعرفه، أو يشمّ رائحته.

كان ميخا طويل القامة، أسود الشعر، بشوش الوجه، كبير الفم بشكلٍ مُلفت، دائم الضحك، وعندما يضحك، يفغر فمه الكبير كما لو أنه يتثاءب، وحتى عندما يصمت يبقى مُفغر الفم.

كان يبدو في الأربعين من عمره، لكن عندما سألته قال بأنه في الثانية والخمسين. يعمل في بيع (غزل البنات) على دراجته الهوائية عند أبواب المدارس والحارات الشعبية. يشتري الأكياس المملوءة بغزل البنات من محل، ويثبتها بشكل طولاني على دراجته من خلال عصا طويلة يثبّتها على المقعد الخلفي للدراجة، وقد ثبَّتَ بوقاً على المقود يضغط عليه بشكل متواصل عدّة مرات فيصدر إيقاعاً متلاحِقاً.

نهضتْ ريناد برفقة المرأة وخرجتا إلى غرفةٍ أُخرى.

قلتُ له بأنّني رأيته آخر مرّة عند بائع السوس.

قهقه بصوتٍ مرتفع وهو يفتح فمه الكبير، وربما وصلت قهقهته إلى نهاية الشارع، صفعَ كفاً بكفّ بقوَّةٍ وقال: (بكري السوّاس) متزوّج أربع نساء.

يقول بأنَّه تزوجَهن حتى لا يفوته يوم دون أن يُضاجِع مرَّتَين، بعد الغداء يكون عند واحدة، وفي الليل عند واحدة.

قلتُ: هل تعرف بيته؟

قال: أعرفه، هو أيضاً يعرف بيتي.

أخذتُ منه العنوان حتى أذهب إليه في زيارة بكونه أحد شخصيّات الرواية.

دخلتْ المرأة وبيدها طبقٌ من أوراق الخسّ، وضعته أمامنا وخرجت.

تربَّعَ ميخا قي جلسته: تفضّل أستاذ. قالها ومدَّ يده إلى ورقةٍ ودسّها في فمه، كان يمضغ طويلاً ويتعالى صوت مضغه وهو يأكل.

لبثنا جالسَين نتجاذَب أطراف الحديث حتى تناهى صوت ريناد وهي تحدّث المرأة، وبعد لحظاتٍ دَخَلَتا. قالت ريناد وهي واقِفة: ألا نذهب يا بهاء؟

نهضتُ قائلاً: سعدتُ بمعرفتك أخي ميخا.

طبطب على صدره وقال: ممنون أستاذ على الزيارة.

حشر قدمَيه في حذائه وخرج معنا برفقة زوجته إلى الشارع وهما يودّعاننا.

ركبنا سيّارة واتَّجهنا إلى بيت (أسيل) أخت ريناد، أخذنا نيار الذي تركناه عندها وعدنا إلى البيت.

قالت ريناد: كانت امرأة ظريفة جدّاً ومحبوبة، اسمها (سلمى). سألتها عن سبب زواجها من ميخا. قالَت: عندما وقعتْ عيناي عليه، وقع حبّه في قلبي. أحببته بجنون حتى أنّني صرتُ أتحجَّج بأي شيء حتى أنزل إلى السوق وأراه، كنتُ أنظر إليه وقلبي يخفق، أرجع سعيدة إلى البيت وأستمع أغنية ميادة حناوي (أوّل ما شفتك حبيتك). أدندن مع الأغنية وأتخيَّل ميخا: (أول ما شفتك حبيتك، وقلبي مال يا حبيبي إليك).

ثم غارت في البُكاء ودندنت: (يا فرحتي، يا فرحتي يوم ما رأيتك).

قلتُ لها: أما تزالين تحبينه بكل تلك اللهفة حتى بعد الزواج؟

قالت: بعد الزواج ازداد حبّه في قلبي، عندما يخرج من البيت كي يبيع غزل البنات، أبقى أنتظره وأعدّ الدقائق حتى يعود، صرتُ أغار من أكياس غزل البنات لأنَّها تأخذه منّي. ودندنتْ مرة أُخرى:

(عشقت فيك خفة ظلك، ولطف طبعك وجمالك،).

في الليل كانت عيناي تتعلَّقان في السقف وأتخيَّله.

قلت: ما كان شعورك عندما أراكِ قضيبه وسط السوق؟

استغرقت في ضحكةٍ عميقة وقالت: عندما رأيتُ قضيبه، انجذبتُ إليه أكثر، وتعلَّقتُ به أكثر، كان قضيبه جميلاً مثله ولذلك أحياناً أقبّله.

بقيتُ أنظر في القضيب وقد بقي رافعاً معطفه، يومها لم أملك نفسي وقلتُ له: أنا سأتزوَّجك يا ميخا.

فأخفى قضيبه وقال: عهداً عليّ لن أبرزه لامرأةٍ غيركِ بعد اليوم.

نظرتُ في عينَيه وصدَّقت ما قال. تقدَّمتُ إليه أكثر وقلت: عهداً عليّ بأنّني لن أكون لرجلٍ غيرك.

قال: وهذا المعطف سأحرقه، لن أرتديه بعد اليوم.

عندها صارحتُ أمّي بمشاعري نحوه، وطلبتُ منها أن تُخبر أبي كي يوافق على زواجي منه.

يومها جاءني بغضب كما لو أنّ بركاناً انفجر في داخله وقال: أما وجدتِ غير ميخا.. ستفضحيننا بين الناس.. ميخا مهزلة المدينة.

قلت: يا أبي ميخا كان مريضاً وشفي من مرضه، كانَت حالة وتجاوزها، الآن لم يعد يفعل ما كان يفعله في السوق.

بعد ذلك قالت لي أمّي بأنّه كان يذهب إلى السوق ويبحث عن ميخا حتى يراه، كان يمشي دون أن يبرز قضيبه، وكان الناس ينظرون إليه ويقولون: ميخا تغيَّر يا جماعة، لم يعد يرتدي حتى المعطف، كما لو أنَّه ليس ميخا الذي نعرفه.

والذي يطلب منه أن يبرز قضيبه، يتفل عليه قائلاً: تفو عليك يا بن الحرام. ويتهجَّم عليه، وعندما يهرب، يلاحقه ميخا حتى يمسك به وينهال عليه ضرباً.

رأيتُ أمّي ذات يوم تُخبرني بأن أبي وافق على زواجي من ميخا.

بعد الزواج اكتشفتُ بأنَّه أيضاً يحبّني، وأحياناً يعود من عمله مبكّراً ويقول: لم أعد أطيق الشوق إليكِ يا سلمى.

بكري السوّاس

ارتحنا في ذاك اليوم، وفي مساء اليوم التالي، خرجنا من البيت وكان القمر شديد السطوع، ذهبنا إلى بكري السوّاس في بيته. عندما دخلنا بسيارة الأجرة إلى الحي الذي يسكنه، صرنا نسأل عن البيت، وكان الناس يعرفونه ويشيرون للسائق إلى مداخل الطرق الفرعية حتى وقف أمام باب حديديٍّ مؤلّفٍ من درفتَين. نزلنا وكانت ثمة قطّة بجانب حاوية القمامة بالقُرب من الباب الذي كان مواراباً.

مددتُ رأس سبابتي وضغطتُ على زر الجرس، تناهت إلى سمعي وطأة أقدام، انفتحت درفةٌ إثر سماع سحب المزلاج من الداخل، تراءى بكري السواس مرتدياً البرنس، قدَّمتُ له نفسي، وقدّمتُ زوجتي وقلت بأننا جئنا نتعرَّف عليه بصفته إحدى الشخصيّات الفلكلوريّة في المدينة.

رحَّب بِنا وأدخلنا إلى بيته الذي كان كبيراً ومؤلَّفاً من طابقَين، وتعيش فيه زوجاته الأربع. مررنا بجانب أصصٍ مصفوفةٍ عند حائِط المدخل، غُرِسَت فيها ألوان الزهور.

اصطحبني إلى غرفةٍ، وقادَت إحدى النساء زوجتي إلى ركنٍ آخر من البيت.

جلسنا وهو يُرحّب بي، وبعد قليلٍ دخل شاب يحمل بيده كأساً.

تناول الكأس من يده وقال: هذا حفيدي (غسّان).

ثم قال له: هذا المهندس بهاء جاء مع زوجته لزيارتنا.

تقدّم الشاب، سلّم عليّ، ثم ما لبث أن انصرف.

انتبهتُ للتو إلى ترمزٍ وبجانبه كأس فيها سائلٌ أصفر، يبدو بأنّه كان يشربه ويدخّن من النرجيلة التي كانت وسط الغرفة. حمل الترمز من قبضته وملأ الكأس بالسائل الأصفر وأخذ البُخار يعلوه، مدَّ إليّ الكأس وقال: هذا زعتر برّي، مفيد جدّا يا أستاذ.

تناولتُ الكأس وعلى الفور رشفتُ رشفة من السائل الساخن.

عبَّ نفساً طويلاً من النرجيلة، ثم مدّها إليّ وقال: خذ لك نفس نرجيلة.

تناولتها من يده، فقال: لديّ حفيدة تخرَّجَت هذه السنة من معهد إعداد المعلَمين اسمها (شروق) وهذا الاسم أنا سميته لها، وهو على اسم امرأة أحببتها كثيراً ولكنّها لم تقبل الزواج بي لأنَّني كنتُ متزوّجاً في ذاك الوقت امرأتَين، بقي حبّها في قلبي حتى الآن يا أستاذ، على كل حال لن أطيل عليك، حفيدتي شروق هي أخت الشاب الذي رأيته الآن، يصغرها بسنتَين على ما أعتقد. وهي تبحث عَن وظيفة ولا تجدها، وبِما أنّكَ رئيس قسم، أرجو أن تتوسَّط لها كي تتوظَّف في معمل الغزل والنسيج ولو بعقدٍ مؤقَّت.

قلت: لا يوجد شاغر لدينا حاليّاً.

قال: دعها في بالك يا أستاذ إذا توفّر شاغر، أو رأيتَ وظيفةً أُخرى لها.

تذكَّرت أن مُديرة الروضة التي يذهب إليها ابني نيار هي صديقة قديمة لزوجتي، فقلت: لن أقصّر، وسأبذل كل جهودي.

شكرني وقال أنّ لديه خمسةٌ وعشرون ولداً وتسع بنات، وأمّا أحفاده فلا يعرف أعدادهم، ولا يحفظ أشكال بعضهم: أحياناً يأتيني شخصٌ في

السوق، بعد أن يشرب السوس، يقول: شكراً جدّو. فأقول له: ابن مَن أنت؟ فيقول بأنّه ابن ابني الفلاني، أو ابن ابنتي الفلانية.

ثم همسني بخفوت: بيني وبينك، أميل إلى أحفادي من بناتي أكثر، لأنّني متأكّد مئة بالمئة بأنَّهم من صُلبي، أمّا أحفادي مِن أولادي فلستُ متأكِداً مئة بالمئة بأنَّهم من صُلبي.

قلت: هل ما تزال في نشاطك الجنسي؟

قال: في أيّ عمرٍ أبدو لك؟

نظرتُ إليه وقلت: في الستّين

عطس عطسة شديدة احمرَّت عيناه على إثرها، ثم ابتسم وقال: معك حق، أبدو أصغر من عمري بكثير لأنّ عملي هو رياضة وأحرق الدهون من جسدي، بلغتُ الثانية والسبعين، وكل يوم أفطر العسل وأتغدّى اللحم، وفي المساء أتناول المكسّرات الممتازة، والفاكهة.

لا أذكر أنّه فاتني يوم ولم أجامع فيه مرَّتَين، مرَّة بعد الظهر عندما أرجع لتناول الغداء، ومرَّة في الليل، أشعر بلياقة الشباب يا أستاذ.

وإذا صدف وسافرتُ إلى خارج المدينة وبقيتُ أكثر من يوم، أمارس العادة السريَّة لأنّني لا أستطيع أن أتحكَّم بنفسي، وهو يبقى منتصباً ولا يهدأ.

قهقه ووضع كفه على كفّي وقال: كل الأعضاء في الإنسان يمكن لها أن تقتل: اليد، القدم، العين، الفم. وحده القضيب هو عضوٌ آمِن ولا يمكن له أن يقتل.

❁❁❁

أحضرتُ كل ما استطعتُ أن أجمعه، ورأيتني أمام كمٍ هائِلٍ مِن التسجيلات الصوتية، والصور، ومقاطع الفيديو، والقصاصات، ودفترَين مليئَين بالمُلاحظات، وما يزيد عَن مئة وخمسين ملاحظة دوَّنتها على جوّالي.

بقي أمامي أن أكمل هذه المواد الرئيسيَّة بالذهاب إلى دانيال الأشوري الذي لم أره منذ سنوات الطفولة تلك، ولا أدري إن كان حياً أم ميّتاً، لكن بكل الأحوال وضعتُ في خطَّتي الذهاب إلى الحارة التي ولدنا فيها أنا ونيار، وخطر لي أن أذهب إلى نادر الذي تنتابني رهبةً عندما أراه، خطر لي أن أقوم بتجربةٍ غريبةٍ معه. لكن قبل ذلك أردتُ أن أذهب إلى نيار كي أرى ما الذي استجدَّ معه بعد أن ودَّعته ودخل مع ابنته إلى البيت.

اتَّصلتُ به عصر يوم الخميس، واتَّفقنا أن أزوره في البيت مساءً برفقة زوجتي وابني.

عندها قالت زوجتي: يكون قد حنَّ إلى الطبخ، لدينا قطعة من لحم العجل، سأصنع طنجرة محاشي كوسا وباذنجان، ونأخذها معنا للعشاء.

قلت: هل يكفي اللحم؟

قالت: هو كيلو، سأضع نصفه مع الحشوة، والنصف الآخر أشرّحه وأضعه تحت المحاشي.

بعد الغروب بنحو ساعة كانت الوجبة جاهِزة، فخرجنا وركبنا سيارة أجرة، طلبتُ من السائق أن يأخذنا إلى (المول) وينتظرنا حتى نشتري بعض الاحتياجات.

عندما نزلنا، سحبت زوجتي عربةً من بين العربات التي كانت أمام مدخل المول، ومضينا في ردهة، وهي تضع فيها ما تراه يلزم البيت. وضعتْ صحناً من البيض، وعلبة لبن، وعلبة عسل، وقالباً من الكيك، وطرداً من البيبسي. ومضينا إلى ردهة أخرى وأنا أتتبّعها، وضعتْ طرداً من البطاطا المجفّفة، وبعض علب التونا والسردين، والمرتديلا، والحمص، والفول، ودجاجتَين مجمَّدتَين، ومضينا وهي تضيف حتى وقفت فجأةً وقالت: لم تعد العربة تتّسع يا بهاء. ثم أردفت تقول ونحن نمضي إلى قسم المحاسبة: أشعر بأنني ذاهِبة إلى بيت ابني نيار وقد كبر وتزوَّج، وسوف أرى حفيدتي لأوَّل مرَّة.

طرقتُ الباب، وبعد قليل فتح نيار، وكانت ابنته معه في استقبالِنا. تعاونا في إدخال الأكياس. وجلسنا جميعاً في الغرفة ونيار بين لحظةٍ وأُخرى يقول: أهلاً وسهلاً.. تشرَّفنا. ثم يُبدي حركة لابنته فتقول هي الأُخرى: أهلا وسهلاً.

بعد نحو نصف ساعةٍ نهضتْ زوجتي مع ابنته، فعدلتُ في جلوسي على الأريكة وقلت: طمّني يا نيار.

قال: أستطيع أن أقول أنّني بخير.

قلت: ما كان شعورك عندما نمت أول ليلة في البيت وأنت تعرف بأن غدير لم تعد موجودة في الحياة؟

قال: وضعتُ رأسي على الوسادة وتمنيتُ فيما لو كنّا توصّلنا إلى حلٍّ وسَطيّ، لأنّ الحياة جميلة، وكان ذلك مُمكِناً ومُتاحاً.

في الأيّام الأولى كل شيءٍ في البيت كان يُذكّرني بِها، أحياناً كان يلتبس عليّ الأمر وأصيح: غدير. ولم يكن أحد في البيت.

وأحياناً كنتُ أتحدَّث مع بهيَّة ويلتبس عليّ الأمر فأقول: غدير. فتنظر إليَّ وتبكي. لكن فيما بعد حاولتُ أن أكون مُنتبِهاً، وبعد شهر بدأ الأمر يخفّ.

قلت: هل سألتكَ عنها؟

قال: لم أضع نفسي ولم أضعها في متاهةٍ، صارحتها في اليوم الأوَّل وقلت لها بأن أسطوانة الغاز انفجرت وأن أمها ماتت نتيجة ذلك.

نظرتْ إلى يديّ وازدادَت رعباً، ركضتْ إلى غرفتها وهي تقول: لا تقتلني.. لا تقتلني. تقدَّمتُ إلى الباب وكانت أقفلته على نفسِها، قلت: افتحي يا بنَتي.

جاء صوتُها من خلف الباب مذعوراً: دعني بحالي.. لماذا تريد أن تقتلني.. ماذا فعلتُ بك؟

في صباح اليوم التالي، تقدَّمتُ إلى غرفتها، فوجئتُ بالباب مفتوحاً، وعندما دخلت الغُرفة، لم أجدها، صحتُ: بهيّة.. ولم يردني جواب: بهيّة.. صرتُ أنادي وابحث في الغرف، فعرفتُ بأنّها خرجت من البيت لا أدري متى.

خرجتُ إلى الشارع واتَّجهتُ إلى بيت يمام، طرقتُ الباب، بعد قليل فتح يمام الباب وقال: أهلاً جاري صباح الخير.. لا تقلق بهيّة عندنا بأمان.

طرقتْ باب البيت في وقتٍ متأخّرٍ مِن الليل، وأدخلتها حتى لا تذهب إلى مكانٍ آخر، وكنتُ بعد قليلٍ سأجيء وأُخبركَ بوجودِها عندنا.. تفضَل جاري.

دخلنا إلى الغرفة المفروشة على الدائر بإسفنجات سميكةٍ خلفها رتلٌ من الوسائِد: تفضّل. قالها وهو يشير إليّ بالجلوس. أخرج رأسه إلى الحوش وقال: شاي.

ثم قعدَ بجانبي قائلاً: لا تقلق يا جاري.

انتبهتُ للتو لثيابه السوداء وقلت: لماذا ترتدي الأسوَد يا جاري؟

صمتَ قليلاً وامتلأت عيناه بالدموع وقال: ألم تسمع يا جاري؟

قلت: خير يا جاري؟

قال: تعرف أخي (قاسم)؟

قلت: وكيف لا أعرِفه، منذ أربع أو خمس سنوات تزوَّج وذهبنا إلى عرسه.

قال: منذ شهر فوجئنا بزوجته تتصل بنا وتقول بأنّه انتحر، قالَت: رأيته يضغط على رأسه بشدَّة ويقول: يكاد رأسي ينفجر من الوجع. فركضتُ إلى الصيدليّة وجلبتُ له حبوب وجع الرأس، وعندما دخلتُ البيت، شممتُ رائِحة غريبة. صحت: قاسم.. أين أنت يا قاسم؟

خرج ابني وابنتي من غرفتهما عندما تعالى صوتي. اتَّجهنا إلى الحمّام ورأيناه مرمياً على الأرض والنار تشتعل به.

خرجنا إلى الشارع وصحنا حتى جاء الجيران وأطفأوا النار لكنّه كان قد فارق الحياة.

جفَّف دموعه، وقال: كنّا نسمع ببعض الخِلافات بينه وبينَ زوجته خاصَّة بعد ولادة الولَد والبنت. بعد تشريح الجثة تبينت ضربة على الرأس قبل الحرق، وبعد الضغط على زوجته والتحقيق معها مِن قِبل الأمن الجنائي، اعترفَتْ بأنَّه عندما كان نائِماً في غفوة القيلولة بعد عودته من العمل، وقعت على رأسه بضربة شديدةٍ من المطرقة، ثم لحقتها بضربةٍ أُخرى حتى فقد الوعي، فسحبته إلى الحمّام، رشَّته بالمازوت وأضرمت به النار.

عند ذاك تناهت طرقاتٌ خافتةٌ على الباب ودخلتْ على إثرها زوجتُه حاملةً الشاي.

ألقت عليّ السلام ووضعت سفرة الشاي أمامنا، وتمهَّلَت في الخروج. كانت امرأة سمراء، أذكر أنّها ذات مرَّة أخبرتْ غدير بحاجتهم الماسّة إلى مبلغٍ مِن المال، وقالت بأن زوجها مُحرَج أن يطلب منّي.

كان لديّ مبلغ من النقود أودعته في المصرف، فذهبتُ وسحبتُ من خلال بطاقة السحب الالكتروني المبلغ الذي طلَبَته.

بعد نحو سنةٍ من ذلك جاء يمام إلى بيتِنا برفقة زوجته، أعاد المبلغ وشكرني وهو يقول: تأخَّرتُ عليكَ كثيراً، لكن ظروفي الماديّة صعبة جداً.

فأعدتُ له نصف المبلغ وقلتُ: أرجو أن تتقبَّل منّي هذه المُساهمة البسيطة.

احمرَّت وجنتاه وتردّد، فأدركتُ في تلك اللحظة مدى حاجته، ودسستُ المبلغ في جيبه.

جلستْ المرأة إلى جوار زوجها وقالَت متَّجهةً بكلامها إليّ: لم أنم الليل وأنا أحاول أن أهدّئ بهيّة. منذ حوالي ساعة غفت ونامَت. أردفتْ بعد لحظاتٍ من الصمت: لا تلم الجيران.. الذين يعرفونكَ جيّداً لم يُصدّقوها.. والذين يعرفونك معرفة سطحيّة صدّقوها.. بعض الجيران رفضوا أن يذهبوا للإدلاء بالشهادة عليك في قسم الشرطة، وبعضهم ذهبوا.

كانت تدخل بيوت الجيران بيتاً بيتاً وتعطيهم صورة مشوَّهة عنك. ونحن لو لم نعرفك جيداً لصدّقناها. كانت تتحدّث بشكل مؤثّر وتبكي، وكنتُ أذهب إلى الجيران وأُخبرهم بأنَّ ما تقوله عنك هو محض افتراء. ذات يومٍ طرقتْ بابنا في المساء وهي تبكي، قالت بأن بهيَّة مخطرة وطلبتْ من يمام كي يذهب ويحقنها. ولا أدري لماذا نغزني شيءٌ في قلبي ولم أطمئن لذهاب يمام، فذهبتُ معه وعندما دخلنا، قالَت له: سمعتُ بأن (صفيّة) تذهب إلى الجيران وتقول بأنّني أفتري على زوجي، إذا أخبرَتهم مرَّة أُخرى بذلك، سأقول لأخي أجاويد بأنّني جلبتك كي تحقن ابنتي ولكنّك تماديتَ وحاولتَ أن تغتصبني. ثم أشارَت إلى امرأةٍ كانت هُناك وقالت: وهذه صديقتي تشهد بذلك. يومها لم ننطق بكلمةٍ وخرجنا على عَجَل.

مدّ يمام يده إلى فخذها بحركة سريعة وقرصها، فصمتت المرأة، وبعد قليلٍ فتحت شفتَيها لتقول شيئاً، فقال يمام على الفَور: برأيي يا أستاذ

ندعها نائِمة، وعندما تستفيق تحاول صفيّة أن تُهدِئها أكثر وسنجلبها إليك.

رشفتُ آخر ما تبقى في كأس الشاي ونهضت قائلاً: لا بأس.

عدتُ إلى ترتيب البيت، وقبل الغروب بنحو ساعةٍ جاء يمام مع زوجته ومعهما بهيَّة. أشارت المرأة بإيماءة من رأسِها إلى بهيَّة، فأومأت هي أيضاً برأسِها وتقدَّمَت إليّ، أخذتُها في حضني وصرتُ أزرع وجهها بالقُبلات، وأفرغ كل ما بي مِن شوقٍ فيها.

ألقت المرأة ابتسامة رِضا إلى ابنَتي ولوَّحَت لها بكفِّها، فلوَّحت هي أيضاً بكفِها.

أحياناً أخرج من البيت كي أشتري بعض المستلزمات، ألقي السلام على جواري ونادِراً ما يردّون عليّ السلام، عندما يرونني، يشيحون بوجههم عنّي ويتلفَّظون بألفاظ مبهمة، وإذا صدف ورأيتُ امرأةً في الشارع واقفة أمام الباب، فإنّها عندما تراني، تدخل وتصفق الباب بشدَّة. حتى حمزة صاحب الدكّان في الحارة، عندما أدخل الدكّان يتجهَّم وجهه وتتقطَّب جبهته وكلّما أسأله عن شيءٍ، يقول: غير موجود. وعندما أشير إلى الغرض الموجود في الدكّان، يقول: مُباع. فأضطر للذهاب إلى دكاكين بعيدة لشراء احتياجاتي.

❁❁❁

دخَلت زوجَتي حاملةً فنجانَي قهوة على سفرةٍ صغيرةٍ، وضعتها أمامنا وانصرفَت دون أن تتحدَّث.

مددتُ له سيجارة، فشكرني وقال بأنَّه لا يستطيع أن يغيّر نوعيَّة سجائره. أشعلتُ سيجارتي وصرتُ أعبّ منها أنفاساً مع احتساء القهوة.

لبث صامتاً وهو يحتسي القهوة، امتدَّت يده إلى علبة دخانه، أخرج سيجارة، أشعلها بطقَّةٍ من القدّاحة. قال: ما أخبار الرواية؟

قلت: أنجزتُ التحضيرات الأوليَّة لها، ريناد بذلت جهداً كبيراً في التحضيرات، وبعض الأماكن لم أكن لأدخلها لولا وجودها معي.

تأخَّرتُ في زيارتك لأنَّني كنتُ منهمِكاً في التحضيرات، حصلتُ على إجازة لمدَّة شهر، لكنَّه مضى بسرعة. والآن جئتُ لأعرف هذه المرحلة الجديدة التي دخلتها بعد كل تلك الأحداث.

قال بأنّه في ذاك اليوم أحسَّ بمشاعر غريبة راودَته عندما مدَّ خطواته إلى بيته بعد كل ذاك الانقطاع عنه، وزّع نظراته على كل شيء، على الجدران، على أبواب الغُرَف، على النوافذ، ينظر إلى السماء، إلى البيوت المُطلّة على بيته.

ترك ابنته في غرفتِها وراح إلى المطبخ يغسله وينظّفه من آثار انفجار أسطوانة الغاز، وبعد أن انتهى جلسَ في غرفته وهو يشعر بأنَّه كان في حُلمٍ طويلٍ واستَيقظَ منه للتو.

هكذا في لحظاتٍ نسي كل ما تعرَّض له كما لو أنَّه لم يكن، تمدَّد على الأريكة باسترخاءٍ ولا يدري كيف غفا ليفتح عينَيه في الصباح.

أحسَّ بأنَّه يحتاج إلى البقاء شهراً في البيت دون أن يخرج مِنه، يمضي أطول وقتٍ ممكنٍ مع ابنته، وهو يُحدّثها عن الحياة، عن المستقبل، عن التأقلم مع الحياة دون أم. أن يُجنّبها ما أمكن من التأثّر بِها حتى

لو كان ذاك التأثّر بحكم الوراثة، أن يُهذّبها، يجعلها تقرأ، وتقرأ، وتقرأ، تستمع إلى الموسيقى، وبين فترة وأُخرى سيأخذها في رحلةٍ إلى إحدى الدول لتتعرَّف على المُجتمعات.

وفي أوقاتٍ أخرى يجلس طويلاً مع نفسه وهو في البيت، يُخطّط لمرحلةٍ جديدةٍ من الحياة، لانطلاقةٍ جَديدة ويدع كل ما مضى خلفه كما لو أنَّه لم يكن. يُخطّط للزواج من امرأةٍ يختارها بعنايةٍ، ويبدأ معها كما لو أنَّه يتزوَّج لأوَّل مرَّةٍ.

أحسَّ في تلك اللحظات التأمّليَّة بأن أبواب الحياة الجديدة ستنفتح أمامه إذا مضى إليها بعزمٍ، وأن الحياة في كل الأحوال تحمل الجديد الذي يمكن له أن يُجدّد الإنسان.

في اليوم التالي، وبينما كان يُقلّب بعض الأوراق، وقع على صورةٍ لها، مدَّ يده إلى الصورة، ولأوَّل مرَّةٍ صار ينظر إليها بعمق.. بعمق.. كما لو أنَّه يُسافِر من خلال النظر بَعيداً.

هذه هي المرأة التي كان يعيش معها دون أن يتعرَّف عليها جيداً، لأوَّل مرَّةٍ بدأ ينظر إلى العينَين كما لو أنَّه لم يسبق له أن رآهما، يكتشف للتو بأنَّه لم يسبق له أن رآهما كما يراهما الآن.

ثم يمرّر نظره إلى الخدَّين، إلى الأنف، إلى الفم: وأنا أنظر إلى الصورة أدركتُ بأنَّه لا يوجد حقدٌ يأتي بشكلٍ مفاجئ، بل كان حقداً مُتراكماً بانتظار أن تُتاح له فرصة مُناسِبة ليفصح عن مكنوناته. ما الذي كان يمنعني من النظر إليها بكل هذا العُمق، لو نظرتُ إليها بكل هذا العمق لتغيَّرَتْ أمورٌ كثيرة.

أدركتُ في تلك اللحظات أهميَّة أن ينظر المرء جيداً إلى الذي يجعله مُقرَّباً منه في أيَة عَلاقة كانَت، ينظر بعمق إلى عينَيه، إلى سحنات وجهِه، يستمع جيداً إلى نبرات صوته، يُلاحِظ تصرَّفاته في بعض المواقِف، يأخذ كل شيءٍ على محمل الجدّ، لأن هذا الشخص يمكن له في ظرفٍ طارئ ما أن يتمكَّن مِنه.

نظر إليَّ وأردف: هذا الاحتمال مهمّ يا بهاء، يمكن لك في هذا التنبيه أن تخرج دون خسائِر، أو بخسائِر قليلة، والأهم من ذلك أنَّكَ تكون واقِفاً على قدمَيك، وعلى قوَّتِك، تكون قادِراً على اتّخاذ قرار الخروج.

في ذاك الظرف الطارئ، قَد تكون مُنكَسِراً، ولم تعد قادِراً على استخدام قوَّتِك، تَعجَز عن الخروج من الأزمة التي تشتدُّ عليك، فترى هذا الشخص يتمكَّن منك، ويفتك بك دون أن تستطيع ردَّه.

أجل، مهما كنتَ قوياً ونافِذاً وواثِقاً مِن نفسكَ، يمكن لك أن تقع وتضعف نتيجة خطيئة ما لم تحسب لعاقِبتها حِساباً، أو نتيجة مؤامرة تُحاك ضدّك مِن شخصٍ ما، قد لا تعرفه، وقد يكون هو ذاته الشخص الذي وثقتَ به وجعلته مُقرَّباً منك.

ما أكثر الأشواك التي تُرمى عليك عندما تقع، وما أكثر الورود التي تُقدّم إليك عندما تكون واقفاً.

اعتراه شعورٌ بأنَّه كان يمضي معها جامِداً كما لو أنَّه شَبَح، كان يدور في دوّامةٍ مغلقة بشكلٍ روتيني مضجر.

وكان لا بدَّ من صدمةٍ موجعةٍ كهذه حتى ينتفض مِن غفوته التي كانَت ستقتله، مثل الطبيب الذي يُجري صعقةً للقلب كي يتحرَّك ويعود إلى حيويَّته، ويضخّ الدم إلى العروق بشكلٍ جيِّد.

الفصل الحادي عشر
حافية على كومة ذهب

تناول آخر ما تبقّى من القهوة في الفنجان، حطَّه على صحنه وقال بأنَّه كان جالِساً في البيت يقرأ كتاباً بعنوان: (التهذيب الإيجابي في تربية الطفل) عندما تناهت طرقاتٌ على الباب.

كان مستغرقاً في قراءة ما كتبته الكاتبة بأسلوبها الروائي التشويقي عن أهميَّة التربية الإيجابية في تهذيب سلوك الطفل.

تركَ الكِتاب جانِباً ونهض يمضي إلى الباب الذي توالَت عليه طرقاتٌ أُخرى. عندما فَتَح، فوجئ بمرام في وجهه. قال على الفَور: ماذا تُريدين؟

قالَت وهي واقِفة على العتَبة: الذي وقع لغدير صدَمني، من يومها وأنا مضطربة، أتألَّم بشكل لا يمكنكَ أن تتصوَّره، هي ماتت وارتاحَت وتركتني في كل هذا الألم، صورتها وهي مستلقية على الأرض والدماء متناثرة على وجهِها لا تُفارق مُخيَّلَتي، أحياناً أصرخ فجأة دون أن أسيطر على نفسي.

الآن جئتُ لأخبركَ بالحقيقة وأتوسَّل إليك أن تُسامحني، لأنَّني ظلمتك وكنتُ شريكة لها في ظلمك، أخاف أن يحصل معي مثل الذي حصل معها.

قال: هل جئتِ حتى تتَّهمينني بتهمةٍ جديدة؟!.

قالت: أرجوك اسمعني أنا ندمت، لا أريد منك سوى أن تُسامحني من قلبكَ، أتوسَّل إليك، أنا خائِفة من العِقاب، في نفس اليوم كنتُ بطريقي إلى غدير، وكانَت بيني وبينها دقائِق قليلة.

دَوي الانفجار وصلني، ولم أكن أعرف بأنَّه وقع هُنا حتى دخلت الشارع ورأيت بعض الجيران يركضون إلى البيت.

عندها أصابني الذعر وركضتُ معهم حتى دخلت البيت، ورأيت غدير في ذاك الوضع الدموي المرعب في المطبخ.

توقَّفَتْ قليلاً ثم استأنفت والدموع تنهمر من عينَيها: يا إلهي، في تلك اللحظات كل شيء تغيَّر أمامي، صرخت، ورجعتُ إلى البيت منهارة.

نعم كنتُ إنسانة سيئة وأنا تعاونتُ معها، ولكنني ندمت عندما رأيتها في ذاك الوضع، أليسَ من حقّي أن أندَم؟

نظرَ إليها وقال: من حقّكِ.

عند ذاك قالَت: لديّ ما أقوله لك حتى يرتاح ضميري تجاهكَ يا نيار، أرجو أن تأذن لي بالدخول.

جئتُ في هذا الوقت وأنا أعرف بأن بهية ليست في البيت وهي الآن في المدرسة لأنَّني لا أريد أن تسمع ما أقوله لك.

لبثَ واقِفاً دون أن يردّ، فقالَت وهي تُحدّق في وجهه: جئتُ إلى بيتك، وأنا أتوسَّل إليك، صدّقني لو استطعت أن أصبر أكثر، لَما جئت، أشعر بأنَّني ملغومة وأريد أن أقول لك ما عندي حتى أرتاح.

لبث صامِتاً، وقد امتقعَ وجهُه.

كم رغب أن يتراجع إلى الوراء ويغلق الباب بوجِهها، لكنَّه تردَّد، لأنَّها بكل الأحوال واقِفة أمام بابه. غدا يتمسَّك بزمام نفسه لعلَّها تفقد الأمل وتنصرف. فقالَت وهي تنشج: أرجوك.. أرجوك..

بعد نحو خمس دقائق من الصمت، أدارَت ظهرها وركضت في الشارع. أغلق الباب وعاد إلى غرفته، وقبل أن يجلس، تناهت إلى سمعه طرقاتٌ على الباب، فعاد وفتَحَه، فوجئ بِها تقول: لم أستطع أن أعود إلى البيت، أرجوك أعطني فرصة، لن أطيل، سأعترف لك بِما عندي وأعود.

عند ذاك أشارَ لها بيده كي تدخل، مضى برفقتها إلى حيث غرفة الصالون التي كانَت تجلس فيها مع غدير.

جثت على ركبتَيها في ركنٍ من الأرض دون أن تجلس على الأريكة، ولم يشأ أن يجلس على الأريكة، فجلس قبالتها على الأرض. ساد صمتٌ وهو يصوّب نظراته إليها. قالَتْ: في ذلك اليوم جاءتني غدير إلى البَيت وأخبرَتني بأنَّكَ رأيتها تخرج من بَيت الصائِغ وما حصل بينك وبينها.

رفع حاجبَيه وهو ينظر إليها مُندهِشاً، فأردَفَت: يومها سهرنا حتى الصباح نُخطّط لمخرج لها حتى تبقى في البيت مع ابنتها، لأنَّها كانَت مُتعلِّقة بها كثيراً ولا تتخيَّل أنَّها تستطيع أن تعيش بدونِها، وصرتَ أنتَ العَقَبة. وكخطوةٍ أولى قرَّرنا أن تبقى عندي ولا تذهب إلى البيت، حتى لا يعلم أهلها بالطلاق.

يومَ رأيتَها خارجة من بيت الصائِغ كانَت مرَّت سنة على عَلاقتها به.

كانت دوما قلِقة وتقول بأنَّها لا تُريد أن تقطع علاقتها بالصائغ، وبذات الوقت تخاف أن ينكشفَ أمرُها.

ذاتَ يومٍ اتَّصَلَتْ بي وطَلَبَتْ منّي أن أذهب إليها بسرعة، وعندما ذهبتُ رأيتها مُضطربة، وكانت لوحدها في البيت وكنتَ في العمل، وبهية في المدرسة.

قالَت لي بأنَّها اتفقَت مع الصائِغ للتخلّص منك، وقالَت بأنّه أعطاها سمّاً حتى تضعه لك في الشاي.

صنعت لك إبريق الشاي، وقذفت فيه السمّ، وأتت بِه إليك، صببتَ كأساً وهي ترمقك بحذر وتحاول أن تخفي التوتّر الذي استبدَّ بِها.

رفعتَ الكأس إلى فمك وعندما رشفتَ أوَّل رشفة من الشاي، لم تبتلعها، لفظتها وأنتَ تقول: طعم الشاي غريب يا غدير، هل هو قديم؟

في تلك اللحظات رأت نفسها في مأزق وما كان منها سوى أن نهضت ورفعت صوتها قائلةً: حتى شايي لم يعد يعجبك، قل لي بأنَّك لم تعد تطيقني، بعد اليوم لا تطلب مني أن: اصنع لك شاياً، اصنعه بنفسك.

قالت بأنَّها اصطنعَت ذلك حتى تنشغل بصدامها معك وتنسى أمر الشاي، وقالَت بأن خطَّتها نجحَت عندما رأتكَ تنهض وتصنع بنفسك الشاي من جديد وتطلب منها أن تهدأ.

هزَّ رأسه بذهولٍ وقال: أذكر يومها أخذتُ الابريق إلى المطبخ وأفرغته في المجلى، وصنعتُ الشاي.

قالَت: صحيح وهذا ما قالَته لي.

قال: يومها راودني شكّ، وربما لذلك ذهبتُ وصنعتُ الشاي، والشاي الذي صنَعْته كان طبيعياً ومن ذات الماء، وذات الشاي والسكَّر. لكنَّني

استبعَدت الشك عندما قالَت بأن الماء أحياناً يأتي عكراً من الصنبور، لأنَّهم يضعون فيه بعض الأدوية، وهذا ليس ذنبها.

قالَت: قالَت لي بأنَّها ذهبت إلى الغرفة الأخرى وأخبرَت الصائِغ في الهاتف بِما حصل، فطلبَ منها أن تضبط نفسها، وتبدو طبيعيّة كما لو أن شيئاً لم يكن حتى لا تشك بِها، ومِن الأفضل أن تصطنع بعض المشاكل حتى تُبعدكَ عَن فكرة الشاي المسموم، وأخبرها بأن هناك بعض الطرق الأخرى.

بعد شهرٍ طلب منها أن ترى طريقةً حتى لا تنام معكَ في غرفة النوم، وتنام مع ابنَتها.

بحلَقَ عينَيه وقال: صحيح هذا أيضاً حصل، قالَت بأن البنت هذه الأيام ترى أحلاماً مُزعِجة وتفزع مِن النوم، وعليها أن تكون بجانِبها.

قالَت: قالَت لي بأن الصائِغ أوجد لها هذه الطريقة، وطلب منها أن تدخل عليكَ في الليل وأنتَ نائم وتُشعل المِدفأة وتتركها مشتعلة وهكذا ينقطع عنك الأوكسجين.

قال وهو يزم شفتَيه ويرفع حاجبَيه بحركةٍ واحدةٍ: صحيح، أذكر أن ذلك حصل مرَّتَين، في المرَّة الأولى، أيقَظَني رنينُ الهاتف في وقت متأخّر من الليل وكان بالخطأ، وعندها فوجئتُ بأن المدفأة مُشتعلة رغم أنَّني كنتُ أطفأتها بيدي قبل أن أنام.

عندما أخبرتها في الصباح عن ذلك، قالَت: لم تُطفئها جيداً يا نيار عندما نمت. ولكن عندما أفقتَ على رنين الهاتف وأطفأتها، انطفأت لأنَّكَ أطفأتها جيداً.

ثم سألتني: هل بقيَتْ مُشتعلة؟

قلت: لا.

قالَت: لأنَّكَ أطفأتها بشكل جيد، ومدفأتنا قديمة مضت عليها خمس سنوات وهي عندنا.

في المرَّة الثانية، حلمتُ بسيارة تصطدم بابنَتي وفزعت من النوم، وقلبي يهبط بسرعة، وجسدي متعرّق. ولفتت المدفأة نظري وكانَت مُشتَعلة بعيارٍ زائد رغم أنَّني أطفأتها جيداً وتأكدتُ من إطفائِها قبل أن أنام.

قمتُ من الفراش بسرعة، أطفأتُ المدفأة، واتَّجَهتُ إلى غرفة ابنَتي لأطمئنَّ عليها. كانَت غدير مُستلقية بجانِبها على الفِراش يصدر منها شخيرٌ خفيف، تقدَّمتُ من ابنَتي، وضعتُ ظاهِر كَفّي على جَبهتِها، فَتَحَتْ غدير عَينَيها وجَفَلَت قائلةً: ماذا حصل؟

قلت: رأيتُ في المنام بأن سيارة تدهس بهية وجئتُ أطمئن عليها، هل هي بخير؟

قالَت: نائِمة، حتى الآن لم تفزع من النوم.

قلت: كانَت المدفأة مشتعلة مرة أخرى.

قالت: لأنَّك لم تُطفئها بشكل جيد، أوه، دعني أنام يا رجل، ولا توقظ البنت، بالكاد نامَت المسكينة.

قلت: أطفأتها الآن، وبعد اليوم عندما أنام، سأُخرِجها وأضعها أمام الباب.

زعَقتْ بصوتٍ مرتفعٍ: أنتَ مُصاب بالوسواس، اعرض نفسك على طبيب نفسي.

فتحت بهيّة عينَيها، قعدت في الفراش وهي تنظر إلينا. قالَت بذات الصوت المرتفع:

مرَّةً تقول بأن الشاي معكّر، مرّةً تقول بأن المدفأة تشتعل من تلقاء نفسها، مرّةً توقظني بعد منتصف الليل.

قلت: اصمتي، صوتك يصل للجيران.

قالَت: لن أصمت حتى تجد حلّاً لهلوساتك، خرجتَ من غرفتك كالمجنون وتقول بأن المدفأة لم تنطفئ، كيف للمدفأة أن تبقى مشتعلة إذا انقطع عنها المازوت؟!

الآن تقول بأنّك رأيتَ سيارة تدهس بهيّة، فصرخت بهيّة قائلةً: لا أريد أن تدهسني سيارة.

قالت وهي تنظر إليّ بحدَّة: هل جننت.. وإذا جُننت ما ذنبنا أن نحتمل جنونك وأنت تدخل علينا في هذا الوقت وتفزعنا من نومنا، أتريد لابنتك أيضاً أن تُجنّ؟

وضعتُ كفّي على فمها وقلت: اصمتي، أنتِ ستجنّنين البنت بصوتكِ هذا.

دفعتْ يدي بشدَّة ونهضت منتصبةً على قدمَيها قائلة: اشهدي يا بنَتي بأن أباك أراد أن يخنقني حتى يتخلَّص منّي.

لم أملك نفسي وصفعتها على وجهها وعدتُ إلى الغرفة، أخرجتُ المدفأة وبعد ذلكَ صرتُ أُخرِجها قبل أن أنام.

خبّط بكفَّه على جَبهَته وقال: كان الشك يتسرّب إليّ بوجود شيء غير طبيعي بالنسبة للمدفأة، ولكن لا أدري لماذا كنتُ أستبعد الشك، لا أعرف، لا أعرف، كم كنتُ مغفّلاً.

قالَت: كانت قد توصلت إلى قناعة تامّة بعدم إمكانية استمرار الزواج بينكما، وتُخطّط لحياة جديدة لها، تبقى فيها مع ابنتها وتملك البيت أيضاً لأن موقعه ممتاز ومُتاخم لمركز المدينة.

كانَت تقول لبهيّة أحياناً أمامي: يحاول أبوكِ أن يخنقني كل ليلة عندما أكون نائِمة، فأستيقظ عندما يضع يدَيه حول رقبتي.

وصارت بهيّة تكرهك بعمق.

قال: في الآونة الأخيرة كنتُ أناديها، وكانَت تبتعد عنّي، كانت أحياناً توجّه إليّ نظرات غريبة.

قالَت: نعم، كانت سعيدة بهذه النتائج وتُخبرني بِها. كانَت تقول: بذور الرعب التي زرعتها في قلبها تجاه أبيها أينعتْ وصارَت البنت ترتعب من مجرَّد وجوده في البيت. ثم ضحكت وقالَت: أتعرفين يا مرام بأنَّها لو كانَت ولداً لقتَلَته.. آه ليتها كانَت ولداً لأراحتني مِن مخاطِر كثيرة، كانت بكل بساطة تقتله ولا يدخل السجن بسبب صغر سنّه وحتى لو كان كبيراً ما كان لأحدٍ أن يدَّعي عليه وكان سيخرج من السجن ونعيش معاً.

في تلك اللحظات ونيار يتحدَّث، قفزتْ إلى ذاكرتي الحادثة التي اشتهرَت في المدينة عَن شابٍ مراهق قتل أباه الفنان التشكيلي، كان الأبُ يرسم لوحةً في مرسمه في البيت عندما دخل عليه الابن وأجهز

عليه بعدّة عيارات نارية من مسدس. وقيل بأن الحادثة حصلت إثر خلافٍ حادٍّ نشب بين الفنّان وزوجته قبل عدّة ساعات.

أردفت مرام تقول وهو يصغي إليها: كانت تحبّ المال كثيراً أكثر مما تتصوَّر وتعتبره كل شيء، كانت تضع يدها على فرجها وتقول: بهذا نستطيع أن نسلب الرجال أموالهم. لكن قبل كل شيء عليّ أن أتحرَّر من قيد الزواج، وأبقى مع ابنَتي.

قلت: كان يمكن لكِ ألّا تتزوَّجي.

قالت: أنتِ سفيهة يا مرام وستبقين سفيهة، كنتُ أريد أن أصبح أمّاً من جهة، وأحصل على حريَّتي ويكون لي بيتي الخاص بي من جهة أُخرى، وكان الزواج هو سبيلي الوحيد لذلك. عندما التقيتُ نيار وطلبني للزواج. همهمتُ في نفسي: جئتَ في وقتك، أنتَ مَن كنتُ أبحث عنه. وصرتُ أرمقه بنظراتي وقلت: موافقة حبيبي. وعندما تعرَّفتُ على الصائغ وطلب أن أزوره في البيت، قلتُ في سرّي: جئتَ في وقتك. وكانت خطوتي الانتقالية نحو تحقيق أحلامي. تخيلتُ بأنّني امرأة غنية لدي الأموال والعقارات والسيارات، ولدي سائق وخادمة، ومعي ابنتي وأنا متحرِّرة، وأكون قد تخلَّصتُ من زوجي لأن بقاءه على قيد الحياة كان سيفسد عليّ حياتي حتى لو تطلَّقنا.

موته كانَ الأفضل بالنسبة لي. لذلك كنتُ أتقصَّد أن استفزه وأرفع ضغطة بتصرّفاتي حتى يُصاب بمرضٍ يقضي عليه، أو على الأقل يصبح طريح الفراش حتى أتحكَّم به بشكل جيّد، كانت لياقته تستفزّني، وكنتُ أتقطَّع من داخلي عندما كنتُ أراه يضحك، خاصّة عندما كان يضحك

من أعماقه، فكنتُ أتقصّد فعل شيء حتى أرى وجهه يتجهّم ونفسيته تتعكَّر، وكانت تلك أسعد لحظات حياتي، كنتُ أعيش معها النشوة وأضحك، فيصدّني قائلاً: لا تنظري إليّ.

❁❁❁

عندما تعرَّفَتْ على الصائغ أخبرتني، كان ذلك عندما ذهبت مع أختها (روزا) كي تشتري خاتماً. يومها قال لها الصائغ بأنَّ الخاتم يليق بإصبعها أيضاً، فضحكت. قال الصائغ: ويليق بكِ أن تقودي سيارة آخر موديل أيضاً. ضحكت أكثر وقالَت له: أنت ظريف.

بعد يومَين على ذلك، ذهبت إليه لوحدها فرحَّبَ بِها الصائغ وقال بأنَّ قلبه تعلَّق بِها منذ النظرة الأولى إليها. وقال: لدي أمنية وهي أن أضع كل هذا الذهب تحتَ قدمَيكِ.

قالَت: كيف؟

قال: سأجلبه معي إلى البيت وأجمعه على الأرض حتى تقفي بقدميكِ عليه.

قالَت: الآن صدَّقتُ بأنَّك تحبّني.

وكانَت المرَّة الأولى التي ذهبتْ فيها إلى بيته. كان قد جلب كل ما في المحل من الذهب، وكانت لديه سبائك ذهبيّة في البيت أيضاً. قالَت: عندما وقفتُ حافيةً على كومة الذهب، شعرت بنشوة غريبة.

عند عودتها إلى البيت، أعطاها الصائغ سِواراً من الذهب وقال بأنَّه سيشتري لها سيّارة. أخفت السِوار في البيت حتى لا تراه. وكانت بعد ذلك كلَما تذهب إليه في البيت، يعطيها قطعة ذهب.

حينَ صدر عليك الحكم بالسجن سنتَين، صارت تذهب إلى الصائغ كل أسبوع مرَّة وكانت قبل ذلك تذهب إليه كل أسبوعَين مرَّة، وكان يواظب على إعطائِها قطعة ذهب في كل مرّة. كانت تريني كل تلك القطع من الذهب التي كانت تضعه في صندوق كبير، وتخفيه في دولاب الثياب. كنتُ أنظر إلى القطع وأقول لها: يمكنك يا غدير فتح محلٍّ للصاغة بكل هذا الذهب.

ذات يوم قال لها الصائغ بأن أحد تجار الذهب الكِبار جاء من العاصِمة وحالياً يشتري كميّات كبيرة من الذهب من الصاغة بأسعارٍ جيِّدة. وقال بأنّه باعه كل ما لديه من ذهب وإذا أرادت يمكن لها أيضاً أن تبيعه وتستلم قيمته على الفور بعملة الدولار، وتفتح حساباً في المصرف باسمها وتضع نقودها فيه، وذلك أضمن لها من بقاء الذهب في البيت الذي قد يتعرَّض للسرقة، وقال بأن الدولار أيضاً هذه الأيام يرتفع سعره بشكل سريع.

قالَت له: ماذا تنصحني؟

قال: أنتِ حرَّة يا غدير هذا مالك، لكن أردتُ أن أُخبرك فقط قبل أن يرجع التاجر إلى العاصمة، والقرار لك.

قالت بأنَّها تردَّدَت في البداية، لكن بعد قليل وافقت قائلةً له: تعال خذه، أنا موافقة.

قال: بعد الظهر سأكون في البيت، تعالي واجلبيه معكِ.

وضعت غدير صندوق الذهب في كيسٍ كبيرٍ وأخذته إلى بيت الصائغ في الموعد.

أخذه الصائغ منها وقال: غداً مثل هذا الوقت أكون قد بعته، تعالي حتى أعطيكِ النقود.

جاءت غدير في اليوم التالي، أعطاها الصائغ حقيبة النقود وطلب منها أن تتعرّى كما كانت تفعل في كل مرّة تأتيه. فتعرَّت، شغَّل موسيقى أغنية ألف ليلة وليلة من جوّاله وصارت ترقص على الذهب، وكان الصائغ يشرب الويسكي ويدخّن النرجيلة. في تلك المرَّة أحسَّت بأنَّه أثقل في الشرب، وقالت بأنَّه ضاجعها من مؤخّرتها، وبعد أن انتهى، طلب منها أن تنهض وتكمل الرقص، ونهض، دخل إلى غرفةٍ أُخرى من البيت وبعد لحظاتٍ عاد وبيده سوط.

توقَّفَت عَن الرقص وهي ترمقه، تقدَّم إليها وبكل ما أوتي مِن قوَّة أوقع ضربة سوطٍ على جسدِها العاري. انطلقت منها صرخة مدوّية، وصار ينهال على جسدها ضرباً وكلّما تصرخ وتستغيث، يزداد جَلداً لها بقوَّةٍ أشدّ.

وفجأةً رمى السوط وصار يركلها بيدَيه وقدَميه حتى أغمي عليها. أتى الصائغ بماء بارد من البرّاد وسكبه عليها. تحرَّكَت مرَّة أُخرى فأمسك بشعرها وصار يجرّها في أنحاء الغرفة وهو يقهقه ملئ شدقَيه. قذف النرجيلة إليها بركلة من قدمه فصارت تصرخ أكثر من لسع جمرات الفحم على جسدها. فتح زجاجة ويسكي جديدة وصار يسكب على أنحاء جسدها حتى فرغت. انقضّ على شعرها ثانيةً واتَّجه بها إلى الباب ليُخرِجها، فتمسَّكَت بجانبٍ من الباب وهي تتوسَّل كي يعطيها ثيابها.

لطمها على أنفها بقبضة يده فصار الدم ينز من أنفها وفمها، وسقط من فمها سنّان على الأرض، وهي ما تزال ممسكة بقبضة الباب وهو يدفع بِها عارية إلى الشارع.

بعد قليلٍ تراجع إلى الوراء ورمى الثياب بوجِهها قائِلاً: إذا رأيتكِ في هذا الشارع مرة ثانية سأرسل لقطات الفيديو التي تبدين فيها عارية وأنتِ ترقصين على الذهب والدولارات إلى أخيك أجاويد.

عند وصولها إلى البيت، اتَّصلَت بي وترجَّتني أن أحضر إليها حالاً، كانت نبرات صوتها ترتجف في الهاتف.

خرجتُ مِن البيت وسارعت الخطى إليها. كانَت مُنهارة، وقد انتفخ وجهها، وتورَّمت عيناها بشكلٍ مرعب، أخبرتني عن الذي فعله بها الصائغ، وكانَت على وشك أن تنفجر من الغيظ.

طلبتْ مني أن أجلب لها بعض الأدوية من الصيدليَّة، وقالت بأنّها لا تملك شيئاً، حتى ما كان لديها من ذهبٍ قديم وخاتم الزواج أضافته إلى الذهب، وكانت تُخطّط أنها فور استلامها للنقود ستشتري محلّاً وتؤجّره كي تستفيد من أجرته كضمانة لها ولابنتها.

ذهبتُ بسرعةٍ إلى البيت وطلبتُ من أبي بعض النقود وقلت له بأنَّ صديقتي تعرَّضت للحرق ولا تملك قيمة العلاج، مدَّ يده إلى جيبه دون أن يتحدَّث وناولني مبلَغاً.

خرجتُ مِن البيت واتَّجهتُ إلى الصيدليَّة، طلبتُ من الصيدلاني دواءً لعلاج التقرّحات على الجلد وتخفيف الألم، فأعطاني مرهماً، وظرفاً من حبوب السيتامول وقال: ادهني أماكن التقرّحات بالمرهم، وعند الألم

استخدمي حبَّتين. أخذتُ الدواء وسارعتُ الخُطى إلى غدير، بدأتُ أدهن جسدها، وهي تتوجَّع بحرقةٍ. كان جسدها قد تحوَّل إلى بقعٍ حمراء، وزرقاء، وسوداء، خضراء، صفراء.. وكان الدمّ محتقناً في بعض الأماكن، وينزّ من أماكن أُخرى.

حاولتُ أن أقنعها كي تذهب إلى الطبيب وسأتدبَّر لها مبلغاً، لكنّها رفضت ذلك وقالت: ما الذي سأقوله له إذا سألني عَن الذي فعل بي هذا؟ أخاف أن يتَّصل بالشرطة ويفتضح أمري. بأيّ وجه سأذهب إلى الشرطة وإلى القضاء، وماذا أقول لأخي عندما يرسل له مقاطع الفيديو وأنا عارية أتحدَّث بألفاظٍ جنسيّة كان يستدرجني إليها الخبيث.. كم كنتُ ساذجة يا مرام.. لم أعد أحتمل الألم. وبين لحظةٍ وأخرى أدهن جرحاً وهي تصرخ. أقفلنا الباب حتى لا تدخل بهية فجأةً وتراها.

قلت لها بأن أمّها مريضة والطبيب نصح بألّا تتحدّث مع أحد، وأنا أقوم بالعناية بِها. استأذنتُ أهلي وأمضيتُ عشرة أيّام عندها، كانت أسوأ عشرة أيّام مرَّت عليّ في حياتي.

كانت تطلب منّي أن أجلب لها سمّاً كي تجرعه وترتاح، ترفع يدَيها إلى السماء وتقول: خذ أمانتك يا رب، ارحمني، كفاني عذاباً، لم تعد لديّ طاقة للتحمّل، حتى الهواء الذي أتنفَّسه باتَ يؤلمني.

كنتُ أشتري الخبز ونأكل مِن حواضر البيت، وكان الألم يلتهب عليها كل يوم أكثر من سابقه، ويتحوَّل جسدها إلى كتلة أورام وفقاعات، وجروح تخثَّرَت حولها الدماء، تريد أن تصرخ ولكنها تكتم صراخها حتى لا تسمعها بهيّة. وعندما كانت بهيّة تذهب إلى المدرسة، كانت تُفرغ

كل تلك الصرخات المكتومة في صدرِها وتقول بأنَّها تشعر بشيءٍ من الارتياح عندما تصرخ: أريد أن أصرخ.. وأصرخ قبل أن ترجع ابنَتي. تتأوَّه، يتعرَّق وجهها، تحمرّ عيناها، تتسارع أنفاسها، تضغط بكفّها على كفّي وتقول: أرجوك يا مرام.. أوجدي لي حلّاً.. افعلي أيّ شيء حتى يخفّ عنّي هذا الألم ولو ساعة واحدة، ولو نصف ساعة. فأعود وأدهن جروحها، أعطيها حبتَي (سيتامول) حسب إرشادات الصيدلاني. تغمض عينَيها، تُحاول أن تنام، لكنَّها تعود إلى الصراخ وترتعد بكلّ أعضائِها.

في أوقاتٍ متأخّرة من الليل كانت أحياناً تغفو وهي تصدر أنيناً، وبعد قليلٍ تجفل، فأضع في فمها جرعة ماء.

قلت لها: سأسعفكِ إلى المُستشفى وليحدث ما يحدث.

قالَت: إيّاك يا مرام.. لن يدعوني قبل أن يعرفوا الذي اعتدى عليّ.. لا يا مرام أرجوكِ.

بعد الأيّام العشرة، نفدتْ النقود التي كنتُ أخذتها مِن أبي، قلتُ لها بأنَّني لا بدّ أن أذهب إلى البيت، سأبقى يومين وأعود.

قالَت والدموع تملأ عينَيها: تعالي أقبّلكِ.. ربما تكون المرة الأخيرة التي نلتقي فيها. ملتُ بوجهي إليها، رفعتْ رأسها قليلاً عَن الوسادة، تبادلنا قبلات بحرارة وانهمرت دموعٌ غزيرة من عينَي.

في تلك اللحظات شفقتُ بِها أكثر مِن أيّ وقتٍ مضى، كانت تتألّم بحرقة، أصبح وجهها مُخيفاً من شدَّة الاصفرار.

صمتت، وهي ما تزال تنظر إلى الأرض بوجهها العابس، وهو ينظر إليها بعينَين ثابتَتَين وقد وضع كفَّه على خدّه. امتلأت الغرفة برائحةٍ

نتنة أخذت تنبعث منها، جفَّفَت حبّات العرق التي تندَّت من جبهتها وقالَت: لم تنفجر أسطوانة الغاز بِها يا نيار، هي التي أشعلت فيها النار وفجَّرتها بنفسها، أرادت أن تضع نهايةً لتلك الآلام التي لم تعد قادرة على تحمّلها. عندما خرجتُ من عندها آخر مرَّة، كان كل ما فيها يقول لي بأنَّني لن أراها مرَّة أُخرى.

مدَّت يدها إلى حقيبتها الخمريَّة التي كانت وضعتها أمامها، أمسكت برأس السحّاب وجرَّته، دسَّت يدها إلى أحشاء الحقيبة وأخرجَت منها سلسلةً ذهبيَّةً ومدَّتها إليه قائلةً: هذه السلسلة كانَت ثمن خيانَتي، أعطاها الصائغ لغدير كي تعطيها لي، وهي الآن من حقّك.

رفع يده وردَّ بلطفٍ يدها الممدودة وقال: هذه لكِ، وبالنسبة لي اطمئنّي لقد سامحتكِ، ندمك على ما فعلتِ يساوي عندي جبلاً مِن الذهب.

الفصل الثاني عشر
شجرة السَّفَر

دخلتْ ريناد وفرشتْ بساطاً من النايلون الملوَّن على الأرض، وأتت بالطعام برفقة بهية. نظرتُ إلى ساعة هاتفي وكانت قد بلغت الحادية عشرة، وأنا أنظر إلى الطعام، أحسستُ للتو بأن بطني يقرقر جوعاً. سألتُ زوجتي عن نيار، فقالت بأنَّه نائم. جلسنا جميعاً نأكل المحاشي التي سخَّنتها زوجتي. قال نيار: سلمت يداك يا أم نيار.. ثم أردف وهو يأكل: كم اشتقتُ لهذه الأكلة.. منذ مدَّة طويلة لم أذقها.

قالت: صحة وهنا، في أي وقت تشتهي أي طعام أنا جاهزة.

بعد الانتهاء من الطعام عادت زوجتي مع بهية وبقينا مرّةً أخرى لوحدنا فقلت: ما الذي ستفعله في هذه المرحلة يا نيار؟

قال: زارني صديقي مصطفى مع زوجته منذ أسبوعَين وقال بأن عمّه يملك محلّاً في السوق واقترح أن أستأجره وأحوّله إلى صيدلية زراعية. اقتنعتُ بالفكرة، وعندها اتصل بعمّه الذي وافق أن يؤجّره لي. وقال بما أنّني صديقه، سوف يعتبر أجرة ستة أشهر أُولى هدية حتى أستقرّ في العمل. تشجَّعتُ للفكرة، وشجَّعني مصطفى أكثر.

لم يبق أمامي الآن سوى السفر حتى أعود وأفتح المحل، عندما اتصلتَ بي كي تذهب مع زوجتك إلى مصطفى، أقنعتني بضرورة السفر في هذا الوقت حتى يكون فاصِلاً مُريحاً للمرحلة الجديدة.

قلت: حاجة بهية إلى السفر في هذه المرحلة هي أكثر من حاجتك له يا نيار، عندما تسافِر معك، ستألفك أكثر، تشعر بحمايتك لها أكثر. الأمر مهم جداً وكلّما سارعتَ بالسفر كلما كان أفضل.

قال: هل جلبتَ الرواية معك؟

قلت: نعم. وناديت: ريناد.. ريناد..

فتحت الباب وأطلَّت برأسها.

قلت: وضعتُ في حقيبتك رواية، أريدها.

بعد قليل دخلت حاملة الرواية، مدَّتها لي وخرجت.

أمسكتها بيدي وقلت: تتعمَّق الكاتبة في هذه الروية بدراسة مشاعر المسافر من خلال الأشياء الجديدة التي يكتشفها ويستمتع بها: متعة حجز تذكرة السفر، مشاعر الختم على جواز السفر، تحضير حقيبة السفر، الجلوس في قاعة الانتظار في المطار ريثما يحين موعد إقلاع الطائرة، استلام مفتاح غرفتك في الفندق، النوم في مكانٍ جديد وعلى سريرٍ جديد، تناول طعامٍ جديد، رؤية وجوه جديدة، سماع لغات جديدة.

تشعر الفتاة منذ سنوات طفولتها بأنها محاصَرة داخل نفسها، وتريد أن تحرّر نفسها من نفسها من خلال الهروب والانطلاق إلى رحابة العالم، ولم تستطع ذلك خاصَّة وهي ابنة لأبوَين لا يُحبّان السفر، ولم تجد فرصة للخروج من ذات المكان طوال فترة الطفولة، فانتظرتْ وهي تُصارع مشاعر الحِصار حتى أصبحت شابَّة وأكملت دراستها، فقرَّرت الترحال إلى رحابة العالم.

استغرق السفر سبع سنواتٍ مع الفتاة وهي تكتب يوميّاتها وتبيِّن خصائص ومزايا السفر: في الحافلات، الطائرات، المترو، السير على الأقدام. ولكل وسيلة نقل خصائصها وجماليّاتها، تتنقَّل بين الإقامة في البيوت، مقرّات العمل، والفنادق، وكلّما تنفد نقودها، تعمل في المكان الذي تكون فيه حتى تجمع بعض النقود ثم تسافر إلى مكانٍ آخر، وهذا المكان الآخر لا يكون مُخطَّطاً له، بل تسافر بشكل عشوائي إلى أيّ مكانٍ لا على التعيين من قارة إلى أخرى ومن ثقافة إلى أخرى حتى تتيح لنفسها الدهشة التي تشعر بِها وهي تدخل مكاناً لم تكن قد خطَّطَت للذهاب إليه. وكما أنَّها تنفتح من خلال التعرف على الأمكنة الجديدة، فهي أيضاً تنفتح على التعرف بأشخاصٍ جدد في تلك الأمكنة.

تقول: (لقد تعلمت الكتابة في القطارات والفنادق وقاعات الانتظار، على طاولات المقاعد في الطائرات. أسجّل ملاحظات على الغداء، تحت الطاولة، أو في الحمام، أكتب في المتاحف، في المقاهي، في السيارة على جانب الطريق السريع. أخربش الأشياء على مزقٍ من الورق، في كراسات، على بطاقات بريدية على يدي الأخرى، على مناديل، على حواف الكتب).

مددتُ الرواية إليه وقلت: مِن هذا المنطلَق، تحضّك الرواية على السفر وتقول لك: هيا أحضر حقيبةً صغيرة ومبلغاً من المال وانطلق مِن مكانك الذي أنتَ فيه إلى أيّ مكانٍ آخر قبل أن يضجرك المكان، وتضجره، ثم عد إليه بحنينٍ جديد، ويستقبلكَ بحنينٍ جديد: (سافر.. لا تكن شجرة).

نظرتُ إلى الساعة وكانت قد بلغت الواحدة ليلاً، فنهضت، أمسكَ نيار بي قائلاً: لا يمكن أن أسمح لكم الخروج مِن بيتي في هذا الوقت المتأخّر.

مضينا معاً إلى غرفةٍ أُخرى، رأيناهم نائمين.

عدنا إلى غرفتنا التي كنّا فيها، أتى ببطانيتَين واستلقى كل واحدٍ منّا على أريكة. تمتم نيار وهو ممدّد على ظهره: لا تقع الكارثة عليك قبل أن تسبقها علامات، ولا تحل النعمة عليك قبل أن تسبقها علامات.

خذ العلامات بجدّية ولا تستهن بِها مهما كانَت صغيرة أو كبيرة. على الأغلب فإن العلامات لا تكون لمرةٍ واحدةٍ، بل تأتي بشكلٍ متصاعِدٍ، حتى تثبت لك بأنَّها علامات.

وفي الحالتَين ستكون الخاسِر إذا أهملتها، فتقع عليك الكارثة، إذا أهملتَ علاماتها، وتذهب عنك فرصة حلول النعمة إذا أهملتَ التهيئة لها.

بعد قليلٍ من الصمت تناهت نبراته الخافتة مرة أُخرى: عليكَ عند بيان العلامات أن تشمّر عن ساعد الجدّ، وتفعل ما بوسعك أن تفعل حتى تتجنَّب الكارثة، أحياناً لا تكون المواجهة سهلة خاصَّةً مع تراكم العلامات، لأن مع كل علامة تُصبح الكارثة أكثر قرباً للتمكّن منك والفتك بك، وهُنا يمكن لك أن تُقدّم بعض التضحيات أو الخسائِر حتى تنجي نفسك ممّا هو أعظَم، مثل شخصٍ استفحَلَ سرطانٌ خبيثٌ بقدمِه، فيبتر القدم، حتى ينجي باقي الجسد، أمّا إذا تردّد أو لبث خائِفاً، فسيهلك الجسد كلّه.

دانيال الآشوري

بعد العصر نهضتُ من قيلولة، تهيّأتُ للذهاب إلى حارتي القديمة واللقاء بدانيال الآشوري، حضرتْ مشاهِد الطفولة إلى ذاكرتي عندما كنتُ أذهب برفقة نيار إليه.

تلك الحارة التي لم أرها منذ أن تركناها ونقلنا بيتنا. أتت ريناد بإبريق الشاي، جلسنا كعادتنا كل يوم نحتسي الشاي بعد القيلولة، دخَّنتُ سيجارة مع الشاي ونهضت.

قالت ريناد عند خروجي: خذ بالك من نفسك.

هززتُ رأسي وخرجت، وقفتُ في الشارع بانتظار سيارة أجرة، أحسستُ برغبة في تدخين سيجارةٍ أُخرى، أشعلتها وبعد لحظاتٍ لاحت سيارة قادمةً في الشارع، أشرت لها بيدي فأتت وتوقَّفت بجانبي. فتحتُ الباب، قلت للسائق: هل تضايقك السيجارة؟

قال: لا يا أستاذ، أنا أيضاً أدخّن. وسحب سيجارةً وضعها في فمه، ثم أشعلها بولاعة السيارة. بعد قليلٍ وأنا أنظر أمامي، جاء صوتُه: اعتدتُ على الدخان والشرب منذ سنواتٍ طويلة.

التفتتُ إليه، مدّ يده إلى جيب بنطاله، أخرج بطحة عرق، جرع منها جرعةً وأردف يقول: لا أتخيَّل نفسي دون الدخان والشرب.

أنا يا أستاذ بعيد عن المشاكل، لا أريد أن أؤذي أحداً ولا أقبل أن يؤذيني أحد، أخرج من الصباح وأرجع في الليل، أربّي عائلتي بجهدي.

جرع جرعةً أُخرى، ومدّ القنينة الصغيرة إليّ، اعتذرت، فقال: اجرع جرعة صغيرة أستاذ، لا تردّ يدي.

فتناولتها وجرعتُ جرعةً وأعدتها له.

قلت: حادّ كثيراً.

قال: اعتدتُ على عرق (السكّ) بدون ماء، أستلذّ به أكثر.

مدَّ يده إلى جيب قميصه، ناولني عدّة حبّات بندق، وقذف حبّةً في فمه، ثم لحقها بحبّةٍ أُخرى.

دخلت السيارة إلى الحارة، كانت بعض البيوت ما تزال على هيأتها رغم وجود بعض التغييرات الطفيفة عليها، إلى جانب بيوتٍ جديدة لم تكن موجودة في السابق. أخذتْ أنسام الطفولة تتسرّب إليّ ونحن نمضي حتى وصلنا إلى دكّان دانيال الذي كان مغلقاً وإلى جانبه يجلس بعض الأطفال. نزلتُ مِن السيارة وسألت الأطفال عن دانيال، فقالوا بأنّه أغلق الدكّان منذ قليلٍ وذهب إلى السوق. كان ذات الباب القديم، ولكنه طلاه طلاءً جديداً.

نظرتُ إلى الشارع، مددتُ خطواتي أمشي الهوينا في تفرّعات الحارة، مررتُ بجانب بيتنا السابق، كان قد جرت عليه بعض الترميمات، وكان الباب جديداً ومختلِفاً عن الباب القديم. وقفتُ قبالة الباب أنظر إلى سطح بيتِنا. كم مرة خرجتُ من هذا البيت، كم مرة دخلته، هذا البيت الذي ولدتُ فيه، أطلقتُ صرختي الأولى في هذا العالم بين جدرانه.

عدتُ بعد تلك الجولة الممتعة إلى الدكان، وجدته ما يزال مغلقاً وكان الأطفال قد اختفوا.

أحسستُ بإرهاق من المسافة التي مشيتها على قدمَي، وقفتُ بجانب باب الدكّان المُغلَق وأنا أنظر إلى الظلام يخيّم على المكان، والخفافيش تنتشر وهي تطير في الأجواء بشكلٍ منخفض. تأمّلت هذه الحيوانات الغريبة التي تظهر في الظلام، الوحيدة التي تطير دون أن يكون عليها ريش، وعليها شعر ناعم كشعر القطط، الوحيدة من الثدييات التي تملك جناحَين، كل الحيوانات التي تملك جناحين تبيض، وحده الخفّاش لا يرضخ لهذه المعادلة. كل الحيوانات التي تتكاثر بالولادة، لا تطير، وحده الخفّاش لا يرضخ لهذه المُعادلة.

فوجئتُ بتوقّف سيارةٍ بالقُرب منّي وكان مقودها يقع في اليمين، بعد لحظاتٍ تناهى صوتٌ من داخل السيّارة: أستاذ بهاء..

تقدَّمتُ إلى السيارة: أستاذ بهاء أما عرفتني؟

نظرتُ إليه، لم تكن ملامحه غريبة عنّي كثيراً لكنّني لم أذكره. قال: أنا غسان حفيد بكري السوّاس، رأيتك في بيت جدّي.

قالها ومدَّ يده فاتحاً لي باب السيارة: تفضّل أوصلك.

شكرته وصعدت السيارة، عندما قادها راودني شعورٌ غريبٌ وهي المرّة الأولى التي أركب فيها سيارة مقودها على اليمين. همهمتُ في سرّي: تُرى هل هي مُصادَفة أن رأيتُ حيواناً استثنائياً في الطيران والولادة، وبذات الوقت رأيتُ سيارة استثنائية في مقودها. لا أدري لماذا خطر لي في تلك اللحظة بأن الأشياء المُتشابهة تأتي دفعة واحدة، تأتي المُنغّصات تلو المنغّصات كما لو أنّها لا تنتهي، تأتي المسرّات تلو المسرّات كما لو أنّها لا تنتهي.

جاء صوتُه: أستاذ أما وجدتَ فرصة عمل لأختي شروق؟

تذكَّرتُ للتو ما قاله لي بكري السوّاس، وكنتُ قد نسيتُ الأمر تماماً.

تذكَّرتُ مِن جديد أن ريناد على علاقة جيدة بمديرة الحضانة التي يذهب ابننا نيار إليها، عندما وصلنا البيت أخذتُ رقم هاتفه وقلت: شكراً على التوصيلة يا غسان، بلّغ سلامي لجدّك، وسأتَّصل بك إذا استجدّ معي شيء.

دخلتُ البيت وأخبرتُ ريناد بأنّني لم أر دانيال الآشوري.

قالَت: أما زال في الدكّان؟

قلت: نعم، ويبدو أنّه قد ذهب إلى مكانٍ ما وتأخَّر، غداً سأعود إليه.

وأنا أستبدل ثيابي، قلت: اتَّصلي بصديقتك مديرة الحضانة واسأليها عن إمكانية توظيف فتاة متخرّجة هذه السنة من معهد إعداد المعلّمين.

قالَت: أهي قريبتك؟

قلت: لا، هي حفيدة بكري السوّاس.

هزَّت رأسها وقالَت: غداً سأتَّصل بِها.

عصر اليوم التالي عدتُ إلى دانيال ورأيت باب الدكّان مفتوحاً. تقدَّمتُ من الباب، سمعتُ صوت دانيال، ظننتُ بأنّه يتحدّث مع أحدٍ، لكنّني عندما دخلت رأيته يجلس خلف تلك الطاولة القديمة، يتحدَّث مع نفسه وقد أخفض رأسه إلى الأسفل.

تعمدتُ سعلةً، فرفع رأسه ونهض، كانت ملامحه قد تغيّرَت، طغت التجاعيد على قسمات وجهه وامتدَّت إلى حلقه، اشتعل رأسه شيباً، حتى نبرات صوته قد تغيَّرت، وتقوَّس ظهره، بدا لي كما لو أنَّه مريضٌ في مسشفى.

قلت: هل عرفتني يا عم دانيال؟

حدَّق في وجهي مليّاً بعينَيه اللتين كان يفتحهما ويغلقهما بسرعة وقال: أنتَ بهاء.

أدهشتني قوَّة ذاكِرته، تقدَّمتُ وصافحته، قبَّلته على خدَّيه المتغضّنَين.

جلسنا في الدكّان، بعد قليلٍ ضيَّفني علبة بيبسي وقال: كنتَ دوماً تأتي برفقة نيار.

قلت وأنا أفتح العلبة: نعم.

قال: أين هو.. ما أخباره؟

قلت: نيار تزوَّج لكن زوجته ماتت بانفجار أسطوانة الغاز بِها في المطبخ، وله منها ابنة، توظَّف في مديرية الزراعة فترة، والآن يرتّب لفتح صيدليّة زراعية في السوق.

قال: مات أبوه، وبعده ماتت أمّه، بيتهم ما يزال موجوداً يعيش فيه أخوه حواس الذي يصغره بسنَتَين، له ابن اسمه (أزهر) كما لو أنَّه صورة طبق الأصل عَن نيار، دوماً أقول له: أنت تشبه عمّك نيار يا أزهر.

أهلاً وسهلاً. قالها وهو يرحّب بي من جديد.

قلت: أنت جزء من ذاكرتي يا عم دانيال وأنا مقصّر بأنّني لم أزرك مِن قبل.

قال: أرجو أن تكون سعيداً مع عائلتك، الدنيا كلّها مشاغل يا أستاذ، ومشاغلها لا تنتهي.

تذكَّرت ما كان يدور في الحارة عندما كان الحديث يدور حول دانيال، ولم يكن أحد يعلم عنه شيئاً سوى أنه ظهر فجأةً في الحارة وكان في نحو الخامسة عشرة مِن عمره، استأجر هذا البيت، وفتح فيه الدكّان، ومع السنوات، اشترى البيت من صاحبه. وعندما كان يُسأل عَن أهله كان يقول بأنَّهم يعيشون في إحدى القُرى. وهذا كل ما كنّا نعرفه عنه.

قلت: كم بلغ عمرك يا عم دانيال؟

قال: صرتُ في الخامسة والثمانين.

قلت: ماتزال تعيش لوحدك.. أما فكَّرت بالزواج وإنجاب أطفال؟

تغيَّرت سحنته وتنحنح دون أن يتكلَّم.

قلت: أعتذر منك يا عم دانيال.

قال: لا يا أستاذ، لا تعتذر.

قلت: ربما لن نلتقي بعد الآن، لذلك سألتك.

قال: لم أخبر أحداً منذ اليوم الأوَّل الذي خرجتُ فيه من القرية، وهذه هي المرَّة الأولى التي أتحدَّث فيها مع أحدٍ في هذا الأمر. كثيرون في الحارة وفي غيرها كانوا يسألونني، وكنتُ أختصر لهم الإجابة بأن أهلي

في القرية وأغيّر الموضوع. ارتحتُ لك يا أستاذ عندما رأيتك، أنتَ أيضاً جزء من ذاكرتي وما شاء الله كبرت وصرت مهندساً ولك بيت وعائلة.

قلت: هذا يشرّفني يا عم دانيال.

قال: كنّا أخَّين في البيت أنا وأخي (دالي) الذي كان يكبرني بأربع سنوات. وكان أبي يملك بستاناً في القرية يزرع فيه الخضار والفاكهة ويبيعها ونعيش من هذا العمل. كان له صديق قصير القامةِ له شاربٌ كثٌ يصبغه مع شعره بصبغة سوداء داكِنة، اسمه (إلياس) يسكن في قرية محاذية لقريتنا، وكانت لديه درّاجة نارية (هوندا) يتردّد إلى بيتنا دائماً، ولا يمرّ أسبوع إلّا ويأتي أكثر مِن مرّة راكِباً درّاجته ويعتمر خوذةً عندما يقودها.

كان صوت درّاجته يسبقها إلينا عندما كان يأتي وكُنّا نقول: جاء عمو إلياس.. جاء عمو إلياس. كان يجلس مع أبي لساعاتٍ طويلة وأحياناً كان يروي نكتاً بذيئة فكنّا نسمعها ونضحك.

وكان أبي يخرج لاستقباله عندما يسمع صوت الدرّاجة، وإن لم يكن في البيت، كانت أمّي تخرج وتستقبله، تُدخله وهي ترحّب به بحفاوة، فيجلس بانتظار أن يأتي أبي.

ذاتَ يومٍ جاء إلى بيتنا وذهب أبي إلى الدكّان يشتري دجاجة للغداء وطلب منه أن يتغدّى عندنا. خرجتُ أمشي مع أبي قليلاً، ولم أكمل فرجعت، وقبل أن أدخل البيت بخطواتٍ، سمعت صوت إلياس يقول لأمّي: إنّه ابني، مشاعري نحوه مختلفة عَن مشاعري نحو دالي.

قالَت أمّي: يشبهك كثيراً وكلّما يكبر، يميل شبهه إليك أكثر حتى صرتُ أخاف أن يشكّ (أفرام) بالأمر.

انظري إلى هذه الصورة، كنتُ حينها بعمره. ويظهر أنّه أراها صورةً قديمةً له عندما كان بعمري آنذاك. فقالَت أمي: أخفها يا إلياس، لو لم تقل بأنّها صورتك، لقلت بأنّها صورة دانيال.

للتو صرتُ أدرك لماذا كلَما كان يراني عندما كنتُ صغيراً كان يحملني على ذراعَيه ويقبّلني ويعطيني نقوداً، وحتى عندما كبرت كان كلّما يأتي، يسأل عنّي ويقبّلني ويُقعدني بجانبه ويضمُّني بذراعه. وهذا ما لم يكن يفعله مع أخي دالي.

تخيَّلتُ أبي المسكين الذي اكتشفتُ بأنَّه ليس أبي سوى في الهوية، دخلتُ عليهما فجأةً وجَفَلا. قالت أمّي: تعال يا دانيال سلّم على عمو إلياس. لأوَّل مرَّة لم أتقدَّم إليه وأنا أرمقهما. قالَت أمّي: دانيال كبر ويستحي يا إلياس لا تؤاخذه. نهض إلياس إليّ وجاء ليضمّني إلى صدره، فقهقرتُ وخرجتُ مِن الغرفة.

ذهبتُ إلى الغرفة الأخرى وكان أخي دالي جالِساً فيها. نظرتُ إليه، تخيَّلتُ ملامح وجه أبي، قارنتها بملامح دالي، كانت الملامح مُتقارِبة.

نبَشتُ في الدولاب حتى وجدتُ صورةً لأبي كانت بالأبيض والأسود،

أتيتُ بِها، حملتُ مرآة صغيرة كانت في النافِذة وصرتُ أنظر إلى وجهي تارةً وإلى الصورة تارةً أُخرى دون أن أرى ملمحاً واحِداً لأبي في ملامح وجهي. ومرَّة أُخرى صرتُ أنظر إلى دالي وإلى الصورة وأرى ملامح أبي في وجهه. وكان دالي ينظر إليّ دون أن يتكلَّم. تناهى صوت أبي في

الحوش، أدركتُ بأنّه عاد وقد جلب الدجاجة. بعد لحظاتٍ دخلتْ أمّي وعندما رأت الصورة والمرآة بيدي، قطَّبت جبينها وقالَت: ماذا تفعل يا دانيال؟

نظرتُ إليها ولم أجب.

تقدَّمَت إليّ وأمسكت بأذني قائلةً: لماذا أخرجتَ الصورة، ولماذا تنظر في المرآة؟

نزعتُ يدها عن أذني وخرجتُ من الغرفة. تناهى صوت أبي الذي كان قد جلس مع إلياس: استعجلي في الغداء يا (توليب). خرجتْ أمّي إليهما وقالَت: أمرك يا أفرام هل أضعها على البرغل أم الرز؟

قال: على البرغل وأكثري الشعيرية، واعملي معها سلطة خيار ولبن.

أمرك يا أفرام. قالتها واتَّجهَت إلى المطبخ.

لم أنم تلك الليلة، بقيتُ مستيقظاً حتى الصباح وأنا أفكّر، عندما نهض أبي مبكّراً كعادته وذهب إلى البستان، طلعتُ خلسةً من البيت قبل أن يحين وقت ذهابي إلى المدرسة وتأتي أمّي كي توقظني وكنتُ في الصف الثامن أدرس في مدرسة القرية.

مشيتُ في طريق القرية المفروش بالحصى حتى وصلتُ الطريق العام، بعد ساعةٍ من وقوفي على الطريق جاء الباص الذي يعمل على طريق المدينة والقُرى، ركبته وبقيتُ فيه حتى توقف وأخذ الركّاب ينزلون، فنزلت معهم، رأيتني في الكراج الذي كان يعجّ بالناس.

مشيتُ حتى وصلتُ إلى قلب المدينة، وصرتُ أسأل المطاعم والمقاهي عَن عمل. مررتُ بجانب بسطةً كانت في زاويةٍ وكان بعض الأشخاص

يقعدون أمامها على الكراسي الصغيرة يحتسون الشاي والقهوة. سمعتُ صوتاً: يا ولد.. لم أكن أعلم بأن الصوت كان يندهني: هِيْ.. هِيْ.. أنتَ يا ولد. جاء الصوت مرَّةً أُخرى وكنتُ قد تجاوزتُ البسطة، فالتفتتُ خلفي وإذ بشخص يلوّح لي بكفّه.

- أنا.. قلتُها ووضعتُ يدي إلى صدري؟

- إي أنت.. قالها وأشار لي بكفّه كي أذهب إليه. كان أبيض الوجه، حليق الذقن يبدو في الثلاثينيّات مِن عمره، يرتدي قميصاً أجعدَ وبنطالاً بحمّالة. عندما وصلته، صار ينظر إليَّ بعينَين برّاقتَين، يمرّر نظراته من قمّة رأسي إلى أخمص قدمَي نحو دقيقة. ثم ربَّتَ بيده على خدّي وقال: هل تشتغل عندي؟

نظرتُ إلى عينَيه وقلت: أين؟

قال: عندي هذه البسطة، تأخذ الطلبات لأصحاب الدكاكين بدلاً عنّي.

أومأتُ رأسي بالموافقة، فقال: أين بيتك؟

قلت: في القرية

قال: أين ستنام؟

قلت: لا أعرف.

قال: ستنام عندي.

فرحتُ كثيراً لأنّني حصلتُ على عمل ومسكن، باشرتُ العَمَل منذ تلك الساعة، فعلّمني كيف أغسل الكاسات، وكيف أصبّ الشاي، وأخذتُ بعض أباريق الشاي وركوات القهوة إلى الدكاكين القريبة التي

كان يُشير إليها، فكانوا يقولون لي: هل أنـتَ صبي جديد تشتغل عند المعلّم راغب؟ فأقول: نعم.

بعد الغروب بنحو ساعةٍ أعنته في لملمة الكراسي وربطها بزنجير. أغلقنا باب البسطة، أمسك بمقود دراجته النارية التي كانت لها سلَّة مِن الأمام، مشى عدَّة خطوات سريعة بها، وما لبث أن نطَّ إليها قائلاً: اركب.

فسارعتُ الخُطى واستويتُ بنطَّةٍ على المقعد الخلفي، مشينا حتى رأيته يتوقّف أمام مطعم، كان يقف في الواجهة أمام سيخٍ ضخمٍ للشاورما شخصٌ نحيف البنية، طويل القامة يرتدي صدريّة بيضاء مكتوب عليها من الخلف بخطٍّ أحمر: (مأكولات اللقمة اللذيذة) ويعتمر قبعة بيضاء أيضاً بدت بأنها مصنوعة من ذات القُماش. كانت رائحة شاورما الدجاج التي تفوح منه إلى المكان شهيّة. وكان بالقرب منه شخصٌ بَدينٌ بدانة مفرطة يتناول سندويشة. ابْتاعَ معلّمي صحناً من الشاورما وعلبةً من الحمّص المطحون، حطَّ الكيس في السلّة ومضينا حتى رأيته يتوقّف أمام محلٍّ لبيع المشروبات الكحولية. دخل المحل وبعد لحظاتٍ خرج يحمل كيساً فيه زجاجة وحطَّه بجانب كيس الحمّص. أكملنا الطريق بالدراجة وهو يدخل الكثير من الطرق الفرعيّة حتى دخل حارةً شعبيَّة وتوقَّف أمام بابٍ كان مُقفلاً بزنجير.

سحبَ سلسلة المفاتيح التي كانت معلَّقة على خصره، فتح الباب وقدتُ الدرّاجة إلى الداخل، أوقفتها على وقّافتها في زاويةٍ من الحوش، أدار باب الحوش وأغلقه بالمزلاج الحديدي الكبير الذي كان عليه بعض الصدأ.

فرشنا الطعام على جريدةٍ، أتى لنفسه بكأسٍ، وصبّ العرق إلى النصف، ثم ملأ النصف الآخر بالماء، ووضع في الكأس قطعة ثلج.

تناولنا العشاء، وكان الإرهاق قد نال منّي، فتمدَّدتُ على اسفنجةٍ وتغطَّيتُ ببطانية.

لبث يشرب ويملأ الكاس تلو الكأس. وكانت لديه مسجلة وحولها بعض أشرطة الكاسيت، كان يشرب ويستمع إلى أغنيات أم كلثوم، وأحياناً يدندن معها.

لا أعرف متى نمتُ ومتى نام هو، ورأيتني أصحو عندما سمعتُ صوته يناديني: قم يا دانيال تأخَّرنا على العمل. ففركتُ عينَي ونهضت، رأيتُ وجهه متفتّحاً يبدو عليه النشاط والحيويّة، مضيتُ إلى المغسلة البلاستيكيّة التي كانت في الحوش، رشقتُ وجهي ببعض الماء، وركبتُ خلفه على الدراجة وأتينا إلى البسطة.

كان يشرب كل يوم نصف زجاجةً من العرق، ولا يمضي يومٌ واحدٌ لا يشرب فيه، وكان عندما يثمل وتحمرّ عيناه، يتحدَّث كثيراً وهو يقول: (العَرَق يُحكِّي). ثم يردف قائلاً: تعال يا فرخي سأقول لك كل شيء. ذات يومٍ أخبرني بأن أباه قتل أمّه وانتحر في ظروفٍ غامضة، وكان إذ ذاك في العاشِرة مِن عمره، وعاش في بيت خالِه حتى كبر. كان المعلّم راغب طيّباً وكريماً، لا يدعني أنفق شيئاً على الطعام، كان يعطيني أجري كل أسبوع ويقول: (صمّد نقوك يا دانيال سوف تلزمك). وكنتُ إضافة إلى أجري، أحصل على الإكراميّات التي كان بعض أصحاب المحال يكرمونني بِها بين وقتٍ وآخَر. كان في الصباح وبعد أن نفتح بساعة يرسلني إلى المطعم

كي أجلب صحنَين مِن الفول، وفي الظهيرة يرسلني إلى مطعمٍ آخر وأجلب سندويشتَين مِن مشاوي كبد العجل.

أمضيتُ سنتَين في العمل وذات يومٍ ودون أن أُخبره تركتُ العمل، خرجتُ من البيت في الصباح الباكِر عندما كان نائِماً ولم أعد إليه. بحثتُ في الأحياء عن بيتٍ بالأجرة حتى وجدتُ هذا البيت وفتحتُ فيه الدكّان.

في تلك اللحظات دخل طفلٌ، فتناول دانيال منه النقود دون أن ينهض وحمل الطفل من الرف كيساً صغيراً فيه بزر دوّار الشمس وانصرف.

قال وعيناه تضيقان وتتّسعان كانّه ينظر إلى مصباح: كلّما كانت تخطر لي فكرة الزواج، كنتُ أستبعدها وأنا أتذكّر ما حصل معي.

قلت: ألم تذهب إلى القرية؟

قال: لا، ولا أعرف شيئاً عن أهلي منذ ذلك اليوم، قرّرَتُ أن أنسى ما حصل، ولم أجد من سبيل إلى النسيان سوى أن أبعد فكرة الزواج عن تفكيري، لأن الزواج كان سيجعلني دائم التذكّر كلّما نظرتُ إلى زوجتي، إلى أولادي.

المخدِّر نادر

كان مجرّد تخيّل رؤية ذاك الرجل يفزعني، لكنّني أصررتُ على تنفيذ فكرة التجربة التي خَطَرت لي بأن أتحدّاه وأباشر بمحاولة لقائه لربما تنتقل حالتي إليه، فيشعر هو بالرهبة بدلاً عنّي عندما تقع نظراتُه عليّ.

صرتُ أُكثر الذهاب إلى السوق كل يوم مرَّتَين، بعد انتهاء دوامي أذهب إلى السوق بدلاً عن البيت، أمضي ساعةً ثم أرجع للبيت، وفي المساء أخرج مرَّةً أُخرى أتجوَّل في الشوارع المُكتظّة بالناس وأنا أوزّع نظراتي بحثاً عنه.

وذاتَ يومٍ بينما كنتُ أمشي مساءً في شارعٍ عريضٍ من شوارع المدينة، وقعتْ نظراتي عليه، اعترَتني رهبةٌ، تمهَّلتْ بِهِ خطواتُه عندما رآني، وعلى عكس المرّات السابقة، دنوتُ وأنا أنظر إلى نظراتِه إليّ، أكمل المسير، ومضيتُ خلفه، صار يخطو وبين لحظةٍ وأُخرى يلتفت إليّ، سارعَ في خطواتِه كما لو أنّه يعدو، سارعتُ في خطواتي وأنا أكابد الزحام. في تلك اللحظات أحسستُ بألمٍ مُباغتٍ في كاحلي الأيسر، تتبَّعته رغم الألم الشديد وهو يدخل الشوارع الفرعيّة دون أن أدعه يغيب عَن أنظاري. توقَّفت به قدماه أمام بابٍ، مدّ سبابته وضغط على زر الجرس، وبعد قليلٍ انفرجَ الباب، التفتَ ينظر إليّ ودسّ قامته في الباب.

عند ذاك لفت نظري دكّان على بُعد نحو مئتَي خطوة عن البيت، كان الألم يزداد في كاحلي مع الحركة. اتَّجهتُ إلى الدكّان بخطواتٍ عرجاء، دخلتُ الدكّان، رأيت رجلاً مسنّاً بلحيةٍ بيضاء، ألقيتُ عليه السلام وسألته عن ذاك الشخص، وأعطيته أوصافه دون أن أعطيه اسمه. فنهض

من خلف طاولته وخرج معي إلى الشارع ومن أمام الدكّان أشرتُ له إلى البيت فقال: هذا بيت الأستاذ نادر، يعمل مُخدِّراً في مديريَّة الصحّة. قالها الرجل وعاد يجلس خلف طاولته. بعد قليلٍ رأيتُ الباب ينفتح، مدَّ نادر رأسه، وعندما رآني واقِفاً على عتبة الدكّان، سحب رأسه وأغلق الباب ثانيةً.

أشرتُ إلى سيارةٍ وعدتُ إلى البيت، أخبرتُ ريناد بالألم المفاجئ الذي أصاب كاحلي، جلبتْ ماءً ساخِناً ووضعت قدمي فيه وصارت تدلكها وأنا أتأوَّه، ثم تدلك عظمة الكاحل فأشعر براحةٍ. قالَت: يبدو أنّك خطوت خطوة غير سليمة؟

قلت: لا أدري، فجأةً أحسستُ بالألم.

خطر في بالي أن ذلك ربما حصل بسبب نقصٍ في نسبة الكلس في العظام، شردتُ بأنّني في الآونة الأخيرة لم أتناول البيض ومشتقّات الألبان بشكل جيِّد.

في الساعة الثانية عشرة مِن ظهيرة اليوم التالي، أخذتُ إذناً مِن إدارة العمل بالانصراف المبكّر وذهبتُ إلى مديريَّة الصحّة، دخلتُ إلى بهوٍ مكتظٍّ بالمرضى وأنا أعرج بشكلٍ أخفّ مما كنتُ عليه البارِحة، رأيتُ ممرّضة تمشي في البهو، تقدَّمتُ إليها وسألتها عن المُخدّر نادر، فأشارت بيدِها إلى قاعةٍ دون أن تتكلَّم. خفق قلبي ولكنّني تشجَّعت وخطوت إلى القاعة التي كان فيها بعض المرضى، وبعض الأشخاص الذين يرتدون سترات زرقاء، وكان نادر من ضمنهم يكتب شيئاً في سجلٍّ على الطاولة وهو واقفٌ على قدمَيه.

حدَّقتُ في شعره الأصهب، بغتةً رفع رأسه كما لو أنَّ حاسّة ما فيه أنبأته بوجودي، صوّب نظرةً حادّةً إليّ، ضيَّق عينَيه وهو ما يزال ينظر إليّ بحدّة. بعد لحظاتٍ ارتبكَ والقلم بيده ويبدو أنّه لم يكمل ما كان يكتبه فقام وسارعَ خارِجاً من القاعة، لحقته وهو يعدو بخطواتٍ متسارعة ويلتفت إليَّ حتى دخل إلى قاعةٍ أُخرى. دخلتُ القاعة، زجرني بنظرةٍ أطالها بعض الشيء وأبقيتُ نظراتي مثبَّتةً في عينَيه. فخرجَ من القاعة مُرتبِكاً، تتبّعته كما لو أن أحداً يدفعني إليه حتى ولجَ إلى غرفةٍ كُتب في أعلاها: (المدير). لبثَ فيها عدّة دقائِق وخرج مهرولاً إلى غرفةٍ أخرى وبعد قليلٍ خرج منها وقد خلع السترة وارتدى ثيابه. مضى نحو الخارج، ومضيتُ خلفه، أوقف سيارة أُجرة، وأشرتُ لسيّارة وتتبعته حتى نزل أمام الباب، ونزلتُ بجانب الدكّان. رمقني بنظرةٍ ودخل الباب الذي كان مواراباً.

نظرات الحب

عند عودتي البيت باشرتني ريناد بالقول: طمّني عَن قدمك.

قلت: ما تزال تؤلمني، لكن بشكل أخفّ.

أعانتني في خلع ثيابي وقالَت: من لحظة خروجك وحتى الآن أنا قلِقة على قدمك.

قَفَزت إليّ لمسات يد أمّي وهي تخلع ثيابي عندما كنتُ أرجع من المدرسة.

على مهلك حبيبي. قالتها وهي تمسك بيدي، أتت بوعاءٍ من ماء ساخنٍ مرّةً أُخرى، وضعت فيه القدم، وصارت تدلك الكاحل وتقول: ليتها قدمي وليسَت قدمك.

نظرتُ إلى رأسها، إلى شعرها المُثبَّت بمشبكٍ على شكل فراشة لأنّها كانت جالسة على الأرض وقد أحنت رأسها وهي منهمكة بالتدليك وتكرّر ذات العِبارة، وكنتُ جالِساً على الأريكة وقد أرخيتُ قدمي إلى وعاء الماء الساخن. عندها أدركتُ أكثر من أيّ وقتٍ مضى بأن الحب الصادق يكون كالذهب الذي مهما تراكم عليه الغُبار وأتت عليه عوامل التغيير، يبقى ذهباً ولا يمكن له أن يتغيَّر، وإذا تغيَّر، فإنّه بالأصل لم يكن ذهباً بل كان مطلياً بتقنياتٍ عاليةٍ بماء بالذهب.

ريناد، امرأة العُمر الذهبية التي استطاعَت أن تُحيل كل امرأة غيرها مهما كانَت بديعة إلى مجرَّد ورقة خريف.

ضحكنا معاً، بكينا معاً، رقصنا معاً، سافرنا معاً، نمنا معاً، استيقظنا معاً، أنجبنا معاً، جعنا معاً، أكلنا معا.

المرأة التي أشبعتني جنساً وحبّاً، في ذروة لحظات الأرق، ألجأ إلى صدرِها، أضع فمي في حلمة ثديها وأنام وهي تهدهدني وتحكي لي قصصاً للأطفال.

في ذاك اليوم التحوّلي الكبير في حياتي، كنتُ ذاهِباً إلى المتحف أقضي وقتاً في تأمّل التحف القديمة، أقف أمامها وأرتحل من خلالِها عبر الزمن، كنتُ أحاكيها، ألمسها، أتخيَّلني أعود إلى عصورٍ قديمة.

هذا المكان الرحب الذي اعتدتُ الذهاب إليه بين حينٍ وآخر بعد

تلك السنة الذهبية من سنوات عمري، السنة التحوليّة الكُبرى من سنوات حياتي، تلك السنة المجيدة التي قلبت لي كل حياتي رأساً على عقب. كانت تلك الكتب التي قرأتها في المكتبة تجعلني أنتبه إلى الأشياء الجميلة التي لم أكن منتبهاً لها مِن قبل.

كنتُ قبل تلك السنة لم أدخل المتحف قط، كما لو أنّه لم يكن موجوداً في المدينة.

دخلتُ بَهو المتحف، وقعَت عيناي على فتاةٍ ذات شعرٍ كستنائي منسدلٍ على كتفَيها تجلس خلف طاولةٍ وتقرأ كتاباً. كانت المرة الأولى التي أرى فيها تلك الفتاة في المتحف ويظهر أنَّها توظَّفَت حديثاً. كانت ثمة امرأة أُخرى تجلس في مكانها، وكانت أحياناً تجلب معها ابنها الصغير الذي كان يمشي للتو ويخرج أحياناً من خلف الطاولة إلى ساحة المتحف ويعدو في كل الاتّجاهات، فتنهض وتعيده إليها.

وقفتُ أتأمَّل بعض التحف التي كانَت في مدخل المتحف وبين لحظةٍ وأُخرى أختلس نظرةً مِن الفتاة، وفي إحدى النظرات رأيتها رفعتْ رأسها عن الكِتاب فالتقت نظراتُنا.

في تلك اللحظات راودني شعورٌ غريبٌ وأنا أنظر إليها، ورأيتُ تغييراً طرأ على سحنتها وقد تسمَّرتْ أنظارُنا ببعضِها نحو دقيقة.

استعادت ذاكرتي تلك الصورة التي رسمتها في المكتبة، ذاك الحلم الغريب الذي رأيته: هل يُعقل أنّها (هي)؟! وردَّدتُ الاسم الذي انحفر في ذاكرتي: ريناد.. ريناد زاهي..

أصبح لدي فضول كي أعرف ماذا تقرأ، فدنوتُ إليها وأنا أتأمَّل التحف الصغيرة الحجم على رفوفٍ بالقرب مِن مكتبِها. وقعت نظراتي على عنوان الكِتاب: (أشدّ العيون زرقةً). وتناهَت إلى سمعي موسيقى السيمفونية41 لموتزات من هاتِفها الجوال الذي وضعته أمامها على الطاولة. وأنا أنظر إليها، راودني شعورٌ بأنّها قارئة، بل قارئة نهمة تعرف كيف تنتقي الكتب التي تقرأها. فبعد تجربتي في المكتبة صرتُ ألحظ أن للقراءة إشراقة تظهر على سمات القارئ حتى لو كان في أسوأ الظروف، وللا قراءة عتمة تظهر على وجه اللا قارئ حتى لو كان في أفضل الظروف. وترسَّخ لديّ مفهومٌ أن القارئ هو شخصٌ استثنائيٌّ بامتياز، ولا خوف منه أو عليه، بل الخوف من وعلى شخصٍ لا يقرأ. فشخصٌ يقرأ أستطيع أن أضع بثقةٍ مفاتيح حياتي كلها بيده، ولكن أتردّد من وضع مفتاح درّاجتي الهوائيّة بيد شخصٍ لا يقرأ لأنّه قد يأخذها ولا يعود.

دنوتُ منها أكثر، وعندما ألفتني بالقُرب من الطاولة، نهضتْ وقالت بلطف: أهلاً وسهلاً أستاذ.

قلت: كانت امرأة غيركِ تجلس في هذا المكان.

أومأت برأسها وقالَت: نعم، انتقلَت إلى مكتبٍ آخر في الداخل.

قلت: يبدو أنّك جديدة هُنا؟

قالت وهي تنظر إليَّ بإمعان: نعم منذ شهر تقريباً.

نظرتُ إلى الرواية التي بدت بأنّها من مكتبة المركز الثقافي وقلت: يبدو لي بأنّنا التقينا قبل الآن.

قالَت: أنا أيضاً يبدو لي ذلك، لكن لا أذكر أين.

تشابكت نظراتُنا مرَّةً أُخرى بعمق، كم كانت لحظات لذيذة أنعشَت كل حاسة فيّ وبذات الوقت كانت تزلزلني مِن الأعماق. استردَّت ذاكرتي رويداً رويداً تلك اللحظات عندما دخلت إليَّ في غرفتي وطلبت أن تستعير كتاباً. قلت كما لو أنّني غبتُ مع نظراتي إليها إلى عالمٍ آخر: هل قرأتِ رواية تحت أنظارٍ غريبة؟

قالت بنبرة خافِتة وقد ارتخت عيناها: نعم.. وأردفت تقول وهي ما تزال تنظر إليّ بعمق: الآن تذكَّرت.. أجل تذكَّرت جيداً.. إنّه أنتَ ذاك الذي رأيته تلك الليلة في الحلم. كنتُ قادمة إلى المركز كي أستعير تلك الرواية، ولكنّني لم أجد أحداً لأن الدوام كان قد انتهى. فقلتُ لعلّي أرى أحداً في المكتبة يمكن له أن يعيرني الرواية. طرقتُ الباب ودفعته برفق فانفتح. قلت: هل مِن أحدٍ هُنا؟ رأيتُ باب غرفة داخلية كان مواراباً، فخطوتُ إليها، رأيتُ شخصاً يجلس على كرسيٍّ وقد أرخى رأسه على

الطاولة. فأيقظتك من غفوةٍ كنتَ فيها وطلبتُ منك الرواية، وعندما رفعتَ رأسك رأيتُ صفحة بيضاء رُسِمَت عليها صورتي. نهضتَ لتعطيني الرواية، وعندما جلبتها سألتني عن اسمي كي تكتبه.

قلت وما تزال عيناي في عينَيها: ريناد.. ريناد زاهي.

قالت بذهولٍ وهي تفتح عينَيها على سعتهما: كيف عرفت اسمي؟!

قلت: هل ذهبتِ بالفعل إلى هناك؟

قالَت: لا.. لأنّكَ عندما أعطيتني الكِتاب..

قلت: سقط الكِتاب من يدي على الأرض.

قالت: إذن لم نكن في حلم. ثم استدركَت وقالَت: لكنّني في تلك اللحظة وأنا أحاول أن التقط الكِتاب من الأرض، استفقت، ونظرتُ إلى الساعة.

قلت: كانت الواحدة ليلاً.

قالَت: بالضبط.

قلت: هل يخامركِ شعورٌ بأنّنا الآن في حلم؟

قالَت: نعم في هذه اللحظات يُخامرني هذا الشعور.

قلت: أنا أيضاً.. هل تظنين بأنّنا فعلاً في حلم؟

نظرت حولها، خرجت مِن خلف الطاولة، مشت في الردهة، ثم عادت إلى الطاولة، أجرت اتِّصالاً مع صديقةٍ لها. وعندما سمعت صوتها، قالت: لا شيء.. لا شيء صديقتي فقط تجربة. وأغلقَت الخط

أخرجتُ هاتفي، وأجريتُ اتِّصالاً مع صديق، وعندما تناهى صوته، كرَّرتُ ذات العِبارة: لا شيء.. لا شيء صديقي فقط تجربة. وأغلقتُ الخط.

عدتُ إلى البيت وأنا أشرد بِما حدث معي حتى ظننتني في حلمٍ طويلٍ لم أستفق منه بعد. تقصَّدتُ الحديث مع بعض الأشخاص الذين رأيتهم في طريقي.. عدوتُ في الشارع، قرصتُ أذني، وعندما وصلتُ البيت، فتحتْ أمّي الباب وقالَت: لماذا تأخرتَ يا بهاء؟

قلت: ذهبتُ من العمل إلى السوق.

قالت: بدل ثيابك وتعال كي نتغدّى.

قلت: هل أبي عاد من المُختبر؟

قالت: نعم عاد وتمدّد على الأريكة بانتظار أن أسكب الغداء.

قلت: ماذا طبختِ اليوم يا أمّي؟

قالت: هل نسيتَ بأنّك طلبتَ منّي صباح اليوم أن أطبخ الشاكرية ووعدتك بها.

قلت: صحيح يا أمّي.. يبدو بأنّني نسيت.

كان ذلك بمثابة إشارة قويّة بأنّني لستُ في حلم، ولكنّني لم أتخلَّص من الشكّ تماماً. واستمرَّ ذلك حتى صباح اليوم التالي، وقد نمتُ متأخِراً.

دخلتُ مكتبي في المعمل وبي شكّ بأنّني ما أزال في الحلم، جبتُ أرجاء المعمل، تحدَّثتُ مع بعض الموظّفين والموظّفات الذين يعملون بأمرتي.

ذهبتُ إلى مكتب المدير، جلستُ عنده قليلاً، احتسيتُ في مكتبه كأساً من الشاي، وعدتُ إلى مكتبي.

عند انتهاء الدوام، اتَّجهتُ على الفور إلى المتحف، وعندما رأتني ريناد، هبَّت واقِفة، وفوجئتُ بِها تتقدَّم إليَّ وتلقي بنفسِها في حضني وهي تقول: لم أنم منذ البارِحة.. ما أزال أعتقد بأنّني لم أستيقظ من الحلم. كان أحنّ صدر ضممته إلى صدري، وكانت المرة الأولى التي خفق فيها قلبي بكل تلك القوة لامرأةٍ، المرَّة الأولى التي جذبتني فيها امرأة بكل تلك الجاذبية، سحرتنَي وهيمنَت على كل ذرّة من ذرّاتي.

همستُ في أذنها: هُناك شخصٌ يقف في الزاوية ينظر إلينا بدهشة.

قالت: لا يهمّني.

بقينا نحو خمس دقائِق، ثم عادت تجلس على كرسيّها خلف الطاولة، ودعتني للجلوس على كرسيٍ بجوارِها.

في تلك اللحظات تعلَّمتُ شيئاً مهمّاً من ريناد، وهو أهميَّة أن يكون الإنسان مُتمرِّداً، أن يكون طليقاً، حرّاً.. ألّا يسمح لأحدٍ أن يقمعه، أو يحرمه مِن ممارسة حياتِه وفقما يشاء. تعلَّمتُ منها بأن الإنسان لا يجد في بعض المواقف أن يحتفي بلحظاته السعيدة أو التعيسة سوى سبيل التمرّد، وعليه أن يكون شُجاعاً ويقدم على الخطوة.

بدأتُ أستغل أيّ وقتٍ للفراغ حتى أذهب إلى المتحف، أخرج أحياناً قبل انتهاء دوامي في المعمل بساعةٍ حتى أذهب إلى المتحف وأراها، ونتحدَّث عن روايات جديدة قرأناها، موسيقا جديدة استمعنا إليها.

أخبرتني بأنَّها تخرَّجَت من كلية الفنون الجميلة السنة الماضية، ولم تعثر على فرصةٍ للتدريس، ولكنَّها سعيدة بالعمل في المتحف.

ثم تحوَّلَت علاقتنا إلى تواصلٍ مِن خِلال الواتس آب، كانت ترسل لي مقطعاً موسيقياً، أو جملةً لفتت نظرها بقوَّةٍ من رواية.

عندما انتهتْ من تدليك قدمي، رفعت رأسها، ألقت إليَّ نظرةً عميقةً وقالت: بِم تشرد يا بهاء؟

نظرتُ إليها، عادت إلى مخيّلتي تلك النظرات عندما رأيتها في المتحف أوَّل مرّة، قلت: حتى الآن ورغم كل هذه السنوات الطويلة وإنجابنا لابننا، لم أستطع التخلّص من شعور بأنّني ما أزال في حلم ولم أستيقظ منه بعد. حتى عندما أنهض من النوم صباحاً يعتريني شعور أحياناً بأنّني صحوتُ من حلمٍ في حلم.

قالَت: هذه المشاعر تنتابني أيضاً بين حينٍ وآخر، لكن هل تعتقد بأنّنا ما نزال في ذاك الحلم؟

قلت: لا أستبعد ذلك.

قالت: كل هذه التغييرات التي حصلت، وابننا، وبيتنا الذي اشتريناه، وكل هذه العلاقات الجديدة التي طرأت على حياتنا، التصقتْ بنا والتصقنا بِها، ومشروعك في كتابة رواية، هل يُعقل أنّها عبارة عن أوهام وسوف نستيقظ منها في لحظةٍ ما وكأن شيئاً لم يكن؟!.

❁❁❁

وصلتني رسالة على الواتس آب مِن نيار بأنّه سحب ما كان لديه من رصيدٍ في المصرف وسافر مع ابنته وهو حالياً موجود في القاهِرة.

كتبتُ له: عندما تنفق النقود وتستمع بِها فإنَّها تحبّك، وعندما تختزنها ولا تستمتع بِها فإنّها تمقتك وتُعاقِبك بأن تُحيلك إلى خازنٍ وحارسٍ أمينٍ لها كي يستمتع بِها غيرُك.

أفرحني الخبر كثيراً رغم أنَّني فوجئتُ بسفره، وكنتُ أحضرتُ مبلغاً أردتُ أن أعطيه له قبل السفر حتى يكون معه للاحتياط، وقد يحتاجه.

في اليوم التالي وعند عودتي من العمل، ذهبتُ إلى مكتبٍ لشركة (وسترن يونيون) وحوَّلتُ له المبلغ إلى القاهِرة.

قالت ريناد بأنّها اتَّصلَت مع صديقتها (شيماء) مديرة الحضانة واتفقت معها على موعدٍ كي تزورها صباح الغد، ومن هُناك ستذهب إلى عملها في المتحف، وقالت: أفكّر أن أصطحب معي شروق إليها، ما رأيك؟

قلت: سيكون أفضل.

أرسلتُ بالواتس رقم ريناد إلى حفيد بكري السوّاس، وطلبتُ منه أن تتواصل أخته من خلاله بشأن الوظيفة. لم تتأخَّر كثيراً فبعد نصف ساعة اتَّصلَت بها واتفقتا على أن تلتقيا غدا أمام باب الحضانة.

في اليوم التالي وبينما كنتُ في المعمل، اتَّصلَت بي ريناد في الساعة الحادية عشرة صباحاً مِن المتحف وقالَت بأن مديرة الحضانة وجدت لها شاغِراً، وطلبت منها أن تأتي بالوثائق المطلوبة.

ثم أضافَت وقد بدت مسرورة: شروق يا بهاء لها مِن اسمها نصيب، لم أكن أتخيَّل بأنّها على كل ذاك القدر من الجمال.

تمنيتُ لو كان ابننا كبيراً، لما تردّدتُ في خطبتها له. لكن خطر لي نيار، لو صارت شروق من نصيبه سيكون محظوظاً، وهي أيضاً ستكون محظوظة به.

قلت: فكرة جيّدة لكن قبل ذلك لا بدّ أن تسأليها إن لم تكن مرتبطة.

قالت: عندما خطرت لي الفكرة، سألتها وقالت بأنّها غير مرتبطة، وأظنّ بأنَّها شمَّت من كلامي رائحة عريس فاحمرّ وجهُها وابتسمَت.

قلت: عندما يرجع نيار يمكن أن نُرتّب لقاءً بينهما.

شروع في كتابة المسوَّدة

أحسستُ بأنّني صرتُ متهيئاً لأباشر في كتابة الرواية، بقي المُختار الذي لم أستطع الوصول إليه، المُختار الذي تسبَّب في الحالة الهستيرية التي أصابت فتحي أستاذ اللغة العربية. حاولتُ عدَّة مرّات أن أرى فتحي في شارعٍ ما، أو أرى السائق الذي حفظتُ شيئاً مِن ملامحه، ولكنّني لم أفلح.

وضعتُ خطَّة كي أكتبها على الورق كمسودة، ثم أنقلها كمبيضة إلى الحاسوب. رأيتني بحاجةٍ إلى تركيز وتفرّغ ولم يكن أمامي سوى أن أترك العمل أو أترك كتابة الرواية لأنّني بدأتُ أشعر بتقصيرٍ تجاه العمل بسبب انشغالي بالرواية. وشجّعتني ريناد على ترجيح كفّة الرواية على كفّة العمل حتى لو قدَّمتُ استقالَتي وقالت أنّني بعد الانتهاء من كتابة الرواية، قد أجد وظيفةً في دائرةٍ أُخرى، وإن لم أجد، سنفكّر بمشروعٍ في عملٍ خاص.

لكن قبل ذلك اقترحَتْ أن ألجأ إلى حلٍّ وسَطيّ وهو أن أحاول مع مدير المعمل كي أحصل على إجازةٍ لمدّة ستة أشهر بدون راتب.

دخلتُ إلى المدير في وقتٍ رأيته فيه رائِقاً، شرحتُ له بأنّني أريد إجازة لمدّة ستة أشهر بدون راتب حتى أستطيع أن أكتب الرواية.

قال بأن المدّة طويلة جدّاً، وسبق أن أعطاني شهراً.

قلت: في هذه الحالة سأضطر إلى تقديم استقالَتي يا أستاذ.

قال: لديكَ كفاءة ولا أريد للمعمل أن يخسرك، انتظر يومَين، سأحاول أن أحصل لك على استثناءٍ من الوزارة.

امتدّ اليومان إلى أسبوعٍ وأنا أنتظر، وذات يوم بينما كنتُ على رأس عملي، اتَّصل بي في الهاتف وطلب أن أذهب إليه في المكتب.

عند دخولي، طلب لي كأساً من الشاي، وبعد جلوسي بقليل، أخرج موافقة الوزارة على الاستثناء وناولها لي قائلاً: أنتظر أن أقرأ روايتك بلهفة يا أستاذ.

قلت: شكراً لجهودك.

ودَّعته وودَّعتُ زملائي وزميلاتي في المعمل وعدتُ إلى البيت أخبرتُ ريناد بالموافقة.

بدأت في كتابة السطور الأولى من المسودة من خلال المعلومات التي تحصَّلتُ عليها وما يمكن له أن يستجدّ.

اتصل بي نيار بمكالمة واتس وقال بأنهما وصلا إلى دبي.

كانت معنوياته مرتفعة ويتحدَّث بثقة.

قال: سنقضي هُنا عدّة أيّام. ولم أحدّد المكان الذي سأتّجه إليه بعد، جلبتُ رواية رحّالة معي وأتممتُ قراءتها. هذه الرواية أفادتني كثيراً في السفر، فتحَتْ عينَي على أشياء لم أكن لأعرفها لولا قراءتي لها.

تعلمتُ منها بأن الأصل في الإنسان هو السفر وليس الثبات في موضعٍ واحد، وأنَّك من خلال السفر تُصبح أكثر اعتماداً على نفسك، تمتلك قوّة

ملاحظة أشياء لم تكن منتبهاً إليها من قبل، كنتَ تعتبرها هامشيَّة، فيتبيَّن لك بأنَّها كانت أساسيَّة.

تكتشف في نفسكَ طاقات ماكنتَ تعرفها مِن قبل، لأنّ السفر أتاح لك فرصة الخلوة بنفسك، تمشي مع نفسك وحدكما في طرقات طويلة وقصيرة، في أماكن آمنة، أماكن محفوفة بالمخاطر، تُسافر مع نفسك، تتحدَّث مع نفسك: (واقفة هناك فوق السد على الضفة أحدق في التيار، أدركتُ أن الشيء المتحرك رغم كل المخاطر، أفضل من الشيء المستكين، وأن التغيير يظل دائماً أنبل من الديمومة، وأن الساكن سيتفكك ويتحلل ويتحول إلى تراب بينما المتحرك قادر على البقاء إلى الأبد).

ترى المزايا التي يمكن للسفر أن يُحقّقها لك، وبالتالي فإنّك تمتلك خبرة حقيقيَّة في الحياة على قدر ما تُسافِر وتختلط بالناس.

تكون في السفر منطلِقاً انطلاقة حقيقيَّة نحو التعرّف على ذاتك وعلى الحياة التي تعيش في رحابتها، وأنتَ تُمارس أكبر قدر من حريَّتكَ الشخصيَّة في التحرّك.

أدهشَتني الرواية ببراعتها في وصف الأماكن والأشياء وما تقع عليه عينا الفتاة، بل وما تقع عليه كل حواسها، تحضّك لتتأمَّل ما لم تكن تتأمّله من قبل، لتنظر فيما لم تكن تنظر إليه مِن قبل فإذا قالت: الكرسي. لا تكتفي بذلك، بل تصفه، هل هو كرسيٌّ كبير، أم صغير، وما لونه، والجلوس عليه مريح أم غير مريح، وهل ما زال جديداً وعليه المغلَّف الشفّاف، أم عتيقاً وبه تمزّقات. وبكل الأحوال فإنّ جلوسكَ عليه سيختلف عندما تعرف هذه التفاصيل. وهكذا هي الرحلة، هكذا هو

الذهاب إلى أماكن بعيدة مِن أجل أن تتعرَّف على التفاصيل وتستمتع بمعرفة هذه التفاصيل، ستكتشف بأن هناك أشياء كثيرة كان يمكنك أن تستمتع بِها ولكنَّك كنتَ تهملها، ولم تكن مدركاً لذلك، هناك تفاصيل صغيرة كان يمكن لها أن تُغيّر لك مجرى حياتك وتنقذك من آلامٍ كثيرة في الحقيقة أنتَ سبَّبتها لنفسك، وعندها ستقول بشجاعةٍ: ياه.. كم كنتُ غبيًّا.. كم كنتُ ساذجاً. أجل ستكتشف كم كان يُضحَك عليك، كم كانت تُستغَل طيبتك حتى مِن أناسٍ كنتَ منحتهم ثقتك. سيكشف لك السفر أشياء وأشياء وكم سيعتريكَ ندمٌ على سنواتٍ لم تكن تسافر فيها، سنوات كانت ميّتة كما لو أنَّك لم تعشها.

ستعرف قيمة اللحظة.. ستعرف قيمة الثانية.. قيمة الاسترخاء، قيمة الإيواء إلى الفراش للنوم وأنَت بتمام عافيتك.

قلت: ما أخبار بهيّة؟

قال: تغيَّرت تماماً يا بهاء.. صارت تتعلَّق بي أكثر مما كنتُ أتصوَّر.

قلت: حاول أن تُكثر لها من الهدايا، لا تدع في نفسها شيئاً. استمتعا بالحياة، الحياة جميلة. هل اقتنيتَ كتباً؟

قال: أكيد.

قلت: لا تنس أن تأخذ كتباً لبهية أيضاً.

قال: أخذت بعض روايات الفتيان لها، كلّما تقرأ أكثر، أطمئن عليها أكثر.

قلت: لا تنس يا نيار بأن مهمَّتكَ غاية في الصعوبة حتى تستطيع أن تزيح التراكمات المترسّبة في أعماقِها. أحياناً تُصبح القراءة أهم من الهواء والخبز، لأن لا سبيل للحل مطلقاً في تلك الظروف سوى سبيل القراءة.

صارحها بكل شيء، دعها تعيش الحقيقة، دعها تضع كل ثقتها بك، ترى فيك الأب والصديق والأخ. بهيّة مرَّت بظروف استثنائية وتحتاج إلى عناية استثنائية.

قال: مِن أجلها بقيتُ صامِداً وواقِفاً على قدمَي يا بهاء، كل الظروف كانت تودي بي إلى الانهيار أو إلى ارتكاب جريمة قتل. لو لم تكن بهية في حياتي لكانَت قد تغيَّرت أشياء كثيرة.

❁❁❁

مضيتُ في كتابة المسودّة وأنا أجلس ككاهنٍ بين ركامٍ من الصفحات والقصاصات. أنهض في الرابعة فجراً، أكتب بصفاء ذهن حتى التاسعة صباحاً، أتناول الفطور ثم أستمرّ في الكِتابة حتى الثالثة والنصف، أتناول الغداء، وأنام ساعةً في قيلولة، وأنهض لأعاود الكِتابة حتى العاشرة والنصف، حينها يكون الإرهاق قد نال منّي فأتناول عشاءً خفيفاً وأنام. وتولَّت ريناد جلب مستلزمات البيت بعد عودتها من الدوام، وكل أسبوع أخرج مرتين من البيت لرياضة الجري أمضي نحو ساعةٍ في كل مرَّة.

كنت مستغرِقاً في الكِتابة عندما تناهى رنين هاتفي، نظرتُ حولي، نهضتُ أبحث عنه دون أن أجده والرنين يتواصل من داخل الغرفة. قلَّبتُ بعض الكتب والقصاصات، بحثتُ في الزوايا، تقدَّمت إلى المشجب

مددتُ يدي إلى جيب بنطالي الذي كان معلَّقاً عليه، تذكَّرت بأنَني منذ ساعة ارتديته وخرجتُ إلى الشارع أشمّ هواءً وأخذتُ الهاتف معي، وعندما عدتُ خلعتُ البنطال وأعدته ثانية إلى المشجب.

كان الهاتف لا يزال يرنّ، سحبته بسرعة، وفتحت الخط، تناهى صوت نيار: عدنا البارحة من السفر، وبما أنَّك تعمل في كتابة مسودة الرواية يا صديقي، ابق في البيت وسنجيء إليك.

وقبل أن يغلق قال: سأجلب معي عشاءً.

استمررتُ في الكِتابة حتى تناهى إلى سمعي جرس الباب وسمعتُ صوت ريناد: أهلاً وسهلاً.. الحمد لله على السلامة.

نهضتُ خارِجاً من الغرفة، كان نيار قد تغيَّر وصحّته أصبحت أفضل، وكان وجه بهية قد تفتّح وبدت سعيدة. قبَّلته، ثم قبلتُ بهية وجلسنا في الصالون. كان قد جلب هدايا لريناد ونيار ولي. وبعد نحو ساعةٍ من الجلوس وتقديم الضيافة أتت ريناد بالكباب وصدر الدجاج، وفاحت رائحة المشاوي.

بعد تناول العشاء ذهبتْ ريناد مع بهية إلى غرفةٍ أُخرى وبقيتُ مع نيار. قلت له: ريناد وجدتْ لك عروساً.

ابتسم وقال: عروس.. وهل تعتقد أن هذا القلب ما يزال قادِراً على الحب يا صديقي؟

قلت: أكيد، أعتقد أنّه الآن قادر على الحب أكثر من أيّ وقتٍ مضى، وكما استمتعتَ بالسفر مع ابنتك، ستستمتع بالسفر مع حبيبتك لقضاء شهر العسل.

نظر إليّ وقال: شهر العسل أيضاً..

قلت: ما تزال شاباً في مستهل الأربعينيّات.

قال: أشعر بأنّني تجاوزتُ التسعين

قلت: حتى لو تجاوزتَ التسعين يا نيار، فإن لكل مرحلة من العمر جماليّاتها التي تكون مقتصرة عليها ولا تكون في أيّ مرحلةٍ أُخرى. فتاة جميلة جداً، هكذا وصفتها ريناد، وهي التي اختارتها لك.

دخلت ريناد حاملة القهوة، فقلت لها: فاتحتُ نيار بموضوع الزواج.

قالَت: عندما رأيتها ارتاح لها قلبي كما ارتاح قلبي لك يا نيار، ولذلك تذكَّرتك.

قال: عندي بعض التردّد في هذه المسألة.

قالَت: تذكّر بأن بهيّة ستتزوَّج وستبقى لوحدك، لا أحد للرجل غير زوجته، ولا أحد للمرأة غير زوجها.

لبثتْ واقفة بعد أن ضيّفتنا القهوة وقالت: برأيي نرتب لقاءً نجلس فيه جميعاً في مكانٍ ما دون أن نُخبرها بشيء، وستكون فرصة كي تراها وهي تتحدَّث، وبعد اللقاء سأسألها عن انطباعها عنك، ربما لا تكون قد ارتاحت لفكرة الارتباط، وربما لا تكون أنت قد ارتحتَ للفكرة.

اللقاء الأوَّل مهم جدّاً، أمّا بالنسبة لرفض فكرة الزواج، فانزعها من رأسك، لأنّني لن أرتاح حتى أراك متزوّجاً، وسأبقى أحاول مع هذه أو غيرها ولن أيأس.

ويبدو أنّه اقتنع، فهزَّ رأسه بالإيجاب، عندها قالت ريناد: سأرتب اللقاء.

قال: تمام.

عند ذاك ارتسمت بسمة على ثغرها وانصرفتْ إلى بهيّة.

نهضنا إلى غرفة المكتب، نظر إلى الفوضى المتناثرة في كل الأرجاء، فقلت: هذه هي طقوسي في الكِتابة، الترتيب يعيقني عَن الكِتابة.

أشغلتُ السيمفونية التاسعة لبيتهوفن وجلسنا.

قال: هل تعتقد بأن الزواج يكون مجدياً بالنسبة لي؟

قلت: أعتقد بأنّه ضروري لك من كل الجوانب.

قال: كيف؟

قلت: بهية تحتاج أن يكون لها أخوة وأخوات، تحتاج إلى امرأة تكون معها في البيت وتوجّهها، المرأة تفهم من المرأة أكثر يا نيار.

بعد عوتهما إلى البيت، اتَّجهنا إلى غرفة النوم، لمحتُ قلَقاً على وجه ريناد ونحن نستلقي على السرير. ريناد التي لا تستطيع أن تخفي شيئاً، وسرعان ما يظهر ما في قلبِها على سمات وجهها.

حاولتُ أن أغفو وأتجاهل الأمر، لكنّني فشلت، واشتعل قلقٌ بداخلي عليها. كانت بين حينٍ وآخَر تشهق بعمق وتزفر وهي تُحاول أن تفعل ذلك ببطء شديد كي لا أشعر بشيء.

مددتُ يدي، ضممتها إلى صدري، نظرتُ في عينَيها الحزينتَين، مسدتُ على شعرِها.

بلعت ريقها وهمَسَتْ بنبرةٍ مثقلةٍ بالبُكاء: أنا حامل يا بهاء.

نسيتُ كل شيء وقلت: حزينة ولديكِ هذا الخبر السار.

انفجرَت بُكاءً بدا بأنّه كان مخزوناً، رافقتها دموعٌ سالَت من عينَيها بغزارة دفعة واحدة، وقالت: زادني ذلك ألَماً يا بهاء وأنا أتخيَّل بأنّني ما أزال في حلم ولا أدري في أي لحظة سأستيقظ منه، وينهار كل شيء. كم أتمنّى فيما لو يستمرّ هذا الحلم أطوَل وقتٍ ممكن. وفي لحظةٍ لا أدري ما حصل لها، ضمَّتني بقوَّة، وصارت تغمر وجهي بالقُبلات والدموع، ثم أخذت تنزع ثيابها قطعةً قطة حتى تعرَّت، ونزعتْ عنّي ثيابي. ألصقت جسدها بجسدي وغدت تضمّني بقوَّةٍ وهي تقول: لا أريد أن أستيقظ من هذا الحلم الجميل لوحدي، عندما أستيقظ أريد أن نكون معاً.

ثم أردفت وهي تبكي: إذا استفقتَ قبلي، ابحث عنّي أينما كنتَ حتى تجدني، وإذا استفقتُ قبلك، سأبحث عنك أينما كنتُ حتى أجدك.

❁❁❁

في الصباح، دخلت ريناد إلى غرفة الكِتابة وقالت: أسطوانة الغاز فرغت، سآخذها إلى الدكّان كي أستبدلها.

رأفتُ بِها لأن الدكّان يبعد نحو خمسمائة خطوة عن بيتنا وسوف تدفع الأسطوانة الفارغة بقدَمَيها وتُعيد المملوءة كذلك. وقد اعتدتُ أن أذهب وأستبدلها كلّما فرغت، لكنَّها أرادت أن تعفيني هذه المرة وتتركني أكتب. وضعتُ القلم على صدر الصفحة التي أكتبها، ونهضت، اتَّجهت إلى المطبخ، سحبتُ الأسطوانة وقلت: سأذهب وأستبدلها.

أخرجتُ الأسطوانة إلى الشارع دحرجتها إلى الدكّان. استبدلتها بجرّة ممتلئة وعدتُ أدحرجها إلى البيت وفي نحو منتصف الطريق قابلتني سيارة أجرة، نظرتُ إلى السائق، لفتت القبعة ذات المنقار نظري، فأشرتُ له بالوقوف. نظرتُ في وجهه، ونظر في وجهي، قلت: هل تذكَّرتني؟

نظر إليّ بإمعانٍ أكثر وقال: نعم أنتَ صاحب الثريا، لكن لم أنزلك هُنا.

قلت: صحيح، كنتُ ذاهِباً إلى بيت ابنة خالي..

ترجّلَ من السيارة وقال: دع عنك يا أستاذ..

حمل الأسطوانة، وضعها في الصندوق الخلفي للسيارة، فركبتُ بجانبه، واستدار نحو بيتي، بعد لحظاتٍ قلت له: هنا.

توقّف وأنزل الأسطوانة وأصرّ أن يُدخِلها حتى وضعها في المطبخ. قلت: ما أخبار فتحي؟

- تقصد فتحي المهستر، أعانه الله يا أستاذ، ما يزال على ما هو عليه.
- هل تعرف مكتب المُختار؟
- أعرفه.
- أعطني رقم هاتفك، سوف أتَّصل بك حتى تأخذني إليه
- تكرم أستاذ، سجّل عندك.

- لحظة. قلتها واتَّجهتُ إلى الداخل، تناولتُ الهاتف وسحبتُ ورقة نقدية من جيبي، وعدتُ إلى السائق، أملى عليّ الرقم ودسستُ الورقة النقدية في يده، فقال: لا يا أستاذ، لم نفعل شيئاً هي بضعة خطوات. أصررتُ على وضعها في يده بعزمٍ وتراجعتُ قائلاً: سأتّـصل بك.

- بأمرك أستاذ.

قالها ومضى وهو يلوّح بكفّه

شروق

كانت مناسبة عيد ميلاد ابننا نيار فرصةً جيدة كي توجّه ريناد دعوة إلى شروق حتى تشاركنا الاحتفال بهذه المُناسبة. بعد أن أرسلتْ لها رسالة الدعوة عبر الواتس، جاءها الردّ بأنَّها تتشرَّف بالحضور.

اتصلتُ مع نيار أخبرته بالمُناسبة كي يحضر وأن الفتاة ستكون موجودة.

أعدَّت ريناد الحفل ضمن نطاقٍ ضيِّقٍ فدعت أختها أسيل مع زوجها وأولادها، ودعت صديقتها شيماء مديرة الحضانة، وشروق، ودعوتُ أختي (ثناء) مع زوجها وأولادها.

كانت المرّة الأولى التي رأيتُ فيها شروق، أوصلها أخوها غسان بتلك السيارة التي أوصلني بِها التي يقع مقودها على اليمين، بعد لحظاتٍ من بقائِه في الحفل، استأذنني وقال بأنه سيذهب وفيما بعد سيرجع كي يعيد أخته إلى البيت.

كانت فتاة شاهِقة الأنوثة، بيضاء البشرة، متوسّطة القامة، ذات عينَين لوزيتَن، تأنَّقت كما لو أنّها عروس، وخمَّنتُ بأنّها أتت من عند الكوافيرة. وكان نيار متأنّقاً يرتدي بدلة رسميّة جديدة مع ربطة عنق، وقد حلق شعره وذقنه، وكانت رائحة عطرٍ منعشٍ تفوح منه.

كنتُ جالِساً مع نيار، فأتت ريناد وجلبت معها شروق قائلةً: هذا زوجي بهاء، وهذا صديقه نيار الذي أسمينا اسم ابننا على اسمه.

قالت الفتاة بابتسامةٍ مهذَّبة: تشرَّفتُ بكَ وبصديقك يا أستاذ.

بعد جلوسهما بقليلٍ نظرت إليّ وقالَت: أشكرك يا أستاذ بهاء على جهودك في تعييني في الروضة، أنا سعيدة بهذا العمل لأنّني أحب الأطفال كثيراً.

قلت: العفو آنسة، أنا كنتُ فقط واسطة بينكِ وبين ريناد، هي التي سعت إلى توظيفك.

قالَت: أكيد، شكري لكما معاً.

قلت: ما الذي يجذبك في الأطفال يا آنسة شروق؟

قالت: التلقائية، الصدق.

بعد قليلٍ نهضت ريناد، ولحقتها. صرنا نتبادل الأحاديث مع الضيوف ونحن ننظر إليهما يتحدّثان مع بعضهما البعض.

بعد يومَين من ذاك اللقاء، اتَّصل بي نيار وقال بأنّه اقتنع بفكرة الزواج. أخبرتُ ريناد بهذا المُستجدّ فتواصلَت مع شروق وقالت لها بشكلٍ مُباشرٍ بأن نيار بعد أن رآها في الحفل أعجبته ويُريد أن يتقدَّم لخطبتها إذا كانت موافقة. فطلبت منها أن تمنحها أسبوعاً ريثما تفكّر بشكلٍ جيّدٍ وسوف تتّصل بِها.

انتظرنا حتى جاء الموعد واتَّصلَت شروق، قالت: مبدئياً لا مانع لدي، وأريد أن نتحدَّث في الهاتف عَن بعض التفاصيل.

فأعطيتُ رقمها إلى نيار كي يتَّصل بِها.

عند ذاك عكفتُ على كتابة المسودّة بتركيزٍ أكثر مع إضافة المُستجدّات، لم أكن أعلم بأن الأمر بينهما سيمضي على هذه الوتيرة السريعة. فبعد شهرٍ من ذلك جاءنا نيار إلى البيت ذات مساء وقال بأنّه

اتفق مع شروق على الزواج، وأنَّه باع البيت واشترى بيتاً في مكان آخر بسعرٍ منخفضٍ حتى يستطيع أن يتحمّل تكاليف المهر والزفاف، وقد فتح الصيدليّة الزراعية، وقال بأن شروق زارته مرَّتَين فيها: لكنّها واجَهَت مشكلة يا بهاء، وهي أن أهلها رفضوا الزواج عندما أخبرتهم وسألوا عنّي. قالَت: تحدَّث الجيران عنكَ بشكلٍ سيّء وأنّك أردتَ أن تغتصب ضيفة في بيتك، وسُجِنتَ سنتَين، وأشياء مقزّزة أُخرى، وكنتَ تسيء معاملة زوجتك المتوفية، ولم تنفجر بها أسطوانة الغاز، بل هي التي فجَّرَت الأسطوانة بنفسِها حتى ترتاح مِن مضايقاتك لها، وإذا تزوَّجتُك سأنتهي إلى ذات المصير.

عندما سمعتُ هذا الكلام منها، قلتُ في قرارة نفسي بأن كل شيءٍ انتهى، لكنّها أضافت: قلتُ لهم حتى لو صوّروه على أنّه الشيطان بذاته، سوف أتزوّجه، ولن يستطيع أحد أن يقف في طريقي.

بصراحة يا بهاء كلامها الأخير زادني إعجاباً بِها، وجعلني أثق بمشاعري نحوها أكثر، لقد أحببتها عندما رأيتها في الحفلة، لكنّني أحببتها أكثر. كانت في الصيدلية عندما أخبرتني بذلك فلم أملك سوى أن أطبع قبلة على جبهتها.

❁❁❁

اتصلتُ مع السائِق وطلبتُ منه أن يأتي كي يأخذني إلى مكتب المُختار، ارتديتُ معطفي الأسود وخرجت من البيت عندما رنّ لي السائق رنّة على الهاتف وأغلق. كانت الساعة قد بلغت العاشرة والنصف صباحاً، وكان الطقس شديد البرودة. رأيته واقِفاً بمحاذاة الرصيف، فتحتُ الباب

وفور جلوسي بجانبه أدار محرّك السيارة، كان داخل السيّارة دافِئاً، والمكيّف يُصدر هواءً ساخِناً. مضينا تحت المطر الذي يهطل بغزارةٍ دون رعود أو بروق ومسّاحة السيارة تزيح المطر الذي يرشق الزجاج الأمامي بكثافة. عند اقترابنا من محطّة محروقات، عرَجَ السائِق إليها ووقف بجانب الشخص الذي يملأ المحروقات. نزل وبعد نحو دقيقتَين عاد وهو يفرّك يدَيه ببعضهما من شدَّة البرد. استوى جالِساً خلف المقود و أكمل المسير في الطريق. قلت: كيف هي أسعار البنزين هذه الأيام؟

قال: مرتفعة جدّاً يا أستاذ، ما نُحصّله من الركّاب يبتلعه البنزين، والمُخالفات، والأعطال، والرسوم، وحدّث ولا حرج، لكن هذا غاز، حوّلتُ سيّارتي إلى الغاز لأنّه أرخص.

دخل إلى شارعٍ فرعي، مضى فيه حتى توقَّف بمحاذاة رصيف وأشار إلى محلٍّ بأنّه مكتب المُختار. نظرتُ إلى الباب الزجاجي، قرأتُ فوقه يافطة مكتوبٌ عليها: (المُختار أثير).

أنقدته الأجرة ونزلت.

تقدَّمتُ إلى الباب، مددتُ يدي إلى قبضته، فوجئتُ بأنَّه موصَد، نظرتُ من خلف الزجاج إلى الداخل، وقعت نظراتي على طاولةٍ عليها بعض الأوراق، وعلم البلاد، ويظهر مسندٌ طويلٌ لكرسيّ خلف الطاولة، وفي أعلاه على الحائِط صورة الرئيس في برواز مُزخرَف.

تراجعتُ إلى الوراء أتمشى في الشارع ريثما يعود. كان المطر ما يزال يهطل ولكن بشكلٍ أخفّ، مشيتُ على الرصيف محتمياً ببعض واقيّات الدكاكين. بدأتُ أتأمّل الدكاكين التي تبيع الأجبان والألبان، والدجاج

البلدي، والإوز، وديوك الحبش، والأرانب، والبيض البلدي، وكان هناك رجل يقف بمحاذاة الرصيف ومعه تيس صغير يعرضه للبيع. وهو سوقٌ لمُنتجات القُرى الطازجة، مضت عليّ سنواتٌ طويلة لم أزره. خطر لي أن أجيء بين فترةٍ وأخرى أشتري بعض هذه المُنتجات الطبيعيَّة. رأيتُ بعض النسوة القرويات يفترشن الرصيف أمام بعض أبواب الدكاكين التي كانت مغلقة، وقد أتين بمنتوجاتهن مِن القُرى.

عدتُ أدراجي إلى حيث مكتب المُختار، رأيته ما يزال مُغلَقاً، دخلتُ إلى محلٍ للحلاقة الرجالية كان على مقربةٍ منه. كان فيه شخصٌ في ثلاثينيّات العمر يرتدي بنطالاً مِن الجينز، حوله حزامٌ مِن الجلد البنّي اللون وقد أرخاه إلى منتصف مؤخّرته، ومعه صبي وسيم بسنِ المُراهَقة أشقر الوجه ذو شعرٍ طويلٍ ممشَّطٍ بعناية، يميل إلى الأنوثة أكثر مما يميلُ إلى الذكورة. ألقيتُ السلام عليهما وجلست. كان الرجل منهمكاً بحلاقة شعر زبون والصبي واقفٌ بجانبه يلبّي له ما يريد وهو ينظر إلى يدَيه تتحرّكان بين شعر الزبون، فعلمتُ بأنّه يتدرَّب على الحلاقة عنده، ولا أدري لماذا خطر لي بأن ثمّة علاقة مثلية بين الصبي والحلّاق.

بعد نحو خمس دقائق من جلوسي دخل شخص أجدع الأنف بيده جوّال، ألقى السلام علينا، وجلس على ذات الأريكة التي أجلس عليها.

وبين لحظةٍ وأُخرى يلقي نظرةً إلى شاشة الهاتف، ثم إلى مؤخّرة الصبي الذي كان يقف بجانب الحلّاق مولياً ظهره إلينا.

عندما انتهى من حلاقة الزبون، التفتَ إليّ وقال: تفضل أستاذ. ثم توجّه بكلامه للشخص: أنتَ بعده.

هزّ الشخص رأسه وعاد ينظر إلى شاشة الجوّال.

رأيتها فرصة سانِحة كي أخفّف من شعري الذي طال دون أن آبه به، وكانت ريناد قد ذكَّرتني أكثر من مرّة ولكنّني كنتُ منهمِكاً في الكِتابة، وكان ذلك بمثابة التريّث أيضاً ريثما يعود المُختار.

جلستُ على الكرسيّ الدوّار، فتقدَّم الصبي، سحب منديلَين من المحارم، وضعهما حول رقبتي، حزم خيوط صدريةً بيضاء عليهما، طلبتُ منه أن يُرخيها قليلاً.

بعد قليلٍ عاد المعلّم الذي كان يقف أمام الباب يطلّ على الشارع ويدخّن سيجارة.

بدأ المعلّم في قصّ شعري وقال: يبدو بأنّكَ جديدٌ في الحارة؟

قلت: لستُ من الحارة، جئتُ إلى المُختار أثير.

قال: المُختار خاصّ بسكان الحارة فقط.

قلت: جئتُ لزيارته فقط.

نظر إليّ وابتسم بسمة ذات معنى وقال: زيارة..؟!

قلت: إي زيارة.

قال وهو يقص الشعر: هل لك معرفة سابِقة بِه؟

قلت: لا، هذه أوَّل مرَّة سأراه.

قال: المُختار عمل حادثاً بسيّارته في الأسبوع الماضي وهو في البيت.

قلت: هل تعرف الأستاذ فتحي؟

قال: وكيف لا أعرفه، ابن حارتي، المُختار خرب بيته لكنه مثل كل مرَّة خرج منها كما تخرج شعرة من عجين.

جاء صوت الشخص الذي كان جالِساً: ليس فقط بيته، خرب عشرات البيوت، عندما أوقفته الشرطة، اعترف بعلاقته مع خمس وأربعين امرأة من الحارة والحارات المُجاوِرة. توقَّف شهرين وأخلوا سبيله.

قال الحلّاق: مدعومٌ من الحِزب الحاكم.

قال: هو عضو قديمٌ في الحزب، كان يتوسَّط للنساء في تأمين وظائف ويأخذ منهن ما يُريد.

تعالى صوت الصبي ضاحِكاً: (ينيكهن)..

أصبح لديّ فضولٌ أكثر كي أراه، وخطر لي أن أزوره في البيت زيارة عائلية مع ريناد.

نعيماً. قالها الحلّاق.

أحسستُ بمنظري وقد تغيَّر بعد الحِلاقة، وأنا أنظر في المرآة وأنزل من الكرسي. أنقدته ورقةً نقدية، أخذتُ منه عنوان بيت المُختار وخرجت.

مشيتُ إلى السوق، تذكَّرتُ الألم الذي أصاب كاحلي، ابتعتُ من النسوة الجالِسات بعض القشدة والبيض البلدي وقرصاً من الجبن، وطنجرةً صغيرةً من اللبن كانت مغطّاة بقماشٍ أبيضٍ رقيق، ملفوفة من حولها ومن فوقها بقنّب من النايلون.

أوقفتُ سيّارة، وضعتُ ما بيدي على المقعد الخلفي للسيارة، صعدتُ بجانب السائق، وانطلقنا إلى البيت. في الطريق وبينما كان السائق واقِفاً خلف رتلٍ طويلٍ من السيارات عند الشارة الضوئية، لمحتُ وجه شخصٍ لم يكن غريباً عليّ. كان يقف في ركنٍ من الشارع بجانب كُتبٍ مستعملة فَرَشها على الرصيف. تحرَّكت السيارات التي كانت واقِفة أمامنا، ومضى السائِق. خطر لي في لحظة بأنّه توفيق اليتيم الذي كان معنا في المدرسة الابتدائية، أجل تلك الملامح التي بقيت في ذاكرتي لم تتغيَّر كثيراً رغم السنوات. لكن ما الذي أتى به إلى ذاك العمل على قارِعة الشارع؟

عادت صورة ذاك الطفل الشديد الحياء إلى مخيّلتي، تقتُ إلى تلك الأجواء الجميلة.

بعد تجربة بقائي سجيناً في المكتبة وقراءة كل ذاك الكم الهائل من الروايات، صرتُ أميل إلى الأشخاص الذين كانوا جزءاً من طفولتي، أرى في كل واحدٍ منهم شيئاً منّي، أسمع منهم أشياءً حصلت معي كنتُ قد نسيتها. صرتُ بين فترةٍ وأُخرى أنقب عنهم كما ينقب عالِم الآثار عَن قطعٍ أثريّةٍ نفيسة. أذهب إليهم في أعمالهم، أزورهم في بيوتهم، أدعوهم لزيارتي في البيت. أشعر براحةٍ غريبةٍ معهم، أسألهم عَن أصدقاء الطفولة، أصدقاء الدراسة في المرحلة الابتدائيّة. وإذا صدف أن وجدت مع أحدِهم رقم هاتف صديق سافر إلى مدينة أُخرى، أو دولة أُخرى، فإنّني أدوّن الرقم في هاتفي وأُجري مكالمة واتس معه، أحياناً تطول المُكالَمات بيننا، تستغرق ساعتَين متواصلتَين دون أن نشبع من الكلام.

أين البيت أستاذ؟ أيقظني صوتُ السائِق من شرودي، فانتبهت بأنّه دخل شارع البيت، أشرتُ له إلى الأمام قليلاً وقلت: هُناك.

توفيق

لبثت صورة توفيق في مخيّلتي حتى وقتٍ متأخّرٍ مِن الليل، وفي صباح اليوم التالي خرجتُ من البيت. كانت السماء صافية، والشمس ساطعة بجماليةٍ غريبة، تغري بالمشي تحت خصلات شعرِها الذهَبي. تردَّدتُ من إيقاف سيارةٍ تمهّل بها السائِق وهو ينظر إليّ واقِفاً على رصيف البيت. خطوتُ باتجاه السوق وأنا أستمتع بالمشي تحت الشمس، أشعلتُ سيجارةً وبدأتُ أنفث الدخان وأمشي. لوَّحتْ لي امرأة يدها بالسلام وهي تقود سيارة، أجبتها بتلويحةٍ من يدي دون أن أتمكّن من النظر إليها جيداً أو معرفتها.

بغتةً رأيتُ نفسي وقد أصبحتُ على مشارف السوق، أخرجتُ جوّالي ونظرتُ إلى العدّاد فأشار بأنّني مشيتُ أربعة آلاف خطوة، فأكملتُ المسير بقطع الألف خطوة المتبقيّة للوصول إلى السوق. فقد اعتدتُ على المشي وكثيراً ما يرسل لي الجوّال إشعاراً بالتهنئة لأنّني مشيتُ مسافة ألف خطوة خلال اليوم.

تراءى لي توفيق مِن بعيد، مضيتُ وأنا أنظر إليه حتى دنوتُ منه، كان جالِساً على كرسيٍّ صغيرٍ على الرصيف بجانِب الكتب، يرتدي كنزةَ صوفٍ برتقالية بياقةٍ مستديرة.

ألقيتُ عليه السلام فنهض مجيباً، حدَّق بي وحدَّقتُ به. بادرني بالقول: ألستَ بهاء؟

قلت: كيف عرفت؟

قال: أنا توفيق ألا تذكرني؟

تصافحنا وتبادلنا القبلات، سحب الكرسي الذي كان قد وضع عليه جاكيته، ودعاني إلى الجلوس.

جلستُ وأنا أقول: عرفتكَ يا صديقي منذ البارِحة وليس الآن، البارِحة مررتُ بسيارةٍ مِن الشارع ولمحتكَ، كان الوقت ضيِّقاً ولم أستطع النزول.

قال: ما تزال تحتفظ ببعض ملامحك، حتى صوتك ما يزال يحافظ على بعض نبرات الطفولة. كنتَ دوماً أنتَ ونيار معاً، هل تراه؟

قلت: نعم.

قال: ما أخباره..؟ أذكر كان طفلاً رقيقاً وحسّاساً.

قلت: بخير، وأنت ما أتى بك إلى هُنا، ألم تُكمل دراستك؟

ابتسم ابتسامة باهِتة وقال: أكملتها وتخرَّجت من كلية الحقوق.

نظرتُ إليه بذهول، فأردف: وعملتُ تحت التدريب في مكتب أحد المُحامين حتى صرتُ أستاذاً وفتحتُ لنفسي مكتباً.

نظرتُ إلى الكتب المفروشة على الرصيف وإليه، قال: عملتُ سنتَين في المحاماة وكان عملي لا بأس به، لكن الذي حصل أنّني بعد هاتَين السنتَين تحوَّلتُ إلى شخصٍ كاذب، جائر، قاسي القلب، مُنافق، ميت الضمير. ذاتَ يومٍ راجعتُ نفسي وتوصَّلتُ إلى قناعةٍ بأنّني إما أن أستمرّ في ذلك، أو أترك المُحاماة. فمن ضمن كل عشرة مُراجعين كان تسعة منهم يكذبون ويطلبون منّي أن أقنع القضاة بأن كذبهم هو الصواب، وصواب الخصم هو كذب. كانوا يأتون ويحلفون على المصحف كذباً أمام القضاة وأنا أنظر إليهم وأعرف بأنَّهم يكذبون وأدافع عنهم.

واجهتُ نفسي بالحقيقة وذات يومٍ توصّلتُ إلى قرار ترك المهنة، بعتُ السيارة والمكتب، وضعتُ كل ما لدي مِن نقودٍ في حقيبةٍ وأشعلتُ فيها النار.

اشتريتُ هذه الكُتب المُستعملة مِن بائعٍ آخر للكتب بالقرض، ومع العمل سدّدتُ الديون المترتّبة عليّ. الآن أعمل وأعيل زوجتي وأولادي، وأحترم عملي هذا لأنّه أنجاني مِن مستنقعٍ كنتُ منغمساً في براثنه.

في تلك اللحظات رأيته يلوّح بيده لشخصٍ كان يركب سيارة أجرة إلى جانب السائِق، وعلى الفور قال: أتعرف مَن الذي ألقى عليَّ السلام في تلك السيارة؟

نظرتُ إلى السيارة التي ابتعدت قليلاً وقلت: لم أره جيداً.

قال: أتذكر زميلنا في المدرسة (أرغد)؟

شردتُ قليلاً وهززتُ رأسي: نعم تذكَّرته.

قال: هذا هو أرغد، كان قاضياً عندنا في المحكمة، وذات يوم استطاع أن يجمع أدلَّةً كافية وأصدر حكماً بالبراءة على شخصٍ كان قد قتل زوجته دِفاعاً عَن النفس.

تذكَّرتُ قصته التي حكاها لي نيار، ولم نكن نعلم بأنَّه كان زميلنا في المدرسة.

قال توفيق: بعد نحو شهرين من هذه الحادِثة الغريبة، رأى التضييق عليه، ولم يعد يُسمح له بممارسة القضاء في القضايا التي كانت ترد إلى المحكمة. كان يذهب إلى مكتبه، يجلس إلى نهاية الدوام ويعود إلى البيت. فوجئ ذاتَ يومٍ بتهمةٍ أُلصِقَت به وهي أنَّه تقاضى رشوةً مِن

ذات المتَّهم كي يبرئه، وجاء شخصان حلفا على المصحف بأنَّهما أعطيا مبلغ الرشوة للقاضي في بيته. توقَّفَ عدَّة أيّامٍ، ثم تلقّى تهمة أُخرى بأنّه أثناء ممارسته للقضاء كان يتآزَر مع متَّهمين يوالون تنظيماً متطرِّفاً. علِمَ بأنَّهم لن يتركوه، فتقدَّم باستقالَته واستأجرَ دكّاناً يبيع فيه ثياب البالة، ومن يومها تركوه بحال سبيله. أحياناً يأتي هُنا يشتري بعض الكُتب، رجل نهم القراءة، ذات يومٍ دعاني لزيارته في البيت، كانت لديه مكتبة كبيرة قال بأنَّه قرأ كل تلك الكُتب.

أخذتُ رقم هاتفه من توفيق، فإضافةً إلى فضولي بلقائه بكونه زميلٌ قديم لي في أوقات الدراسة الابتدائيّة، تشوقّتُ للقائه أكثر بعد أن عرفتُ عنه كل هذه الأحداث.

الزفاف

أرسل نيار رسالة واتس مقتضبة إليّ: وافق أهل شروق على الزواج.

كان الخبر القصير سعيداً جداً وتحولاً كبيراً في حياة نيار، أردتُ أن نتحرّك في الأمر وهو في ذروة سخونته. اتَّصلتُ به على الفور وطلبتُ منه أن ينسّق مع أخيه حواس ومع عمّه بشكلٍ عائلي ويذهبوا لخطبتها رسمياً.

قال: أريد أن تكون أنت وريناد أيضاً معنا.

قلت: سنأتي.

لم يستغرق الأمر طويلاً وخلال أسبوعَين كان موعد الزفاف. أراد نيار أن يقتصر ذلك على حفلة بسيطة يتم فيها الزفاف، ولكن ريناد لم تقبل واقترحَت أن تُقام له حفلة كبيرة في صالة أفراح. في البداية لم أكن مشجّعاً للفكرة، ولكنّها أقنعتني عندما قالَت: نيار عانى كثيراً وعليه أن يفرح ويشعر من أعماقه بأنّه عريس ويعيش هذه الطقوس، هذا أمر مهم يا بهاء، ليرقص هو وخطيبته في العرس ويلتقطان الصور، ويكون لعرسهما الفيديو الخاص به حتى يراه أولادهما وأحفادهما. ولماذا تريد للزفاف أن يكون متخفّياً كما لو أنّنا لصوص، لنرفع أصواتنا ونرقص ونزغرد ونرتدي الثياب الجديدة، نقدّم لهما الهدايا، نحتفي بهما كعروسَين.

ثم ابتسمَت وقالت: أعطيتها بعض التعليمات عَن حميميّة العلاقة الجنسية التي أظن بأن نيار كان محروماً منها.

قلت: أنا أيضاً أظن ذلك، لأن الجسد ينفتح على الجنس عندما يكون في حالة صفاء تامّة مع الجسد الآخَر.

قالَت: أحياناً أريد أن آكلك جنساً، كل ذرّة فيك تسحرني من شعر رأسك إلى أخمص قدمَيك.

قلت: الجنس رائعٌ يا ريناد، فعلاً هناك مواضع للمتعة لم أكن أعرفها، لولا زواجنا.

قالَت: اكتشفتُ بعد زواجنا بأن مواضع الإثارة تفصح عَن نفسها تلقائيّاً كلّما انسجم الجسدان مع بعضهما، وكلّما أراد أحدهما أن يحقق النشوة للآخر بقدر ما يتمتَّع بِها، أقصد يستمتع وهو يحقّق المُتعة للآخر.

قلتُ لشروق: دعيه يقبّل من جسدكِ ما يشاء، وقبّلي من جسده ما تشائين، يستمتع بجسدكِ كما يشاء، واستمتعي بجسده كما تشائين، هذا هو الزواج المُتكامل يا صغيرتي، وما دون ذلك يكون زواجاً ناقِصاً.

ذهبتُ مع ريناد إلى بيته الذي أصبح جاهِزاً وبانتظار دخول العروسة إليه. قامت ريناد بتصميم نموذج بطاقة الدعوة بشكل رقمي أنيق. وصرنا نتذكَّر الأسماء. بعد أن ذكر نيار الأسماء التي اختارها، وذكرت ريناد الأسماء التي اختارتها، أمليتُ عليها: ميخا والعائلة، رحاب ابنة خالي وزوجها، ثناء أختي مع زوجها، حسام ابن عمّي وزوجته. دانيال الآشوري، ورتَّبتُ أن يذهب أخو شروق إليه يجلبه ويعيده. عصام صديقي الموظف في المركز الثقافي وزوجته، مديري في العمل والعائلة، العميد غياث والعائلة، توفيق والعائلة.

كانت حفلة ممتعة في قاعة الأفراح على إيقاع فرقةٍ موسيقية ومطرب محلّي، استمرَّت حتى الثانية والنصف ليلاً وكان موعد انطلاق الباص لذهاب نيار مع زوجته إلى العاصمة لقضاء عشرة أيّام. ودّعناهما في الكراج وعدنا ومعنا بهية.

المختار أثير

اصطحبتُ ريناد معي وذهبنا إلى بيت المُختار، دخلنا في الشارع وصرنا نسأل عن بيته حتى توقَّف السائِق أمام بابٍ وقال: هذا هو بيته. مددتُ سبابتي إلى زر الجرس الذي كان بجانب الباب، فتحتْ امرأة لنا، فقدمتُ نفسي مع زوجتَي وقلت بأنّنا جئنا لزيارة المُختار.

رحَّبَتْ بِنا وأدخلتنا إلى غرفة مكتظَّة بدخان السجائِر، كان المُختار مُستلقياً فيها على ظهره على سريرٍ كبير مصنوعٍ من خشب الصنوبر، ويبدو أن قدمه اليُمنى قد بُتِرَت من تحت الركبة بقليل، وكانت قدمه اليُسرى ملفوفة بجبسٍ ومثبَّتة أفقياً بشكل مستقيمٍ مرتفعٍ عَن جسده وقد وضعها على عدّة وسائِد.

كانت يده اليُسرى أيضاً ملفوفة بجبسٍ ومعلَّقة برقبته بحزامٍ من القماش. وكانت زجاجة (براندي) مع كأس وعلبة دخان وقدّاحة على الكومودينو إلى يمينه.

دعتنا المرأة إلى الجلوس فيما لبثت هي واقِفة، قعدتُ على الأريكة الأنيقة كما لو أنّي أجلس على فراءٍ ناعم، وقعدتْ ريناد بجانبي.

أحسستُ بقشعريرةٍ وأنا أنظر إلى قدمه المبتورة، كان غافياً فأيقظته المرأة، تحرَّكَ قليلاً وأبرز عَن عينَين حمراوَين، حدَّقَ إلينا، أطال النظر إلى ريناد وقال: أهلاً وسهلاً. ثم ما لبث أن مدَّ يده إلى علبة الدخان وأشعل سيجارة بطقَّةٍ مِن القدّاحة.

قلت: حمداً لله على سلامتك يا مختار. وقدَّمتُ له نفسي وقلت بأنّني سمعتُ عن الحادث وجئتُ برفقة زوجتي للاطمئنان عليه.

بدا ثملاً لأن الزُجاجة كانت في منتصفها: كثيرون يأتون إليّ في المكتب. خرجت الكلمات ثقيلة مِن فمه. أردف يقول: لا أستطيع أن أذكرهم جميعاً لكنّني لم أقصّر مع أحدٍ بقدر استطاعَتي.

دخلت المرأة حاملةً سفرةً عليها سكّر وشوكولاتة، ضيَّفتنا وجلست على أريكةٍ قبالتنا وهي تقول: أهلاً وسهلاً.

كانت امرأة في منتصف العمر، تبدو بأنَّها تعيسة في حياتِها كما لو أنَّها لم تعش يوماً سعيداً.

قال المُختار بلسانه الثقيل وهو بين لحظةٍ وأخرى يختلس نظرةً من ريناد: لم أكن مُسرِعاً على طريق الأوتوستراد، كنتُ ذاهِباً لأتوَسَّط في توظَّيف امرأة أرملة. فوجئتُ بصهريج نفط يأتي كالسهم قبالتي ويصدمني، انقلبت سيارتي، وانقلب الصهريج بعدي بنحو مئتَي خطوة، سمعتُ صوت انفجارٍ قوي عرفتُ فيما بعد بأنّه كان ممتلئاً بالنفط وانفجَر.

نهضت المرأة وأخذت معها ريناد.

أترعَ الكأس بيده اليُمنى التي كانت ترتجف، ورفعها إلى فمه وقال: معمل الغزل فيه نساء جميلات، أذكر بأنّني توسَّطتُ لتعيين امرأة فيه، يومها جئتُ إلى مدير المعمل مع المرأة، وكان أحد المسؤولين قد أخذ لي موعداً معه وأوصاه بي.

جرع نصف الكأس، أشعل سيجارة مِن عقب أُخرى وقال: أحّ، ما أطيب البراندي، اعتدتُ عليه ولا أتصوَّر بأنني أستطيع أن أعيش بدونه.

رأيتُ في المعمل عدّة نساء كنّ جميلات كما لو أنهنّ ممثلات السينما. هي ما تزال حتى الآن تداوم في المعمل ربما تعرفها، اسمها (زينة).

قلت: أعرفها جيداً أنا رئيسها في قسم الإنتاج.

قال: هذه مِن قِبَلي، خذ بالك مِنها.

ولا أعرف ماذا خطر له حتى مدّ يده إلى هاتفه وفتح مكبّر الصوت، صار الهاتف يُصدر رنيناً إلى هاتف آخر. بعد قليلٍ جاء صوتُ نسوي: أهلاً مختارنا الغالي.

قال: كيفك يا زينة؟

قالَت: بخير ما دمتَ أنتَ بخير.

قال: احزري مَن جالس معي الآن في البيت؟

قالَت: مَن يا مختار؟

قال: الأستاذ بهاء.

قالَت: رئيس قسم الإنتاج؟

قال: نعم هو وأوصيته بكِ

قالَت: بلّغه سلامي.

فهززتُ رأسي

قال: بلَّغته وهو أيضاً يسلَم عليكِ.

قالَت: أهلاً وسهلاً.

أقفل الخط مبتسماً، فدخلت المرأة حاملةً كأساً من عصير البرتقال الطبيعي، قدمته لي وانصرفت.

قال: هذه زوجتي السادسة.

نظرتُ إليه مندهِشاً فقال: لا تستغرب، طلَّقتُ الخمسة، وهذه وحدها عندي.

رشفتُ رشفةً من العصير، فقال: قبل أن أتزوَّج، كانت علاقاتي النسائية كثيرة يا أستاذ، فقال أبي: سأزوّجك مبكّراً يا أثير قبل أن تجلب لي مشكلة، فزوَّجني وكنتُ في الثامنة عشر مِن عمري. لكن بقيت عيني على النساء، كلّما كنتُ أرى امرأة جميلة كنتُ أريد أن أفعل أي شيء حتى أطلّقها مِن زوجها وأتزوَّجها، وإذا كان طلاقها صعباً، كنتُ أحاول أن أضاجعها مهما كلَّفني ذلك مِن ثمن.

بعد سنةٍ من زواجي الأوَّل طلَّقتها وتزوَّجتُ امرأة ثانية، ويبدو أنّني من يومها اعتدتُ على الزواج والطلاق. لكن عرفتُ بأن ذلك لا نهاية له. عندما تزوَّجتُ زوجتي السادسة التي رأيتها قبل قليل، قررتُ أن أتوقّف عَن الزواج والطلاق وأستمرّ في علاقاتي مع النساء الجميلات.

كانت علاقاتي النسائيّة ضيّقة، وكنتُ أعمل في بيع وإصلاح الهواتف الجوّالة في دكّاني لأّنني فشلتُ في الدراسة ورسبتُ في البكالوريا سنتَين دون أن أحصل عليها.

مدَّ يده مرة أُخرى إلى الزجاجة، أفرغ في الكأس ما تبقى فيها، أبقى الزجاجة في يده حتى فرغت تماماً. قال: اشرب كأساً يا أستاذ.

قلت: لا، شكراً يا مختار.

ضغط على زرّ وتناهى رنين جرس في الخارج، دخلت زوجته، فأشار إليها أن تجلب زجاجة أُخرى. حدَّقَت المرأة في الزُجاجة الفارِغة، وأبدت له إيماءة بالاكتفاء، فأجابها بإيماءةٍ أن تجلب الزجاجة. توارت المرأة قليلاً وعادت حاملة الزجاجة، حملت الفارغة ووضعتها في موضِعها، وفي تلك اللحظات همسَها المُختار بشيءٍ، فهزَّت رأسها بالإيجاب. بعد قليلٍ عادت تحمل كأساً مع صحنٍ من بزر القرع، وضعَتهما أمامي على طرابيزة وانصرفَت.

طلب منّي أن أنهض وأملأ لنفسي الكأس.

قلت: أعذرني يا مختار.

قال: بشرفي لن تخرج من هذا البيت قبل أن تشاركني الشرب.

نهضتُ وملأتُ الكأس وعدتُ إلى مجلسي.

رفع كأسه، ورفعتُ كأسي جرعتُ رشفة، ولحقتها بحبّة بزر.

قال: لم يكن أمامي حتى تتوسَّع علاقاتي سوى أن أعمل داعية، أو أنتمي إلى الحزب.

انتميتُ إلى الحزب، وحصلتُ على موافقة للمختارية في الحي رغم وجود مختارٍ آخر، وحوَّلتُ دكّاني إلى مكتب. اتَّسعت علاقاتي الاجتماعية، وكثرت نقودي. كل الأبواب التي كانت مُغلَقة أمامي، فُتِحَت بصفتي مُختار الحي، وبصفتي عضو في الحزب.

طأطأ رأسه وقال: لستُ حزيناً لأنني فقدتُ قدمي، ولكل ما أصابني، أنا حزينٌ لأنّني سأنحرم من النساء. كانـت أفضل أوقات حياتي هي تلك التي كنتُ أضاجع فيها امرأة وأنا ثمل.

وأنا أستمع إليه، راودني شعورٌ بأنّني ما أزال في حلمي الطويل، تسمَّرت نظراتي بنظرات المُختار، أشاح بوجهه قليلاً فقلت: لماذا أشحتَ بوجهك؟!

قال: لماذا أطلتَ النَظَر إليّ؟

قلت: ربما أنتَ الآن في حلم، وسوف تستيقظ منه.

قال وقد اتَّسَعت عيناه: كيف؟

قلت: هل لديك دليلٌ بأنّكَ لستَ في حلمٍ الآن؟

بعد زهاء دقيقتَين من الصمت الذي خيَّمَ علينا، أطلق قهقهة طويلةً وقال: لقد شربتَ كأساً وتقول بأنّني في حلم، اشرب كأساً أُخرى كي نكون أنتَ وأنا معاً في الحلم.

قلت: فعلاً، أنا أيضاً أعتقد بأنّني زرتكَ الآن في الحلم، ونحن الآن معاً في ذات الحلم.

انتفض من السرير كي يهبّ واقِفاً، وانطلقت منه تأويهة وقد رأى بأنّه يعجز عن النهوض من السرير. مدَّ يده إلى الزجاجة، وقذفها بكل ما أوتي من قوّةٍ إلى الحائِط المُقابِل، فتحوَّلَت إلى نتفٍ صغير، وانتشر السائل على أرجاء الغرفة وعلى وجهي وثيابي. دخلت زوجته مع ريناد بسرعة. فصرخ قائلاً: أنا في حلم وأريد أن استيقظ من هذا الحلم.

القاضي أرغد

اتَّصلتُ بالقاضي أرغد عند الظهيرة، وذكَّرته بنفسي، فرحَّب بي بحرارةٍ وذكر بعض المواقف التي كانت تحصل معنا في المدرسة الابتدائية، واتفقنا أن أزوره مساء اليوم في البيت.

أعددتُ نفسي وخرجتُ مِن البيت بِمُفرَدي. كان أرغد يسكن بيتاً بالأجرة في حارةٍ شعبيَّة.

طرقتُ الباب وبعد قليلٍ فتح وأخذني في حضنه، وصار يُقبّلني، طال بِنا الاحتضان عند عتبة الباب، شبكَ كفّه بكفّي ومضى بي بقامته الطويلة وأعضائِه المُتناسِقة إلى الداخِل، كانت زوجته بجانب باب الغرفة الداخلية، هزَّت رأسها بحياءٍ وهي تقول ببسمةٍ ارتسمَت على ثغرِها: أهلاً وسهلاً.

كان وجه أرغد مضيئاً يبدو عليه الاستقرار، ولم تكن البسمة تُفارِق ثغره وهو يُرحِّب بي.

قال: لم تتغيَّر كثيراً يا بهاء، ما تزال تحتفظ ببعض ملامح الطفولة.

قلت: أنتَ أيضاً، كما لو أن ذلك كان منذ عدَّة أشهر لا أكثر، ولكن نحن الذين كبرنا بسرعة.

قال: ما هي أخبارك.. ماذا تفعل؟

قلت: تخرجتُ من كلية الهندسة وتعيَّنتُ في معمل الغزل والنسيج، وأنت؟

صفنَ قليلاً وما تزال البسمة على ثغره: تخرَّجتُ من كليّة الحقوق وصرتُ قاضياً، لكنّني الآن استأجرتُ دكّاناً أبيع فيه ثياب البالة.

دخلت زوجته وقدَّمت لنا كأسَين مِن (الكابتشينو). خطر لي وأنا أرتشف السائل اللذيذ الذي تعلوه رغوة مُكثَّفة أن أعود وأجلب (كابتشينو) إلى البيت لأنَّني منذ زمنٍ لم أجلبه وكنا قبل ذلك نستخدمه بين فترةٍ وأُخرى.

قال: كنتُ أشعر بشيءٍ غير طبيعيٍّ يحصل خلال الفترة التي كنتُ فيها قاضياً، وهو الرقم القياسي المرعب في نسبة الطلاق وتفتيت العائلات مِن جهة، ونسبة انتحار النساء أو قتلهن من جهةٍ أُخرى. تحوَّل ذلك بالنسبة لي إلى هاجس، وصرتُ كل أسبوع أنبش الملفّات وأتواصل مع زملائي القُضاة في هذه المدينة وغيرها من مدن البِلاد، ولم يمرّ أسبوعٌ واحِدٌ دون انتحار وقتل نساء وطلاق وتفتيت عائلات. كنتُ أرجع إلى السنوات الماضية، وكانت المُقارنة أيضاً قياسيَّة بالنسبة لِما كان يحدث، كانت تزيد معي عن تسعين بالمئة. أصبح ذلك شغلي الشاغِل. ذهبتُ إلى العاصِمة لمقابلة وزير العدل الذي يُعرَف بـ: (نصير المرأة). قالَت لي السكرتيرة التي كانت قد وضعت كحلاً على جفونِها، بأنَّه في مهمّة إلى الأردن وسيعود بعد يومَين.

جلستُ على أريكةٍ أنيقةٍ في مكتب السكرتيرة، بعد نحو خمس دقائِق دخل شخصٌ وقدّم لي كأساً مِن الحليب الساخن. سألتني عَن أحوال القضاء في مدينتي، فقلتُ بأن الإشكالات العائليّة أصبحت شغلنا الشاغِل. حدجتني بنظرةٍ سريعةٍ وعادت تنظر أمامها دون أن تتكلَّم.

وكان الرجل الذي سمع الكلام يولي ظهره خارِجاً.

لبثتُ نحو نصف ساعة، استرحتُ فيها، وعندما نهضتُ، وقفتْ على قدَمِيها وقالَت: هل ستبقى اليوم هُنا يا جَناب القاضي أم ستعود؟

قلت: سأبقى هُنا.

قالَت: إذا أردتَ يمكن أن أحجز لك في الفندق الخاص بضيوف الوزارة، ونحن نتكفّل بقيمة الإقامة والطعام، وإذا أردتَ أن تذهب إلى مكانٍ آخر، فلك الحريّة.

فطلبتُ منها أن تحجز لي في الفندق. اتَّصلَتْ بالجوال، وبعد قليلٍ دخل شخصٌ فقالت له: خذ جَناب القاضي إلى الفندق.

بأمرك يا أستاذة. قالها الرجل وأردف متوجِّهاً إليّ: تفضل أستاذنا.

مضيتُ معه إلى سيّارةٍ سوداء حديثة كانت تقف في ساحة المبنى.

سارع الرجل وفتح لي الباب الخلفي، فجلستُ على المقعد الذي مازال عليه نايلون الوكالة الشفّاف.

كان الفندق جيداً وخدماته ممتازة، وكان يحتوي على مطعم، بعد تناول الغداء، بقيتُ جالِساً أتناول كأساً من الشاي. تقدّم إليّ مستثمر المطعم وقال: شرَّفتنا يا أستاذ.. هذه أوّل مرّة نراكَ فيها.

وعندما عرفَ بأنّني من مدينة أُخرى، استأذنني وجلس قبالتي، وضع كفَّيه الكبيرتَين على المائدة بيننا. كانت المرّة الأولى التي أرى فيها هذا الحجم الكبير للكفَّين.

قال: عساها زيارة عاديّة وليست زيارة مَرَض.

قلت: جئتُ للسيّد الوزير لكنّه مُسافِر

قال: نعم وسيرجع بعد يومَين.

قلت: ظاهِرة غريبة أردتُ أن أسمع وجهة نظر السيّد الوزير حولها بكونه يُعرَف بـ (نصير المرأة).

ضحك ضحكة باهِتة وقال: المُشكلة إيّاها، لو ترجع إلى مدينتك دون أن تُناقشه حولها سيكون أفضل لك.

فوجئتُ بِما قاله لي ونظرتُ إليه نظرة استغراب، فأردف يقول: لعلّكَ لم تسمع بِما حصل للسيد الوزير عندما كان مُستشاراً في الوزارة.

قلت: لا أعرف عنه شيئاً.

قال: حصل خلاف حادّ بينه وبين زوجته، وكان له منها أربعة أبناء، تصاعد بينهما الخِلاف حتى وصل إلى الطلاق. ولأنَّه كان نافِذاً في الوزارة استطاع أن يحتفظ بالأولاد معه رغم أحقيّة أمهم بالحضانة.

لكن لم تسكت الأم على ذلك وذات مرَّة ترَّقبتهم حتى خرجوا للذهاب إلى المدرسة، أطلقت النار على الأطفال الأربعة وانتحرت.

مِن يومِها أصيب بعقدةٍ تِّجاه النساء والأولاد، بعد سنةٍ من ذلك عُيِّن في التشكيلة الوزاريّة الجديدة وزيراً للعدل، وعندها شاع عنه بأنَّه (نصير المرأة). أعطى التعليمات الصارِمة بمؤازرة النساء وتشجيعهن على تقديم الشكاوى على أزواجهن أو آبائهن في حال تعرَّضن ولو لكلمةٍ جارِحةٍ، أو للتضييق عليهن في الدخول أو الخروج من البيت تحت شعارٍ أسماه: (حماية المرأة من تطاول الرجل عليها). وبدأ ينشر الإعلانات المموّلة في وسائل الإعلام ونشر أرقام هواتف ساخِنة لتلبية النداءات

المستغيثة من النساء بشكلٍ فوري. وشكَّل لِجاناً نسائية لحملة الدخول إلى البيوت في مختلف المدن لتوعية النساء وتشجيعهن بعدم السكوت عن أيّ تطاول للرجل عليهن، حتى ولو بكلمة، واعتبر أن تلك الكلِمة تُعتبَر تهديداً يُعاقِب عليه القانون.

اشرأبَّ إليّ وقال بشيءٍ من الخفوت: بعض مستشاريه استطاعوا أن يكتشفوا بأنّه ينتقم من النساء ومن العائلات بهذه الطريقة.

حدَّقتُ إليه وقلت: هذا كلامٌ خطير.

قال: هذا ليس كلامي يا أستاذ، هو كلام أقرب مستشاريه إليه، سمعته يقول هذا الكلام لشخص كان معه يتناولان العشاء هُنا. كنتُ أقترب منهما وأنصت.

قال بأنَّه كل أسبوعٍ يُقدّم له قائِمة بأعداد حالات الطلاق وتشريد العائلات وانتحار النساء وقتلهن. قال المُستشار: سيادة الوزير يعلم بأنهنّ لم ينتحرن، بل نُحِرنَ، لذلك يكون التحقيق شكليّاً مع الرِجال، لكن بعض أهالي الزوجات ينتقمون من الأزواج ويثأرون منهم.

قال له الرجل: لماذا أنتَ ساكت؟

قال: هذه وظيفتي، بعض المستشارين والقُضاة الذين تحدَّثوا معه عن تفشّي هذه الظاهرة الغير مسبوقة في مجتمعنا، فوجئوا بإلصاق تُهَم إثارة البلبلة في البِلاد، وفُصِلوا من وظائفهم. السيد الوزير له نفوذ في الوزارة وهو الذي يُعرَف بأنّه (نصير المرأة)، حتى أن بعض المُطبلين له قالوا بأنّ الحرية التي باتت المرأة تتمتَّع بِها في عهده، فاقت الحريَّة التي تتمتَّع بِها المرأة في سائِر أنحاء العالَم.

❁❁❁

انتهيتُ مِن وضع المسودّة، كنتُ متوقِّعاً أن أكتبها في شهرَين، وأعمل في الأشهر الأربعة المتبقيّة في نقلها على المبيضّة. لكنّني اكتشفتُ أن أربعة أشهر مضت في كتابتها. أردتُ أن أرتاح يومَين كي أباشر في وضع المبيضّة على الحاسوب. وكانت فرصة أن أعزم نيار وزوجته لتناول العشاء في المطعم لأنّني لم أره سوى مرة واحدة عندما عاد مع زوجته من العاصِمة، جاء سريعاً أخذ بهيّة وعاد.

تذكّرتُ مطعماً جيدّاً ذهبتُ إليه مرّة واحدة مع ريناد بمناسبة عيد زواجنا، وكان الطعام لذيذاً، والخدمات ممتازة.

اتَّصلتُ بِه ودعوته لتناول العشاء في مطعم، أعطيته اسم المطعم وعنوانه كي نلتقي هُناك. واتَّصلتُ مع المطعم، حجزتُ فيه مائدةً.

خرجنا في الثامنة مساءً وأخذنا معنا نيار. كانت الموائد المفروشة في حديقة المطعم ممتلئة بالناس، تقدَّم إلينا عامل الاستقبال، فأخبرته برقم مائدتنا، رحَّب بِنا وأخذنا إلى حيث المائدة التي كانت شاغِرة. جلسنا ننتظر قدومهم، قالَت ريناد وقد بدت مُنشرِحة الصدر: يغمرني شعورٌ غريبٌ بأنّني الآن سوف أستقبل ابني نيار وزوجته وقد عادا مِن شهر العسل.

قلت: لا أخفيكِ يا ريناد، أنا أيضاً مسرورٌ وأشعر بأنّني سوف أستقبل ابنتي وزوجها وقد رجعا للتو من شهر العسل.

تراءى لي نيار برفقة زوجته وبهية، جال بنظراته على الموائد المُزدحمة بالناس. لوّحتُ له بيدي، فتقدَّموا إلينا، تصافحنا وتبادلنا القبلات.

جلس نيار بجانبي، وجلست شروق وبهية بجانب ريناد.

كان وجه نيار مُشرِقاً، يبدو بأنّه شخصٌ سعيدٌ في حياتِه، اختفت عنه كل آثار العبوس التي كانت مُخيّمة عليه. تذكَّرتُ ما كتبه لي في الواتس قبل يومَين: اكتشفتُ الفرق الهائل بين أن تعيش مع امرأةٍ تحبّها، وامرأة تنفر منها.

وكان وجه شروق متفتّحاً أكثر من المرة السابقة عندما رأيتها في بيتنا، لمحتُ في وجهَيهما لمعة شهر العسل.

عندما رأيتُ ريناد مُنسجِمة في الحديث مع شروق، قلتُ لنيار: طمنّي يا صديقي.. هل أنتَ سعيدٌ مع شروق؟

قال: شروق امرأة رقيقة وطيّبة جدّاً يا بهاء. ضحك وأردف بشيءٍ من خفوت: تقبّلني كثيراً بشكل غير طبيعي، أينما تجدني تتقدّم إليّ وتُقبّلني، أحياناً أكونُ مُستغرِقاً في النوم، فأستفيق على وقع قبلاتِها على وجهي. في الصباح عندما أذهب لفتح الصيدليّة، تبسط ذراعَيها على حافَتَي الباب وتمنعني من الخروج، نبقى واقفَين نحو نصف ساعة على العتبة وهي تُقبّلني حتى أتمكَّن من الخروج.

قلت: أما كانت غدير تُقبّلك؟

قال: صدّقني يا بهاء لم يسبق لها أن قبَّلتني قبلة واحِدة.

قلت: وأنت؟

قال: لم أقبّلها قبلة حقيقيّة واحِدة، أحياناً في لحظات الجنس، كنتُ أضع على وجهها قبلات بارِدة كنتُ أحاول أن تكون حميميّة وساخِنة ولكنّني كنتُ أفشل. أشياء كثيرة صرتُ أنتبه إليها ماكنتُ أنتبه إليها مِن

قبل، شخصُ ما تنظر إليه، فتشعر بنشوةٍ ما، ذاك الشخص يكون لديه شيءٌ يُسعدك به، شخصٌ ما تنظر إليه، فتشعر بوخزةٍ ما، ذاك الشخص يكون لديه شيءٌ يؤذيكَ بِه.

دوماً أردّد بيني وبين نفسي بأنّني كنتُ بحاجةٍ إلى نفضةٍ قويَّةٍ كهذه حتى أستطيع أن أرى أمامي جيداً، حتى أستطيع أن أكتشف جماليّات الحياة جيّداً. أحياناً يحتاج الإنسان إلى هزَّاتٍ كبيرة كي تنفض الصدأ عن كاهله، وتُجدّد له حياته. الآن أدرك بأنّني كم كنتُ بارِداً، كم كنتُ مملّاً. إنّها حياتنا الجميلة يا بهاء وعلينا ألّا نُفرّط بِها، علينا أن ننتج في كل لحظة مِن لحظاتِها، ونستمتع بكل لحظةٍ مِن لحظاتِها. شروق تحب سماع الأغنيات كثيراً، في الصباح، يمتلئ البيت بصوت فيروز، وفي أوقاتٍ أُخرى تضع أغنياتٍ أُخرى: عبد الحليم، فريد، شادية، نجاة، أم كلثوم. تعرف كيف تنتقي الأغنيات في أوقاتِها.

قدَّموا لنا المُقبِّلات من: التبّولة، والفتّوش، والحمّص، والمكسّرات، بعد قليلٍ أتوا بطبقٍ من البطاطا المقليّة، وآخر من الكبّة النيّة.

أمضينا نحو ساعة نتسامَر، جاء النادل كي نطلب العشاء. همستْ ريناد مع شروق وبعد لحظات نظرت إليّ وحرَّكت شفتَيها دون صوت: سمك.

فطلبتُ سمكة مشوية بزنة كيلوَين.

استغرق جلب الطعام نحو ساعة حتى جاء النادل، وضع السمكة أمامنا وكانت في صحنٍ كبيرٍ وحولها أوراق النعناع، والبقدونس، وقطع الليمون، وشرائح الخيار والبندورة. ثم وضع بجانبها صحناً من رقائق

الخبز بالمحمَّرة وقال: المعذرة على التأخّر لأنّه سمك (مسكوف) مشوي في التنّور ببطء على الطريقة العراقية.

ونحن نأكل تقدَّم إلينا شخصٌ يرتدي زيّاً تراثياً، يحمل سيخاً بطول نحو مترَين من الكباب. وضع بجانب كل واحدٍ منّا قطعة وقال: هدية المطعم. ثم راح يدور على الموائد. بعد أن انتهينا ورفع النادل الموائد، تقدّم نادلٌ آخر يدفع عربيةً، وضع أمامنا أطباقاً مِن الحلوى والفواكه.

كانت المبيضّة بمثابة كتابة جديدة للرواية، تحمل إليّ متعةً جديدة في كِتابتها. حتى مشاعري بدت مُختلِفة وأنا أكتب بحذر لأنّها الكتابة الأخيرة التي ستخرج بصيغتها النهائية إلى القرّاء. أدركتُ بأن ما تبقّى مِن الإجازة لن يكفي لإنجاز المبيضّة.

صدر للكاتب

في الروايـة:

1- برويـــن - دمشق 1997 الطبعة الثانية القاهرة 2021

2- ديـــــن - دمشق 2004

3- جسد وجســد - دمشق 2004

4- روها ت - دمشق، بيروت 2006 الطبعة الثانية القاهرة 2021

5- خلف الجدار - دمشق 2007

6- إمام الحكمة - وزارة الأوقاف والشؤون الإسلامية - الكويت 2010 الطبعة الثانية القاهرة 2021

7- الآخرون أيضاً - كركوك 2012 الطبعة الثانية دمشق 2019

8- هولير حبيبتي - أربيل 2013 الطبعة الثانية القاهرة 2020

9- سورين - القاهرة 2019

10- سيامند وخجي - الطبعة الثالثة وزارة الثقافة العراقية بغداد 2021

11- بلاد ليست كالبلاد - القاهرة 2019 الطبعة الثانية دار شلير قامشلي 2022

12- أمريكا كاكا - القاهرة 2020 تُرجِمت إلى اللغة الانكليزية

13- المُلحد - الطبعة الرابعة القاهرة 2022

14- ماتزال في الحياة بقية - دار نفرتيتي - القاهرة 2023

15- غمامة - دار نفرتيتي - القاهرة 2023

في القصــة القصيرة:

1- سيمفونية الصمت - دمشـق 1989

2- الحب في دائرة العبث - دمشق 1990

3- طقوس الذكرى - دمشق 1992

4- كتاب الحب والخطيئة - حلب 2004 الطبعة الثانية القاهرة 2021

5- غيوم مـن الشرق - منشورات اتحاد الكتاب العرب - دمشق 2006

6- طريقـة للحياة - منشورات اتحاد الكتاب العرب - دمشق 2007

7- مدار اللسان - دار الكافي - الجزائر 2021

8- سر الخرزة الزرقاء - منشورات وزارة الثقافة العراقية - بغداد 2022

9- إشراقة حياة - دار شلير - قامشلي 2023

الفهرس

الفصل الأول كثير الصمت.. كثير الشرود..... 5

الفصل الثاني مفارقات..... 21

الفصل الثالث بسمة شاحبة..... 33

الفصل الرابع التحرش..... 48

الفصل الخامس نفحات الزيارة..... 60

الفصل السادس ظمأ الشوق..... 76

الفصل السابع عودة إلى طقوس السجن..... 88

الفصل الثامن النوم بأقراص مهدِّئة..... 96

الفصل التاسع القَسَم..... 113

الفصل العاشر مرحلة جديدة من الحياة..... 120

مصطفى..... 128

مدير السجن..... 130

ميخا..... 136

بكري السوَّاس..... 141

الفصل الحادي عشر حافية على كومة ذهب..... 155

الفصل الثاني عشر شجرة السَّفَر 171
دانيال الآشوري 175
المخدِّر نادر 188
نظرات الحب 191
شروع في كتابة المسوَّدة 201
شروق 212
توفيق 221
الزفاف 225
المختار أثير 228
القاضي أرغد 234
صدر للكاتب 243
الفهرس 245